الوصية الصغرى

لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية

شرح وتحقيق

محمد بن إبراهيم الحمد

دار ابن خزيمة

الوصية الصغرى

ⓒ دار ابن خزيمة للنشر والتوزيع، ١٤٢٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم

الوصية الصغرى ـ الرياض

٣٧٢ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم .

ردمك ٩ ـ ٣١ ـ ٨٨٩ ـ ٩٩٦٠

١ ـ الوعظ والإرشاد (أ) ـ الحمد محمد بن إبراهيم (محقق) (ب) ـ العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٢٣/٦١٧٦

رقم الإيداع: ١٤٢٣/٦١٧٦

ردمك: ٩ـ٣١ـ٨٨٩ـ٩٩٦٠

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م

دار ابن خزيمة

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية ـ الرياض

الملز ـ شارع الاحساء ـ غرب حديقة الحيوان

هاتف: ٤٧٣٠٧٨٨ ـ ٤٧٦٩٩٣٢ ـ فاكس: ٤٧٦٠٧٩٥

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـدّمة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن الإنسان في سيره إلى الله يحتاج إلى زادٍ يقويه، وحادٍ يبعثه، ومركبٍ يوصله؛ ذلك أن القواطعَ كثيرةٌ، والعوارضَ متنوعة، والموانعَ واقفةٌ بكل سبيل.

ولا ريب أن العلم النافع والعمل الصالح لمن أعظم ما يطيّب المسير، ويهوّن المشاق، ويوصل إلى المطلوب.

وإلا فإن الشبهَ خطّافة، والشهواتِ متزيّنة، والنفوس طُلَعَةٌ.

فإذا لم يكن للمرء علمٌ يَزُمُّه، وإيمانٌ يردعه أوشك أن يتردى في الحضيض، ويتهاوى في المهالك.

وإن من نعم الله ـ عز وجل ـ أن أبان المحجة، وأقام على عباده الحجة، وأخبر أنه من اعتصم به هُدي إلى صراط مستقيم.

ومن فضله ولطفه أن قيض لهذه الأمة علماء ربانيين يهدون بالحق وبه يعدلون.

ومن أولئك السَّراة السادة الأعلام أبو العباس شيخ الإسلام أحمد ابن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية الحراني ـ رحمه الله وأجزل مثوبته ـ فلقد خلف آثاراً ماتعة نافعة رائعة، من اطلع عليها ـ بعدل

وإنصاف ـ أدرك ما فيها من الهدى، والنور، والسبل الموصلة إلى السعادة؛ فالناظر فيها ـ بحق ـ يلحظ قوة العارضة، وبراعة البيان، والتفنن في العلوم.

ويلحظ فيها النظرَ في روحِ الشريعة، ومقاصدها العليا، والنظر في مصالح الناس، وما يلائم أحوالهم.

وإن مما خلَّفه ذلك الإمام رسالةً صغيرةً في حجمها، كبيرةً في فائدتها ومضمونها، ألا وهي الموسومة بـ:

«الوصية الصغرى»

تلك الرسالة التي هي عبارةٌ عن جوابٍ مسدَّد أجاب به على سؤال أبي القاسم المغربي؛ ذلك السؤال المُحْكَمُ المترابط الذي خلاصتُهُ طلبُ الإرشاد إلى ما فيه صلاح الدنيا والآخرة.

فأجاب شيخ الإسلام ـ كعادته ـ إجابة شافية كافية جامعة مانعة مَنْ أخذ بها أفلح في دنياه وأخراه؛ فهي ـ بحق ـ منهج حياة؛ ذلك أنها جمعت بين حق الله، وحق الناس، واحتوت على علوم شتى، ووصايا غايةٍ في الحسن، وذلك بعبارات سهلة، سلسلة منقادة.

كما أنها اشتملت على خلاصةٍ لكثير من علوم شيخ الإسلام التي أودعها كتبه الأخرى.

وبالجملة فهي وصية جامعة لخيري الدنيا والآخرة، وهذا ما سيتبين عند الحديث عن أهميتها، وعن مجمل ما احتوت عليه.

ولعل من أسباب شرحها، والعناية بها ههنا ـ مسيسَ الحاجة إلى

تلك الوصية، والرغبةَ في لفت الأنظار إليها؛ فهي لم تأخذ حقها من الذيوع والشرح[1] خصوصاً في هذه الأزمنة التي كثرت فيها ـ ولله الحمد ـ الدروس العلمية، وكثرت الشروح للمتون في مختلف الفنون؛ فهي جديرة بأن تخدم، وأن تدرس خصوصاً وأنها اشتملت على وصايا تدخل تحت عدد من الفنون؛ ففيها مباحث عقدية، ومباحث في الأحكام، ولفتات بارعة في التربية، والأخلاق، والسلوك، ونظرات صائبة ثاقبة في أعمال القلوب، وتدبير المعيشة، ونحو ذلك مما لا غنى للإنسان عنه؛ فالعناية بها من الأهمية بمكان.

وقبل الشروع في شرح تلك الوصية يحسن الوقوف على شيء من سيرة كاتب هذه الوصية، وعلى شيء من المسائل التي تبين عن شيء من مكنونات تلك الوصية، وذلك من خلال المبحثين التاليين:

المبحث الأول : نبذة مختصرة في سيرة شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ

المبحث الثاني : دراسة مجملة للوصية

وبعد ذلك يتم الشروع في شرح تلك الوصية.

وأخيراً أتوجه بالشكر لله ـ عز وجل ـ على توفيقه وإعانته، وأسأله الإخلاص والقبول.

---

(١) لم اطلع على خدمة لتلك الوصية إلا إفرادها، وتخريج أحاديثها وتعليقات يسيرة عليها للشيخ صبري بن سلامة شاهين، وكذلك خرجت مفردة وعليها تعليقات يسيرة جداً للشيخ إبراهيم الحازمي.

ثم أشكر كل من أعان على هذا العمل تصحيحاً، ومشورة، ومقابلة، وأسأل الله ـ بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى ـ أن يجزيهم خير الجزاء، وأن يجعل ذلك في ميزان حسناتهم يوم يلقونه؛ إنه سميع قريب.

وأسأله ـ عز وجل ـ أن يجعل هذا العمل ذخراً لي، ولوالدي، ولمشايخي، ولجميع من لهم حق علي، والله المستعان، وعليه التكلان، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

محمد بن إبراهيم الحمد

١٠/ ٥/ ١٤٢٣هـ

الزلفي ١١٩٣٢

ص ب ٤٦٠

المبحث الأول: نبذة مختصرة في سيرة شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ

هو تقي الدين، أبو العباس، أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام ابن تيمية الحراني، ولد سنة ٦٦١هـ، وتوفي سنة ٧٢٨هـ.

ذلك الإمام الحبر، والعلامة البحر، الذي دنت له قطوف العلوم، ودانت له نواصي الحكمة، والذي طبقت شهرته الخافقين، وسار بحديثه الركبان، فهو أُمَّةٌ في الخير، وقدوة في الهدى والتقى.

والحديث عن جوانب النبوغ والألمعية في سيرة هذا الإمام يطول، والمقام لا يتسع للإسهاب والإطناب؛ لأن جوانب العظمة في سيرته كثيرة جداً، يصعب حصرها، والوقوف عليها؛ فإلى شيء من تلك السيرة.

أولاً: علمه: فإذا أتيت إلى العلم وجدت العباب الزاخر، والبحر المتلاطم، وذلك لما وهبه الله من سعة العلم وغزارته.

قال الحافظ البزار: «أما غزارة علومه فمنها ذكر معرفته بعلوم القرآن المجيد، واستنباطه لدقائقه، ونقله لأقوال العلماء في تفسيره، واستشهاده بدلائله، وما أودعه الله ـ تعالى ـ فيه من عجائبه، وفنون حكمه، وغرائب نوادره، وباهر فصاحته، وظاهر ملاحته؛ فإنه فيه الغاية التي ينتهي إليها، والنهاية التي يُعَوّل عليها.

ولقد كان إذا قُرِىء في مجلسه آيات من القرآن يشرع في تفسيرها، فينقضي المجلس بجملته، والدرس برُمَّتِه، وهو في تفسير بعض آية منها.

وكان مجلسه مُقَدَّراً بقدر ربع النهار، يفعل ذلك بديهة من غير أن يكون له قارئ معين يقرأ له شيئاً معيناً يبيته؛ ليستعد لتفسيره.

بل كان كل من حضر يقرأ ما تيسر له، ويأخذ هو في القول على تفسيره.

وكان غالباً لا يقطع إلا ويفهم السامعون أنه لولا مضى الزمن المعتاد لأورد أشياء أخر في معنى ما هو فيه من التفسير، لكن يقطع نظراً في مصالح الحاضرين.

ولقد أملى في تفسير ﴿قل هو الله أحد﴾ مجلداً كبيراً، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ نحو خمس وثلاثين كراساً»[1].

ثم قال البزار ـ رحمه الله ـ: «وأما معرفته، وبصره بسنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأقواله، وأفعاله، وقضاياه، ووقائعه، وغزواته، ومعرفته بصحيح المنقول عنه وسقيمه، وبقية المنقول عن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في أقوالهم، وأفعالهم، وفتاويهم، وأحوالهم، وأحوال مجاهداتهم في دين الله، وما خصوا به من بين الأمة ـ فإنه كان ـ رضي الله عنه ـ من أضبط الناس لذلك، وأعرفهم فيه، وأسرعهم استحضاراً لما يريده منه؛ فإنه قل أن ذكر حديثاً في مصنف أو فتوى، أو استشهد به، أو استدل به ـ إلا وعزاه في أي دواوين الإسلام هو، ومن أي قسم من الصحيح، أو الحسن، أو غيرهما، وذكر اسم راويه من الصحابة.

---

(١) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية للبزار ص٢٢-٢٣.

وقلَّ أن يسأل عن أثر إلا وبـيَّن في الحال حاله، وحال أمـره، وذاكره»[١].

وقال ـ أيضاً ـ: «ومن أعجب الأشياء في ذلك أنه في محنتـه الأولى بمصر لما أخذ وسجن، وحيل بينه وبين كتبه صنف عِدَّةَ كتبٍ صغاراً وكباراً، وذكر فيها ما احتاج إلى ذكره من الأحاديث والآثار، وأقوال العلماء، وأسماء المحدثين، والمؤلفين، ومؤلفاتهم، وعزا كل شيء من ذلك إلى ناقليه وقائليه بأسمائهم، وذكر أسماء الكتب التي ذكر فيها، وأي موضع هو منها كل ذلك بديهة من حفظه؛ لأنه لم يكن عنده حينئذ كتاب يطالعه.

ونقِّبت، واختُبرت، واعتبرت فلم يوجد فيها ـ بحمد الله ـ خلل ولا تغيير»[٢].

قال: «حكى من يوثق بنقله أنه كان يوماً بمجلس، ومحدثٌ يقرأ عليه بعض الكتب الحديثية، وكان سريع القراءة، فعارضه الشيخ في اسم رجل عن سند الحديث، وقد ذكره القارئ بسرعة، فذكر الشيخ أن اسمه فلان بخلاف ما قرأ، فاعتبروه فوجدوه كما قال الشيخ»[٣].

«ولقد سئل يوماً عن الحديث **«لعن الله المحلِّل والمحلَّل له»**[٤]

---

(١) الأعلام العلية ص٢٣-٢٤.

(٢) الأعلام العلية ص٢٤.

(٣) الأعلام العلية ص٣٢.

(٤) أخرجه أحمد ١/ ٤٥٠، وأبو يعلى في مسنده ٨/ ٤٦٨ (٥٠٥٤)، والبغوي في شرح السنة ٩/ ١٠٠ (٢٢٩٣) من طريق عبيد الله بن عمر الرقـي عـن=

فلم يزل يورد فيه وعليه حتى بلغ كلامه فيه مجلداً كبيراً»(١).

أما مؤلفاته ومصنفاته وفتاويه فيقصر دونها العد والإحصاء، والبحث والاستقصاء.

ولهذا قلَّ أن تجد باحثاً في عصرنا هذا إلا ويعول على ابن تيمية، ويأخذ بأقواله، سواء كان ذلك في العقائد أو الفقه، أو الحديث، أو الفلسفة، أو المنطق، أو التربية، أو السلوك، أو السياسة، أو الاقتصاد أو غيرها.

ثانياً: تعبده: أما تعبده ـ رحمه الله ـ فكان عجباً من العجاب،

= عبدالكريم الجزري، عن أبي الواصل عن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ. وأخرجه أحمد ـ أيضاً ـ ١/ ٤٤٨، ٤٦٢، والنسائي ٦/ ١٤٩، والدارمي ٢/ ٥٥٤، والترمذي ٣/ ٤٢٨ (١١٢٠)، وابن أبي شيبة في المصنف ٤/ ٢٩٥، والبيهقي في سننه ٦/ ٢٠٨، من طريق سفيان الثوري، عن أبي قيس عبدالرحمن ابن ثروان الأودي، عن هزيل بن شرحبيل الأودي عن عبدالله به.

قال الترمذي: «حسن صحيح» وقال الحافظ ابن حجر: في تخريج الهداية ٢/ ٧٣ «رواته ثقات»، وقال في تلخيص الحبير ٣/ ١٧٠: «صححه ابن القطان، وابن دقيق العيد على شرط البخاري».

وصححه ابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/ ١٥٩ (١٠٧٣) والذهبي في الكبير ص١٠٣، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى ٣٢/ ٦١: قد ثبت عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «لعن الله المحلل والمحلل له» وقال في موضع آخر من الفتاوى ٣٢/ ٩٣، ١٥٣: «وقد صح عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: ...» فذكره.

(١) الأعلام العلية ص٢٣.

وذلك لما آتاه الله من جلد عجيب، ورغبة ومحبة للعبادة.

قال تلميذه ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وحضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر، ثم جلس يذكر الله ـ تعالى ـ إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إليَّ وقال: هذه غدوتي، ولو لم أتغدَّ سقطت قوتي، أو كلاماً قريباً من هذا.

وقال لي مرة: لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسي وإراحتها؛ لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر، أو كلاماً هذا معناه»[1].

وقال البزار: «أما عن تعبده ـ رضي الله عنه ـ فإنه قلَّ أن سُمعَ بمثله؛ لأنه قد قطع جُلَّ وقته وزمانه فيه، حتى إنه لم يجعل لنفسه شاغلة تشغله عن الله ـ تعالى ـ ما يراد له لا من أهل، ولا من مال.

وكان في ليله متفرداً عن الناس كلهم، خالياً بربه ـ عز وجل ـ ضارعاً، مواظباً على تلاوة القرآن العظيم، مكرراً لأنواع التعبدات الليلية والنهارية.

وكان إذا ذهب الليل، وحضر مع الناس بدأ بصلاة الفجر يأتي بسنتها قبل إتيانه إليهم.

وكان إذا أحرم بالصلاة تكاد تنخلع القلوب لهيبة إتيانه بتكبيرة الإحرام.

فإذا دخل في الصلاة ترتعد أعضاؤه، حتى يميله يمنة ويسرة»[2].

ثالثاً: سمته وهديه وخلقه: أما عن سمته وهديه وحسن خلقه فكان ضرباً من الخيال.

---

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم ص٦٣.

(٢) الأعلام العلية ص٣٨.

قال العلامة عماد الدين الواسطي: «ما رأينا في عصرنا هذا من تتجلى النبوة المحمدية وسننها في أقواله وأفعاله إلا هذا الرجل، يشهد القلب الصحيح أن هذا هو الاتباع حقيقة»[١].

وقال ابن القيم عن حسن خلقه، وعفوه وإحسانه إلى من أساء إليه: «وما رأيت أحداً أجمع لهذه الخصال من شيخ الإسلام - قدَّس الله روحه -.

وكان بعض أصحابه الأكابر يقول: وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه.

وما رأيته يدعو على أحد منهم قط، وكان يدعو لهم، وجئت يوماً مبشراً له بموت أكبر أعدائه، وأشدهم عداوة وأذى له - فنهرني، وتنكر لي، واسترجع، ثم قام من فوره إلى بيت أهله، فعزَّاهم، وقال: إني لكم مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجونه فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه، ونحو هذا الكلام، فسرُّوا به، ودعوا له، وعظموا هذه الحال منه، فرحمه الله ورضي عنه»[٢].

وقال البزار عن زهده: «ولقد اتفق كل من رآه خصوصاً من أطال ملازمته أنه ما رأى مثله في الزهد في الدنيا، حتى لقد صار ذلك مشهوراً؛ بحيث قد استقر في قلب القريب والبعيد من كل من سمع بصفاته على وجهها.

بل لو سُئل عامي من أهل بلد بعيد من الشيخ: من كان أزهد

(١) جلاء العينين للألوسي ص٨.

(٢) مدارج السالكين ٢/٣٢٨-٣٢٩.

أهل هذا العصر، وأكملهم في رفض فضول الدنيا، وأحرصهم على طلب الآخرة؟ لقال: ما سمعت بمثل ابن تيمية ـ رحمة الله عليه ـ»[١].

وقال عن تواضعه: «أما تواضعه فما رأيت ولا سمعت بأحد من أهل عصره مثله في ذلك؛ كان يتواضع للكبير، والصغير، والجليل، والحقير، والغني الصالح، والفقير.

وكان يدني الفقير الصالح، ويكرمه، ويؤنسه، ويباسطه بحديثه المُسْتَحْلَى زيادة على مثله من الأغنياء، حتى إنه ربما خدمه بنفسه، وأعانه بحمل حاجته؛ جبراً لقلبه، وتقرباً بذلك إلى ربه.

وكان لا يسأم ممن يستفتيه، أو يسأله، بل يقبل عليه ببشاشة وجه، ولين عريكة، ويقف معه حتى يكون هو الذي يفارقه كبيراً أو صغيراً، رجلاً أو امرأة، حُرّاً أو عبداً، عالماً أو عاميًّا، حاضراً أو بادياً.

ولا يجبهه، ولا يحرجه، ولا ينفره بكلام يوحشه، بل يجيبه، ويفهِّمه، ويعرِّفه الخطأ من الصواب بلطف وانبساط»[٢].

وقال عن كرمه: «كان ـ رضي الله عنه ـ مجبولاً على الكرم، لا يتطبَّعه ولا يتصنَّعه؛ بل هو له سجية، وقد ذكرت فيما تقدم أنه ما شد على دينار ولا درهم قط، بل كان مَهْمَا قدر على شيء من ذلك يجود به كله.

وكان لا يرد من يسأله شيئاً يقدر عليه من دراهم ولا دنانير، ولا

---

(١) الأعلام العلية ص٤٧-٤٨.

(٢) الأعلام العلية ص٥٢.

ثياب ولا كتب ولا غير ذلك، بل ربما كان يسأله بعض الفقراء شيئاً من النفقة، فإن كان حينئذ متعذراً لا يدعه يذهب بلا شيء، بل كان يعمد إلى شيء من لباسه فيدفعه إليه، وكان ذلك المشهور عند الناس من حاله»[١].

وقال: «وحدثني من أثق به: أن الشيخ ـ رضي الله عنه ـ كان لا يرد أحداً يسأله شيئاً كَتَبَهُ، بل يأمره أن يأخذ هو بنفسه ما يشاء منها.

وأُخْبِرْنا أنه جاءه يوماً إنسان يسأله كتاباً ينتفع به، فأمره أن يأخذ كتاباً يختاره، فرأى ذلك الرجل بين كتب الشيخ مصحفاً قد اشتري بدراهم كثيرة، فأخذه ومضى، فلام بعض الجماعة الشيخ في ذلك، فقال: أيحسن بي أن أمنعه بعدما سأله؟ دعه فلينتفع به.

وكان الشيخ ـ رضي الله عنه ـ ينكر إنكاراً شديداً على من يُسأل شيئاً من كتب العلم ويمنعها من السائل، ويقول: ما ينبغي أن يمنع العلم ممن يطلبه»[٢].

رابعاً: شجاعته: أما عن شجاعته، وقوة قلبه، ورباطة جأشه فحدث ولا حرج.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وعلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس، والتهديد، والإرهاق، وهو مع

---

(١) الأعلام العلية ص٦٥.

(٢) الأعلام العلية ص٦٨.

ذلك من أطيب الناس عيشاً، وأشرحهم صدراً، وأقواهم قلباً، وأسَرِّهم نفساً، تلوح نضرة النعيم على وجهه.

وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض ـ أتيناه، فما هو إلا أن نراه، ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحاً، وقوة، ويقيناً، وطمأنينة.

فسبحان من أشهد عباده جَنَّتَهُ قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من روحها، ونسيمها، وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها، والمسابقة إليها»[1].

وقال البزار ـ رحمه الله ـ: «كان ـ رضي الله عنه ـ من أشجع الناس، وأقواهم قلباً.

ما رأيت أحداً أثبت جأشاً منه، ولا أعظم عناءًا في جهاد العدو منه، كان يجاهد في سبيل الله بقلبه ولسانه ويده، ولا يخاف في الله لومة لائم.

وأخبَرَ غيرُ واحدٍ أن الشيخ ـ رضي الله عنه ـ كان إذا حضر مع عسكر المسلمين في جهاد يكون بينهم واقيتَهُم، وقطبَ ثباتهم، إن رأى من بعضهم هلعاً، أو رِقَّةً، أو جبانةً ـ شَجَّعَه، وثبته، وبشره، ووعده بالنصر والظفر والغنيمة، وبين له فضل الجهاد والمجاهدين، وإنزال الله عليهم السكينة.

---

(١) الوابل الصيب ص٧٠.

وكان إذا ركب الخيل يتَحَنَّك[١]، ويجول في العدو كأعظم الشجعان، ويقوم كأثبت الفرسان، ويكبر تكبيراً أنكى في العدو من كثير من الفتك بهم، ويخوض فيهم خوض رجل لا يخاف الموت.

وحدثوا أنهم رأوا منه في فتح عكة أموراً عظيمة يعجز الواصف عن وصفها.

قالوا: ولقد كان السبب في تملك المسلمين إياها بفعله، ومشورته، وحسن نظره»[٢].

هذه بعض ملامح النبوغ والألمعية من سيرة هذا البطل المجاهد، ومن أراد مزيداً من التفصيل فليرجع إلى الكتب التي فصلت الحديث عن سيرته[٣].

---

(١) التحنيك: هو وضع العمامة تحت الذقن، ولف طرفيها على الرأس.

(٢) الأعلام العلية ص٦٩-٧٠.

(٣) انظر على سبيل المثال الأعلام العلية للبزار، والشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية لمرعي الكرمي الحنبلي، وشيخ الإسلام جهاده، دعوته، عقيدته، للشيخ أحمد القطان، ومحمد الزين، ومجموعة أوراق من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية للشيخ محمد بن إبراهيم الشيباني، والفكر التربوي عند ابن تيمية د. ماجد العرساني، وابن تيمية باعث الفكر السلفي للشيخ محمد خليل هراس، وأحوال وأقوال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتب ابن القيم ليوسف صالح، ونظريات ابن تيمية في السياسة والاجتماع للمستشرق الفرنسي هنري لاووست، والجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون، جمعه ووضع فهارسه الشيخ محمد عزير شمس، والشيخ علي بن محمد العمران، إشراف وتقديم الشيخ العلامة بكر أبو زيد.

المبحث الثاني: دراسة مجملة للوصية

أولاً: أهمية هذه الوصية:

لهذه الوصية العظيمة أهمية عظمى، ولعل مما يبرز أهميتها ما يلي:

١- أن الحاجة تمس إليها في كل زمان ومكان.

٢- أنها وصية جامعة مانعة مختصرة على خلاف كثير من رسائل شيخ الإسلام؛ حيث تكون مطولة، متفرعة.

٣- أنها واضحة ميسرة تكاد تكون أوضح ما كتبه شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ.

٤- أنها ـ على صغرها ـ تضمنت وصايا عظيمة، ومسائل لا غنى للمسلم عنها في سيره إلى الله.

٥- أنها صدرت من عالم رباني له اليد الطولى في شتى العلوم، وله القِدْحُ المُعَلَّى في الزهد، والتأله، والانقطاع إلى الله ـ عز وجل ـ.

٦- أنها تبين عظيم منزلة شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ ويتضح ذلك من خلال مايلي:

أ - أنه أنشأ هذه الوصية في سن مبكرة؛ إذ كان عمره أنذاك ستاً وثلاثين سنة، ذلك أنه ولد سنة ٦٦١هـ، وأنشأها سنة ٦٩٧ ـ كما سيأتي بيان ذلك ـ.

ب- ومع هذه السن المبكرة كانت الأسئلة والإشكالات ترد إليه من شتى الأماكن، وفي شتى الفنون.

ج- أن هذا السؤال صُدِّر بعبارات تدل على مكانته العلمية، حيث جاء فيه:

قول السائل: «يتفضل سيدنا الشيخ، الفقيه، الإمام، الفاضل، العالم، بقية السلف، قدوة الخلف، المُبدِع، المُغرب، المُعرِب، المفصح، أعلم من لقيت ببلاد المشرق والمغرب...»[١].

ثانياً: اسم الوصية، والسائل:

هذه الرسالة تسمى: «**الوصية الصغرى**».

حيث جاءت هذه التسمية في مجموعة الرسائل الكبرى بهذا النص.

وجاء في مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام جمع وترتيب الشيخ عبدالرحمن بن قاسم، وابنه الشيخ محمد ـ رحمهما الله ـ بعنوان:

«سؤال أبي القاسم المغربي»

وذلك في ١٠/ ٦٥٣ وجاء في هامش تلك الصفحة:

«تسمى الوصية الصغرى»

أما السائل فقد ورد اسمه في مجموعة الرسائل الكبرى بهذا النص:

«سؤال أبي القاسم القاسم[٢] بن يوسف بن محمد التجيبي السبتي»

(١) هذا من نص السؤال من مجموعة الرسائل الكبرى ١/ ٢٣١، الطبعة الأولى ١٣٢٣هـ.

(٢) لا أدري أهذا هو اسمه أم أن القاسم مكررة؟.

وجاءت هذه الوصية في مجموع الفتاوى ـ كما مر ـ بعنوان:

«سؤال أبي القاسم المغربي»

ولعله يقال له: المغربي نسبة إلى بلده المغرب العربي، ويقال: السبتي نسبة إلى مدينة سبته، وهي من بلاد المغرب.

هذا وقد جاء في كتاب «ثمرات الأوراق» لابن حجة الحموي ص٣٣٨ ذكر لأبي القاسم المغربي، حيث قال ابن حجة: «أبو القاسم المغربي: علي بن الحسن المعروف بالمغربي».

ثم ذكر له ابن حجة بعض القطع الأدبية التي أنشأها.

فلا أدري أهو صاحب السؤال، أم هو شخص آخر؟.

ثالثاً: النسخ المعتمدة في شرح هذه الوصية:

هذه الوصية جاءت في مجموعة الرسائل الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية ١/ ٢٣١-٢٤٠، الطبعة الأولى سنة ١٣٢٣هـ بالمطبعة العامرة الشرفية بمصر، على نفقة شركة طبع الكتب العلمية بمصر، تحت عنوان: **«الوصية الصغرى»**.

وجاءت في مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ١٠/ ٦٥٣-٦٦٥ جمع وترتيب عبدالرحمن بن قاسم وابنه محمد، تحت عنوان:

«سؤال أبي القاسم المغربي»

وفي هامش تلك الصفحة التي ذكر فيها ذلك العنوان كُتِب:

(١) تسمى الوصية الصغرى.

ولعل سبب تسميتها بهذا الاسم أنها وصية جامعة مانعة مختصرة.

وليس بين هاتين النسختين فروق كبيرة، وإنما هما متقاربتان، والفروق قليلة، ولا تخل بأصل الوصية، وقد أشير إلى الاختلاف بينهما في مواضعه.

رابعاً: تاريخ إنشاء هذه الوصية:

أنشأ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ هذه الوصية سنة ٦٩٧؛ حيث وجد في نسخة مجموعة الرسائل الكبرى تاريخ سماع هذه الوصية على مؤلفها؛ فقد جاء في آخر تلك النسخة ١/ ٢٤٠ ما نصه:

«وجد بأصله ما نصه»

سَمِع هذه الوصية على مصنفِّها شيخنا، إمام الأئمة الأعلام، شيخ الإسلام، سيد الحفاظ والمحدثين، قدوة المسلمين، مفتي الفرق، علم الهدى، تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام ابن تيمية الحراني ـ رضي الله عنه ـ أخوه الإمامُ العالمُ شرفُ الدين، أبو محمد عبدالله، والشيخُ الإمام العالم الزاهد شمس الدين محمد ابن أبي العباس الدباهي، وعز الدين عبدالعزيز بن عبداللطيف بن عبدالعزيز ابن عبدالسلام بن تيمية، ونور الدين محمد بن شرف الدين محمد بن علاء الدين محمد بن عبدالقادر بن عبدالخالق الأنصاري ابن الصائغ، والشيخ أبو بكر بن قاسم بن أبي بكر الرحبي الكناني، وزين الدين عبادة بن عبدالغني بن منصور بن منصور بن إبراهيم بن سلامة الحرّاني، وجربر[1] بن سعيد بن حميد الغساني، وعبدالمجيد بن محمود بن أحمد

(١) هكذا في الأصل، ولعلها: جرير.

الجيلي، وناصر الدين محمد بن أحمد بن عبدالغني بن العلائي الحرّاني.

وذلك بقراءة القاسم بن محمد بن يوسف البرزالي في ليلة ثالث، شهر ربيع الآخر سنة سبع وتسعين وستمائة بدار الحديث بالقصاعين بدمشق، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم. انتهى.

خامساً: مجمل ما اشتملت عليه الوصية الصغرى:

هذه الوصية ـ على صغر حجمها ـ اشتملت على وصايا جامعة لخيري الدنيا والآخرة؛ وإليك مجمل ما اشتملت عليه من الوصايا، والفوائد:

١- الوصية بتقوى الله ـ عز وجل ـ .

٢- الحث على عَقْلِ تلك الوصية.

٣- فضل معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ.

٤- بيان أن على العبد حقين: حق الله، وحق الناس.

٥- شرح حديث «اتق الله حيثما كنت».

٦- تطرُّق لبعض موانع إنفاذ الوعيد:

أ - التوبة   ب- الاستغفار   ج- الأعمال الصالحة المكفرة إما المقدرة، وإما المطلقة   د- المصائب المكفرة.

٧- بيان شدة الحاجة إلى التقوى خصوصاً في الفترات التي تشبه الجاهلية.

٨- معرفة الشر؛ لتجنبه.

٩- أنفع ما للخاصة والعامة.

١٠- معنى الحسنات.

١١- الشروع في بيان حق الناس.

١٢- جماع الخلق الحسن.

١٣- معنى الخلق العظيم.

١٤- التقوى هي الدين كله.

١٥- أن ينبوع الخير وأصله: إخلاص العبادة لله، والاستعانة به.

١٦- الحث على قطع التعلق بالمخلوقين، وبيان فضل ذلك.

١٧- التعرض لأفضل الأعمال بعد الفرائض، وأنه يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص.

١٨- فضل الذكر.

١٩- عموم مفهوم الذكر.

٢٠- ما يفعله العبد عند اشتباه الأمور عليه من الاستخارة، والدعاء، وفضل ذلك، وأسباب إجابة الدعاء.

٢١- بيان فضل التوكل على الله، وحسن الظن به، والثقة بكفايته، وأن ذلك أرجح المكاسب.

٢٢- الحث على التعفف، وعزة النفس، وأخذ المال بسخاوة نفس لا بإشراف، ولا هلع.

٢٣- الحث على جعل الآخرة هي الهم.

٢٤- بيان أن تعيين مكسب على مكسب يختلف باختلاف الناس.

٢٥- دلالة على المعتمد من الكتب في العلوم، وأنه يختلف باختلاف

البلدان مع تعرض يسير لمنهجية طلب العلم.

٢٦- الحث على التمسك بالآثار.

٢٧- حديث عن صحيح البخاري.

٢٨- الحث على اللجوء إلى الله، والإكثار من دعائه عند اشتباه الأمور.

٢٩- بيان عظم الحاجة لهداية الله، وأن العلم وحده لا يكفي ما لم يقترن بهدى من الله.

هذا عرض مجمل لما احتوته تلك الوصية النافعة القيمة التي هي ـ بحق ـ جامعة لخيري الدنيا والآخرة، والتي تصلح أن تكون منهج حياة يسير عليه المسلم.

سادساً: طريقة الشرح:

الطريقة التي سيسير عليها شرح هذه الوصية سيكون على النحو التالي:

١- يكتب من متن الوصية سطر، أو سطرين أو أكثر أو أقل في أعلى الصفحة، ثم يشرع في ترقيم ما يراد شرحه من الألفاظ في الهامش أسفل الصفحات، وبعد ذلك تشرح الفقرة ويبيَّن المراد منها.

٢- قد يعمد إلى شرح مجمل للفقرة، دون تعرُّض للألفاظ خصوصاً إذا كانت الألفاظ واضحة.

٣- تخرج الأحاديث الواردة في المتن.

٤- يرجع في الشرح إلى التفاسير، وشروح الحديث، والمعاجم، وغيرها.

٥- يرجع في الشرح كثيـراً إلى كتب شيخ الإسلام الأخرى؛ فكلامه أولى ما يفسر كلامَه، خصوصاً وأن آثاره كثيرة، وكثيراً ما يجمل الكلام في موضع ثم يفصله في موضع آخر، وكثيراً ما تقرأ في كتبه قوله: «وقد بسطنا الكلام في غير هذا الموضع».

٦- قد يزاد أحياناً بعض المباحث التي يتم بها المقصود.

٧- قد يربط بعض ما يرد في الوصية ببعض الأمور المستجدة في حياة الناس.

٨- العزو قد يكون في الشرح أي داخل ضمن الشرح، وقد يكون في أسفل الصفحة، وذلك حسب سياق الكلام.

هذه ـ تقريباً ـ صورة مجملة للطريقة التي سيسير عليها شرح هذه الوصية.

الوصية الصغرى

لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية

شرح وتحقيق

محمد بن إبراهيم الحمد

الوصية الصغرى(١)

«سؤال أبي القاسم القاسم بن يوسف بن محمد التُّجِيبي السبتي»(٢).

١ - الوصية: مصدر الفعل وصَّى، وأوصى، وهي ما تضمَّن أمراً، أو نهياً، أو وعظاً جامعاً، نافعاً، موجزاً.

ويقال لها ـ أيضاً ـ: الوصاة، والوصاية، والإيصاء.

قال ابن منظور ـ رحمه الله ـ في لسان العرب ١٥/ ٣٩٤: «أوصى الرجل، ووصَّاه: عهد إليه».

وقال: «والوصاة، والوَصاة، والوِصاية، والوصية ـ أيضاً ـ: ما أوصيتَ به».

وقال الراغب الأصفهاني ـ رحمه الله ـ في معجم مفردات القرآن في مادة وصى ص٥٦٢: «الوصية: التقدم إلى الغير بما يَعْمل به مقترناً بوعظ».

وقال الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ـ رحمه الله ـ في تفسيره: التحرير والتنوير ١/ ٧٢٧:

«والإيصاء أمر ونهي يتعلق بصلاح المخاطَب خصوصاً، أو عموماً، وفي فوته ضُرٌّ؛ فالوصية أبلغ من مطلق أمر ونهي؛ فلا تطلق إلا في حيث يخاف الفوات إما بالنسبة للموصي؛ ولذلك كثر الإيصاء عند توقع الموت كما سيأتي عند قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ [البقرة: ١٣٣].

=

. . . .

= وفي حديث العرباض «**وعظنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ موعظةً وجِلتْ منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله! كأنها موعظة مودِّعٍ؛ فأوصنا**» الحديث.

وإما بالنسبة إلى الموصَى كالوصية عند السفر في حديث معاذ حين بعثه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لليمن «كان آخر ما أوصاني رسول الله حين وضعت رجلي في الغَرْز أن قال: **حسِّنْ خُلُقَك للناس**».

وجاء رجل إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له: أوصني، قال: «**لا تغضب**» ا ـ هـ.

٢- نص هذا السؤال من مجموعة الرسائل الكبرى، وقد جاء في مجموع الفتاوى بنصه ولكن بحذف بعض الكلمات.

يتفضل سيدُنا الشيخُ الفقيهُ، الإمامُ، الفاضلُ، العالمُ، بقيةُ السلفِ، قدوةُ الخلفِ، المبدعُ، المُغْرِبُ، المُعْرِبُ، المُفْصِحُ، أعلمُ مَنْ لقيتُ ببلاد المشرق والمغرب، تقيُّ الدين، أبو العباسِ، أحمدُ بن تيميةَ، أبقى الله علينا بركته: بأن يوصيني بما يكون فيه صلاح ديني ودنياي، ويرشدني إلى كتاب يكون عليه اعتمادي في علم الحديث، وكذلك في غيره من العلوم الشرعية، وينبهني على أفضل الأعمال الصالحة بعد الواجبات، ويبين لي أرجح المكاسب.

كل ذلك على قصد الإيماء، والاختصار، والله ـ تعالى ـ يحفظه، والسلام الكريم عليه، ورحمة الله، وبركاته[1].

---

١ - تأمل حسن عرض السؤال، ودقته، وطلبَ السائلِ هذه الوصية العظيمة من ذلك الإمام القدوة؛ ففي ذلك دلالة على صدق السائل؛ فلا غرو ـ إذاً ـ أن يُكتب له القبول، ويبارك له في هذا السؤال الذي نفع الله به سائله، والمجيب عنه، ومن شاء الله أن ينتفع به من عباده.

وهذا يرشد إلى سؤال أهل العلم، وإصلاح النية في ذلك، وحسن عرض السؤال؛ عسى الله أن ينفع بالسؤال وإجابته، ويطرح لهما القبول.

وهذا السؤال من نسخة مجموعة الرسائل، وفيه زيادة على نسخة مجموع الفتاوى.

قال شيخ[(١)] الإسلام بحر العلوم ابن تيمية ـ رحمه الله، ورضي عنه ـ: الحمد[(٢)] لله رب[(٣)] العالمين[(٤)].

١- في نسخة مجموع الفتاوى: (**فأجاب: الحمد لله رب العالمين**).

٢- قوله: «**الحمد لله**»: الحمد نقيض الذم، والحمد هو الثناء، ويكون عن يد وعن غير يد بخلاف الشكر؛ فإنه لا يكون إلا عن يد؛ فالحمد أعم؛ لأنك تحمد الإنسان على صفاته الذاتية، وعلى عطائه وهو من أفعاله الاختيارية؛ فالشكر لا يكون ـ إذاً ـ إلا ليد أوليتها، والحمد يكون شكراً للصنيعة، ويكون ابتداءً للثناء.

وحَمْدُ الله: الثناء عليه بذاته، وبأفعاله الاختيارية.

والتحميد: حَمْدُكَ الله ـ عز وجل ـ مرة بعد مرة، وهو ـ أيضاً ـ إثبات المحامد كلها لله، فدخل في ذلك إثبات صفات الكمال، ونعوت الجلال كلها[(١)].

وقوله: «لله»: اللام هنا للاستحقاق، وضابطها: أن تقع بين اسم ذات كلفظ الجلالة، واسم معنى كالحمد.

وبهذا يكون معنى «**الحمد لله**»: أن الله ـ عز وجل ـ هو المستحق للمحامد كلها. =

---

(١) انظر معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص١٣٠، ولسان العرب لابن منظور ٣/ ١٥٥-١٥٧ وجامع العلوم والحكم لابن رجب ٢/ ١٧-١٨.

. . . .

= ٣- قوله: «رب»: كلمة «الرب» تطلق في اللغة على عدة معانٍ.

قال ابن منظور في لسان العرب ١/ ٣٩٩-٤٠٠: «الرب يطلق في اللغة على المالك، والسيد، والمدبِّر، والمربي، والقيِّم، والمنعم».

وقال: «ولا يطلق غير مضاف إلا على الله ـ عز وجل ـ.

وإذا أطلق على غيره أضيف، فقيل: ربُّ كذا.

قال: وقد جاء في الشعر مطلقاً على غير الله ـ تعالى ـ وليس بالكثير، ولم يذكر في غير الشعر».

وقال: «وربُّ كل شيء: مالكه، ومستحقه، وقيل: صاحبه.

ويقال: فلان رب هذا الشيء: أي مِلْكُه له.

وكل من ملك شيئاً فهو ربه، ويقال: ربُّ الدابة، ورب الدار، وفلان رب البيت، وهن ربات الحجال» ا.هـ

أما الرب من حيث إنه اسم من أسماء الله ـ تعالى ـ فمعناه: من له الخلق، والأمر، والملك.

قال ـ تعالى ـ: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ [فاطر: ١٣].

قال ابن منظور ـ رحمه الله ـ في اللسان ١/ ٣٩٩: «الرب: هو الله ـ عز وجل ـ هو رب كل شيء أي مالكه، وله الربوبية على جميع الخلق لا شريك له، وهو رب الأرباب، ومالك الملوك والأملاك».
=

. . . .

= **«أنواع ربوبية الله على خلقه»:**

ربوبية الله على خلقه على نوعين:

النوع الأول ـ الربوبية العامة: وهي لجميع الناس برِّهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم.

وهي خلقه للمخلوقين، ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم التي فيها بقاؤهم في الدنيا.

النوع الثاني ـ الربوبية الخاصة: وهي تربيته لأوليائه المؤمنين، فيربيهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكملهم، ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه. ولعل هذا المعنى هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ (الرب) فإن مطالبهم كلَّها داخلةٌ تحت ربوبيته الخاصة[1].

٤- قوله: «العالمين»: العالمون: جمع عالَم، والعالمون: أصناف الخلق، والعالَم: الخلق كله.

ولا واحد لـ: (عالَم) من لفظه، لأن عالَماً: جمع أشياء مختلفة[2].

وعلى هذا يكون معنى «**رب العالمين**»: رب جميع المخلوقات.

---

(١) انظر تيسير الكريم الرحمن لابن سعدي ١/ ٢٨٨

(٢) انظر لسان العرب ١٢/ ٤٢٠-٤٢١

أما[١] الوصية فما أعلم وصية أنفع من وصية الله، ورسوله لمن عقلها[٢]، واتبعها[٣].

١- **أما**: حرف شرط، وتوكيد دائماً، وتفصيل غالباً.

ولابد من ذكر الفاء في جوابها، وقد تحذف الفاء جوازاً إذا كانت داخلة على قول محذوف، فتحذف معه، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

أي: فيقال لهم؛ حيث حذف الجواب، وحذفت معه الفاء.

أما غير ذلك فلا تحذف إلا في ضرورة كما في قول الشاعر:

فأما القتال لا قتال لديكم ... ولكنَّ سيراً في عراض المواكب

التقدير: فلا قتال[١].

٢- **عقلها**: أي وعاها بقلبه، ونظر في عواقبها، وحبس نفسه عما يخالفها؛ لأن العاقل هو الجامع لأمره الذي يحبس نفسه، ويردها عن هواها.

وإنما سمي العقل عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك[٢].

٣- **اتبعها**: أي قفاها، وتطلَّبها، وسار على إثرها، وعمل بمقتضاها[٣].

---

(١) انظر شرح الرضي على الكافية ١/ ٢٦٧-٢٦٩، وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام شرح محمد محيي الدين عبدالحميد ٤/ ٢٣٢-٢٣٤.

(٢) انظر لسان العرب ١١/ ٤٥٨-٤٥٩.

(٣) انظر لسان العرب ٨/ ٢٧.

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الذينَ أُوتُوا الكِتَابَ من قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَن اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١][1].

---

١ - هذه أعظم وصية، وهي تقوى الله ـ عز وجل ـ من أعظم موصٍ، وهو الله اللطيف الخبير ـ تبارك وتعالى ـ.

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية في تفسيره التحرير والتنوير ٣/ ٢٢٠: «وجَعْلُ الأمرِ بالتقوى وصيةً: لأن الوصيةَ قولٌ فيه أمر بشيء نافع جامع لخير كثير؛ فلذلك كان الشأن في الوصيةِ إيجازَ القول؛ لأنها يقصد منها وعيٌ السامع، واستحضار كلمة الوصية في سائر أحواله.

والتقوى تجمع الخيرات؛ لأنها امتثال الأوامر، واجتناب المناهي.

ولذلك قالوا: ما تكرر لفظ في القرآن ما تكرر لفظ التقوى.

يَعْنُون غير الأعلام كاسم الجلالة».

إلى أن قال ـ رحمه الله ـ: «فذِكرُ التقوى في قوله ﴿أن اتَّقُوا اللَّهَ﴾ إلخ. تفسير لجملة «ووصينا» فـ: «أنْ» فيه تفسيرية.

والإخبار بأن الله أوصى الذين أتوا الكتاب من قبل بالتقوى مقصود منه إلهاب همم المسلمين للتهمُّم بتقوى الله؛ لئلا تَفْضُلهم الأمم الذين من قبلهم من أهل الكتاب؛ فإن للائتساء أثـراً بالغاً في النفوس كما قال ـ تعالى ـ: ﴿يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الذينَ من قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣] ا-هـ.

وبما أن الوصية بالتقوى أعظم ما ورد في هذه الوصية، ونظـراً =

. . . .

=لعظم شأن التقوى، ولكثرة ورودها في هذه الوصية، بل لكون هذه الوصية تدور حول التقوى ـ هذا بسط لمفهوم التقوى، وفضائلها؛ حتى لا يطول الحديث عندها أثناء شرح الوصية.

أولاً: مفهوم التقوى:

١ - **تعريف التقوى في اللغة:** أصل التقوى مادة: وقي.

قال ابن فارس ـ رحمه الله ـ: «الواو والقاف والياء: كلمة واحدة تدل على دفع شيء عن شيء بغيره.

ووقيتُه أَقِيْه وقياً، والوقاية: ما يقي الشيء، واتق الله: توَّقه، أي اجعل بينك وبينه كالوقاية»(١).

وقال الراغب الأصفهاني ـ رحمه الله ـ: في مادة (وقى):

«الوقاية: حفظ الشيء مما يؤذيه، ويضره، يقال: وقيت الشيء أقيه، وقايةً، ووقاءً»(٢).

وقال: «والتقوى: جعل النفس في وقاية مما يُخاف، هذا تحقيقه، ثم يسمى الخوف تارة تقوى، والتقوى خوفاً حسْب تسمية مقتضى الشيء بمقتضِيه، والمقْتَضِي بمقتضاه»(٣).

وقال ابن منظور ـ رحمه الله ـ: «وتوقَّى، واتقى بمعنى، وقد توقَّيتُ، =

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٦/ ١٣١.

(٢)(٣) معجم مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص٥٦٨.

. . . .

= واتقيتُ الشيء، وتَقيتُه أتَّقيه، وأتْقيه تُقىً، وتقيَّة، وتُقاءً: حذرته»[١].

٢- إطلاقات التقوى في القرآن الكريم[٢]:

تطلق التقوى في القرآن الكريم عدة إطلاقات، تختلف باختلاف سياق الكلام، وفيما يلي ذكر لأهم تلك الإطلاقات:

أ - الخشية: قال الله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم﴾ أي: اخشوا.

ب- العبادة: قال الله - تعالى -: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُون﴾ أي: اعبدون.

ج- ترك العصيان: قال الله - تعالى -: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: لا تعصوه.

د - التوحيد: قال الله - تعالى -: ﴿أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أي: وحدوه.

هـ- الإخلاص: قال الله - تعالى -: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوب﴾ أي: من إخلاصها لله.

٣- تعريف التقوى في الشرع:

عرفت التقوى في الشرع بتعريفات عديدة متقاربة هي من باب اختلاف التنوع، ومن باب تفسير الشيء بأحد أفراده. =

(١) لسان العرب ١٥/ ٤٠٢.

(٢) انظر الوجوه والنظائر في القرآن الكريم د. سليمان القرعاوي ص٦٥٨-٦٥٩.

. . . .

= والتعريف الشرعي قريب من التعريف اللغوي، وإليك بعض ما عرفت به التقوى.

أ - قال طلق بن حبيب ـ رحمه الله ـ: «التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله»(١).

ب- وعرفها الراغب الأصفهاني بقوله: «التقوى في تعارف الشرع: حفظ النفس عما يُؤْثِم، وذلك بترك المحظور، ويتم ذلك بترك بعض المباحات»(٢).

ج- وقال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: «التقوى: اعتماد المتقي ما يحصل به الحيلولة بينه وبين ما يكرهه»(٣).

د- وقال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «اسم تقوى الله يجمع فعل كل ما أمر الله به إيجاباً، واستحباباً، ونهى عنه تحريماً، وتنزيهاً، وهذا يجمع حقوق الله، وحقوق العباد»(٤).

هـ- وقال ابن رجب ـ رحمه الله ـ: «أصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه؛ فتقوى العبد لربه أن يجعل=

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب ١/ ٤٠٠.

(٢) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم ص٥٦٨.

(٣) نزهة الأعين النواظر لابن الجوزي ١/ ١٢٠.

(٤) مجموع الفتاوى ١٠/ ٦٥٨-٦٥٩.

. . . .

= بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه، وسخطه، وعقابه وقايةً تَقِيْـهِ من ذلك، وهو فعل طاعته واجتناب معصيته»[١].

٤- مسألتان في التقوى:

المسألة الأولى ـ التقوى الكاملة: وهي ما اشتملت على فعل الواجبات، وترك المحرمات والشبهات، وربما دخل فيها بعد ذلك فعل المندوبات، وترك المكروهات، وبعض المباحات؛ فهذا أعلى درجات التقوى[٢].

قال الحسن: «ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام»[٣].

وقال ميمون بن مهران: «المتقي أشد محاسبة لنفسه من الشريك الشحيح لشريكه»[٤].

المسألة الثانية: أن التقوى لابد أن تكون بعلم:

قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ: «وأصل التقوى أن يعلم العبد ما يُتَّقى، ثم يتَّقي.

قال عون بن عبدالله: تمام التقوى أن تبتغي علم ما لم يعلم منها إلى ما علم منها. =

(١) جامع العلوم والحكم ١/ ٣٩٨.

(٢) انظر جامع العلوم والحكم ١/ ٣٩٩.

(٣)(٤) جامع العلوم والحكم ١/ ٤٠١.

. . . .

= وذكر معروف الكرخي عن بكر بن خنيس قال: كيف يكون متَّقياً من لا يدري ما يتقي؟

ثم قال معروف: إذا كنتَ لا تحسن تتقي أكلتَ الربا، وإذا كنت لا تحسن تتقي لقيتك امرأة فلم تغضَّ بصرك، وإذا كنت لا تحسن تتقي وضعت سيفك على عاتقك»[1].

ثانياً: ثمرات التقوى[2]:

التقوى وصية الله لخلقه، ووصية رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأمته، وثمرات التقوى لا تكاد تحصر؛ إذ هي منبع كل خير ديني ودنيوي، وإليك ذكراً لبعض تلك الثمرات:

١- الحفظ من الأعداء، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

٢- التأييد والنصر والمعية الخاصة قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

٣- حصول المخرج للمتقي، ورزقه من حيث لا يحتسب، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ② وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

=

(١) جامع العلوم والحكم ١/ ٤٠٢.

(٢) انظر التحفة العراقية لشيخ الإسلام تحقيق د. يحيى الهندي ص١٩٩/ ٢٠٣.

. . . .

= ٤- حصول التيسير، قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٤].

٥- قبول العمل، قال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧].

٦- أن أكرم الناس عند الله أتقاهم، قال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

٧- النجاة من النار، قال ـ عز وجل ـ: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم: ٧١, ٧٢].

٨- دخول الجنة، قال ـ عز وجل ـ: ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

٩- محبة الله للمتقي، قال ـ عز وجل ـ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٤].

١٠-١١-١٢- انتفاءُ الخوف والحزن، ونيل البشارة في الدنيا والآخرة، والفوزُ العظيم، قال ـ تعالى ـ: ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

١٣- أن الله يجعل للمتقي فرقاناً يفرّق به بين الحق والباطل، قال ـ تعالى ـ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال: ٢٩]. =

. . . .

= ١٤-١٥- تكفير السيئات، وتعظيم الأجـر، قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].

١٦- التقوى طريق العلم، قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

١٧- التقوى سبيل الفلاح، قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩].

١٨- التقوى خير الزاد، قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

١٩- التقوى خير لباس، قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦].

٢٠- أن العاقبة للتقوى وللمتقين، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]؛ وقال: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

٢١- نيل ولايـة الله، قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

٢٢- نيل البركات، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]. =

. . . .

= **ثالثاً: وصايا السلف الصالح بالتقوى**[١]

لم يزل السلف الصالح يتواصون بالتقوى، ولو رام أحد حصر تلك الوصايا لربما أعياه ذلك، وإليك طرفاً من تلك الوصايا.

١- كان أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ يقول في خطبته ـ: «أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله، وأن تثنوا عليه بما هو أهله».

٢- ولما حضرته الوفاة وعهد إلى عمر دعاه، فوصَّاه بوصية، وأول ما قاله له: «اتق الله يا عمرُ».

٣- وكتب عمر بن الخطاب إلى ابنه عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ: «أما بعد فإني أوصيك بتقوى الله ـ عز وجل ـ فإن من اتقاه وقاه، ومن أقرضه أجزاه، ومن شكره زاده؛ فاجعل التقوى نصب عينيك، وجلاء قلبك».

٤- واستعمل علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ رجلاً على سرية، فقال: «أوصيك بتقوى الله الذي لابد لك من لقائه، ولا منتهى لك دونه، وهو يملك الدنيا والآخرة».

٥- وكتب عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ إلى رجل: «أوصيك بتقوى الله ـ عز وجل ـ التي لا يقبل غيرها، ولا يرحم إلا أهلها، ولا يثيب إلا عليها؛ فإن الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل، جعلنا الله وإياك من المتقين». =

(١) انظر جامع العلوم والحكم ١/ ٤٠٥-٤٠٧.

. . . .

= ٦- ولما ولي خطب، فحمد الله، وأثنى عليه، وقال: «أوصيكم بتقوى الله - عز وجل - فإن تقوى الله - عز وجل - خَلَفٌ من كل شيء، وليس من تقوى الله خلفٌ».

٧- وقال رجل ليونس بن عبيد: أوصني، فقال: «أوصيك بتقوى الله والإحسان؛ فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون».

٨- وقال له رجل يريد الحج: أوصني، فقال له: «اتق الله؛ فمن اتقى الله فلا وحشة عليه».

٩- وقيل لرجل من التابعين عند موته: أوصنا، فقال: «أوصيكم بخاتمة سورة النحل: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

١٠- وكتب رجل من السلف إلى أخ له: «أوصيك بتقوى الله؛ فإنها أكرم ما أسررت، وأزين ما أظهرت، وأفضل ما ادَّخرت، أعاننا الله وإياك عليها، وأوجب لنا ولك ثوابها».

١١- وكتب رجل من السلف إلى أخ له: «أوصيك وأنفسنا بالتقوى؛ فإنها خير زاد الآخرة والأولى، واجعلها إلى كل خيرٍ سبيلك، ومن كل شرٍّ مهربَك، فقد توكل الله - عز وجل - لأهلها بالنجاة مما يحذرون، والرزق من حيث لا يحتسبون».

=

. . . .

= ١٢- وقال شعبة: كنت إذا أردت الخروج قلتُ للحكم: ألك حاجة؟ فقال: أوصيك بما أوصى به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ معاذَ ابن جبل: «**اتق الله حيثما كنت، وأتبع السئية الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**».

ووصى النبي[١] - صلى الله عليه وسلم -[٢].

١- قوله: «النبي»: كلمة (النبي) في اللغة لها ثلاثة اشتقاقات:

أحدها: أن تكون مأخوذة من النباوة، أو النبوة، وكلاهما يدل على الارتفاع، والعلو.

ثانيها: أن تكون مأخوذة من النبي: وهو بمعنى الطريق، فيكون معنى النبي: الطريق إلى الله - عز وجل -.

ثالثها: أن تكون مأخوذة من النبأ، وهو الخبر الذي له خطب وشأن.

ولهذا يقال: النبيّ، ويقال: النبيء، وهما قراءتان سبعيتان[١].

أما معنى النبي في الشرع: فهو أنه إنسان أوحي إليه بشرع وإن لم يؤمر بتبليغه، فإن أمر بتبليغه فهو رسول - أيضاً - على المشهور؛ فبين النبي والرسول عموم وخصوص مطلق؛ فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً[٢].

٢- قوله: «صلى الله عليه وسلم»: هذه إحدى صيغ الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - وهي الأكمل؛ لأنها جمع بين الصلاة والسلام، قال - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]. =

---

(١) انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٥/ ٥٨٤-٤٨٥، ولسان العرب لابن منظور ١/ ١٦٢-١٦٤، وعقيدة ختم النبوة د. أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي ص١٤-١٥.

(٢) لوامع الأنوار البهية للسفاريني ١/ ٤٩ وانظر شرح العقيدة الطحاوية ١٥٨.

. . . .

= ومعنى صلاة الله عليه: هي ثناؤه عليه وتعظيمه عند الملائكة.

وصلاتنا عليه: طلب ذلك من الله، أي طلب الزيادة، لا طلب أصل الصلاة.

هذا هو تفسير التابعي الجليل أبي العالية ـ رحمه الله ـ وهو ما رجحه الحافظ بن حجر ـ رحمه الله ـ في فتح الباري ١١/ ١٦٠.

ومعنى قوله: «وسلم»: أي اكتب لمحمد في دعوته، وأمته، وذكره السلامة من كل نقص؛ فتزداد دعوته على مر الأيام علواً، وأمته تكاثراً، وذكره ارتفاعاً.

هذا ما قاله الفيروزبادي ـ رحمه الله ـ في كتابه «الصلات والبِشر في الصلاة على خير البشر»[1].

---

(١) انظر كتاب: الصلاة على النبي للشيخ عبدالمحسن العباد ص١٤-١٥.

معاذاً[١] لما بعثه إلى اليمن[٢]، فقال:
«يا معاذ: اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالقِ الناس بخلق حسن»[٣].

١- هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي أبو عبدالرحمن، صحابي مشهور من أعيان الصحابة، شهد بـدراً، وما بعدها، وكان إليه المنتهى في العلم، والأحكام، والقرآن ـ رضي الله عنه ـ مات سنة ثماني عشرة في الشام في طاعون عَمَواس، وسيأتي مزيد حديث عنه.

٢- قال الحافظ بن حجر ـ رحمه الله ـ في فتح الباري ٣/ ٤١٩: «وكان بَعْثُ معاذٍ إلى اليمن سنة عشر قبل حج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما ذكره المصنف ـ يعني البخاري ـ في أواخر المغازي.

وقيل: كان ذلك في أواخر سنة تسع عند مُنْصَرِفه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من تبوك.

رواه الواقدي بإسناده إلى كعب بن مالك، وأخرجه ابن سعد في الطبقات عنه، ثم حكى ابن سعد أنه كان في ربيع الآخر سنة عشر.

وقيل: بعثه عام الفتح سنة ثمان، واتفقوا على أنه لم يزل على اليمن إلى أن قَدِم في عهد أبي بكر، ثم توجه إلى الشام؛ فمات بها» اـ هـ.

٣- هذا الحديث رواه أحمد ٥/ ١٥٣، و١٥٨، و١٧٧، و٢٣٦، والترمذي (١٩٨٧) وحسنه، والدارمي ٢/ ٣٢٣، والحاكم ١/ ٥٤، =

. . . .

= وقال: صحيح على شرط الشيخين، والطبراني في الكبير ٢٠ (٢٩٥) و(٢٩٦) و(٢٩٧) و(٢٩٨) وفي الصغير (٥٣)، وأبو نعيم في الحلية ٤/ ٣٣٦، والقضاعي في مسند الشهاب (٦٥٢)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٩٧).

وكان معاذ ـ رضي الله عنه ـ من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمنزلة عَلِيَّةٍ؛ فإنه قال له: «يا معاذُ! والله إني لأحبُّك»[١].

وكان يردفه وراءه[٢].

وروي فيه: «أنه أعلمُ الأمةِ بالحلال[٣] والحرام» «وأنه يحشر أمام العلماء برتوة ـ أي بخطوة ـ»[٤][٥].

١- هذا الحديث رواه أحمد ٥/ ٢٤٤, و٢٤٥, و٢٧٤ وأبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠١) والحاكم ١/ ٢٧٣، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه ابن خزيمة (٧٥١) وصححه الألباني في شرح الطحاوية (٣٣٥)، وصحيح أبي داود (١٣٦٢)، وصحيح الجامع (٧٩٦٩).

ونص الحديث: **«يا معاذُ! والله إني لأحبك، أوصيك يا معاذ لا تدعنَّ في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك»**.

٢- كما جاء في صحيح البخاري (١٢٨) و(١٢٩)، و(٢٨٥٦) و(٥٩٦٧)، ومسلم (٣٠) عن معاذ ـ رضي الله عنه ـ قال: «كنت رديف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على حمار، فقال لي: **«يا معاذ! أتدري ما حقُّ الله على العباد، وما حق العباد على الله؟»**.

قلت: الله، ورسوله أعلم.

قال: **«حق الله على العباد: أن لا يشركوا به شيئاً، وحقُّ العباد على الله: أن لا يعذّبَ من لا يشرك به شيئاً»**.

قلت يا رسول الله!: أفلا أبشر الناس؟ =

= قال: «**لا تبشرهم؛ فيتّكلوا**».

٣- رواه أبو نعيم في الحلية ١/ ٣٢٨ بلفظ: «**معاذ بن جبل أعلم الناس بحلال الله وحرامه**» وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٨٧٩).

٤- الرتوة: تطلق على عدة معانٍ، فتطلق على الخطوة، والدرجة، والمنزلة عند السلطان، وقال ابن الأثير أي برمية سهم، وقيل: بميل، وقيل: مد البصر، وقيل الرتوة: سويعة، وشرفٌ من الأرض، والراتي: العالم الرباني[١].

٥- رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ٢٢٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٨٨٠).

(١) انظر النهاية في غريب الحديث ٢/ ١٩٥، ولسان العرب ١٤/ ٣٠٨.

ومن فضله أنه بعثه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مُبَلِّغاً، عنه، وداعياً، ومُفَقِّهاً، ومفتياً، وحاكماً إلى أهل اليمن[١].

وكان يشبهه بإبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ وإبراهيم إمام الناس.

وكان ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ[٢] يقول: «إن معاذاً كان أمة[٣] قانتاً[٤] لله[٥] حنيفاً[٦]، ولم يك من المشركين؛ تشبيهاً له بإبراهيم[٧].

١- كما في صحيح البخاري (١٤٥٨ ، ١٤٩٦ ، ٢٤٤٨)، ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

٢- انظر هذا الأثر في مجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ٣١٤.

٣- أمة: أي إماماً في الخير، وكلمة أمة تطلق في القرآن على أربعة إطلاقات:

أحدها: الإمام في الخير كما مر.

والثاني: الفترة الزمنية كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥].

والثالث: الجماعة من الناس، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣].

والرابع: الشريعة والملة، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢].

٤- قانتاً: أي ملازماً لطاعة الله.

٥- لفظ الجلالة ليس موجوداً في مجموعة الرسائل.

٦- الحنيف: المستقيم، المستمسك بالإسلام، المقبل على الله، =

. . . .

=المعرض عن كل ما سواه، والحنف: هو الميل عن الباطل إلى الحق، بخلاف الجنف؛ فهو الميل عن الحق إلى الباطل.

٧- هذا الثناء من ابن مسعود على معاذ ـ رضي الله عنهما ـ دليل على إنصافه، وزكاء نفسه؛ فمع أنه من أكابر علماء الصحابة إلا أنه لم يجد في نفسه غضاضة من الثناء على معاذ، وإنزاله منزلته اللائقة به.

وهكذا كان شأن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وبمثل هذا سادوا، ورفعهم الله جميعاً، فكانوا خير أمة أخرجت للناس، وكانوا أكثر الناس اتفاقاً، وأقلهم خلافاً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في منهاج السنة ٦/ ٣٦٤:

«ومن استقرأ أخبار العالم في جميع الفرق يتبين له أنه لم يكن قطُّ طائفةٌ أعظمَ اتفاقاً على الهدى والرشد، وأبعد عن الفتنة والتفرق، والاختلاف من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذين هم خير الخلق بشهادة الله لهم بذلك؛ إذ يقول ـ تعالى ـ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ثم إنه ـ صلى الله عليه وسلـم ـ وصَّاه هذه الوصية[١]، فعُلم أنها جامعة[٢].

وهي كذلك لمن عقلها[٣]، مع أنها تفسير الوصية القرآنية[٤].

١- الوصية: مر تعريفها.

٢- قوله «جامعة»: أي تجمع المعاني الكثيرة، والأغراض الصالحة، والمقاصد الصحيحة التي لها شأنها[١].

٣- لقد عقل معاذ ـ رضي الله عنه ـ هذه الوصية، ووعاها، وعمل بمقتضاها، وحبس نفسه عما يخالفها، فكان ملازماً للتقوى حيثما كان.

قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ: «وقد امتثل معاذ ما وصاه به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان عمر قد بعثه على عمل؛ فقَدِم وليس معه شيء، فعاتبته امرأتُه، فقال: كان معي ضاغط ـ يعني يضغط عليَّ، ويمنعني من أخذ شيء ـ.

وإنما أراد معاذٌ ربَّه ـ عز وجل ـ فظنت امرأته أن عمر قد بعث معه رقيباً، فقامت تشكوه إلى الناس»[٢].

٤- قوله: «الوصية القرآنية»: يعني بها قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الذينَ أُوتُوا الكِتَابَ من قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]».

والوصية بالتقوى في القرآن الكريم كثيرة جداً، وكثيراً ما يُجْمع=

---

(١) انظر اللسان ٨/ ٥٤.

(٢) جامع العلوم والحكم ١/ ٤١٠.

. . . .

= بينها وبين حسن الخلق، وما يدخل تحته من مكارم الأخلاق.

ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٩ - ٢٠١].

فقوله ـ عز وجل ـ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ الآية، هذه الآية جمعت مكارم الأخلاق، وأمرت بها.

وقوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ إلى قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الآية.

هذا بيان لوصف المتقين وأنهم يسارعون إلى الرجوع إلى ربهم إذا طاف بهم طائف من الشيطان، وأبعدهم عن جادة الصواب.

وكذلك الشأن في آيات آل عمران، حيث وصف الله المتقين بمثل ما وصى به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في هذه الوصية وذلك في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥)﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٥].

قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ في هذه الآيات: «فوصف المتقين بمعاملة الخلق بالإحسان إليهم بالإنفاق، وكظم الغيظ، والعفو عنهم؛ فجمع بين وصفهم ببذل الندى، واحتمال الأذى. =

. . . .

= وهذا هو غاية حسن الخلق الذي وصى النبي - صلى الله عليه وسلم - لمعاذ.

ثم وصفهم بأنهم ﴿إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ ولم يصروا عليها؛ فدل على أن المتقين قد يقع منهم أحياناً، كبائر، وهي الفواحش، وصغائر وهي ظلم النفس، لكنهم لا يصرون عليها، بل يذكرون الله عَقِب وقوعها، فيستغفرونه، ويتوبون إليه منها.

والتوبة هي ترك الإصرار.

ومعنى ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ أي ذكروا عظمته، وشدة بطشه، وانتقامه، وما توعد به على المعصية من العقاب؛ فيوجب ذلك لهم الرجوع في الحال، والاستغفار، وترك الإصرار»[1].

وقال - رحمه الله - في موضع آخر في معنى قوله - تعالى -: ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ الآية:

قال: «فيه إشارة إلى أن المذنبين ليس لهم من يلجؤون إليه، ويعوّلون عليه مغفرة ذنوبهم غيره»[2].

قال عبدالرزاق: «أخبرنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس قال: «بلغني أن إبليس حين نزلت هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا=

---

(١) جامع العلوم والحكم ١/ ٤١٢-٤١٣.

(٢) جامع العلوم ٢/ ٤٥.

. . . .

= أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥] بكى»[١].

ويروى عن ابن مسعود قال: «هذه الآية خير لأهل الذنوب من الدنيا وما فيها».

وقال ابن سيرين: «أعطانا الله هذه الآية مكان ما جعل لبني إسرائيل من الكفارات»[٢].

ومن الآيات التي تضمنت معنى الوصية السابقة آيات سورة الشورى ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠)﴾ [الشورى: ٣٦-٤٠].

قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ في جامع العلوم والحكم ١/ ٤٥١ معلقاً على هذه الآيات:

«فهذه الآيات تتضمن جميع ما ذكره النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في وصيته لمعاذ؛ فإنها تضمنت أصول خصال التقوى بفعل الواجبات، والانتهاء عن كبائر المحرمات، ومعاملة الخلق بالإحسان والعفو. =

---

(١) رواه ابن جرير الطبري (٧٨٥٢)، وأورده ابن رجب في جامع العلوم والحكم ١/ ٤١٧، والسيوطي في الدر المنثور ٢/ ٣٢٦.

(٢) جامع العلوم ١/ ٤١٧.

....

= ولازم هذا أنهم إن وقع منهم شيء من الإثم من غير الكبائر والفواحش يكون مغموراً بخصال التقوى المقتضية لتكفيرها ومحوها» ا ـ هـ.

هذا وسيأتي مزيد بسط لذلك ـ إن شاء الله ـ.

أما بيان جمعها[١] فلأن العبد عليه حقان: حقٌّ لله ـ عز وجل ـ وحقٌّ لعباده[٢].

ثم الحق الذي عليه[٣] لابد أن يخل ببعضه[٤] أحياناً، إما بترك مأمور به[٥]، أو فعل منهيٍّ عنه[٦]؛

١- أي بيان كيف كانت تلك الوصية جامعة.

٢- حق الله: يكون بلزوم تقواه، وحق العباد: بإحسان معاملتهم؛ فحقٌّ الله يتحقق بقوله: «**اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها**».

وحق العباد: يتحقق بقوله: «**وخالق الناس بخلق حسن**» كما سيأتي بيانه.

٣- أي الذي على العبد، سواء كان حقاً لله، أو للناس.

٤- أي يقصِّر في أدائه؛ لأنه خطَّاء كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون**»[١].

وكما قال ـ تعالى ـ في الحديث القدسي: «**يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم**»[٢].

٥- أي: بترك بعض ما هو مأمورٌ به سواء كان واجباً، أو مستحباً.

٦- أي: بفعل بعض ما هو منهيٌّ عنه سواء كان محرماً، أو مكروهاً.

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٩٩)، وابن ماجه (٤٢٥١)، وأحمد (٣/ ١٩٨، والحاكم ٤/ ٢٤٤).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧).

فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «اتق الله حيثما كنت(١)».
وهذه كلمة جامعة(٢).

١- أي لازِمْ تقوى الله على أي حال كنت، وفي أي زمان أو مكان كنت؛ واتق الله في سمعك، وبصرك، ويدك، أو رجلك.
واتق الله في مالك، وسوقك، ومتجرك، ومنزلك، ووالدك.
واتق الله في سرك، وفي علانيتك، وفي جميع ما تأتي وما تذر.
٢- لأنها جمعت خصال الخير كلها، بل لا وصية أجمع منها.

وفي قوله: «حيثما كنت» تحقيق لحاجته إلى التقوى في السر والعلانية(١).

١- لأن الإنسان لا يخلو من حال سرٍّ، أو حال علانية، فهو ما بين خلوة، وجلوة وهو محتاج إلى التقوى في كلا الحالين.

«ومن صار له هذا المقام حالاً دائماً أو غالباً فهو من المحسنين الذين يعبدون الله كأنهم يرونه، ومن المحسنين الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم؛ فتقوى الله في السر علامة كمال الإيمان، وله تأثير عظيم في محبة الله لمن كانت هذه حاله، وإلقاء محبته، والثناء عليه في قلوب المؤمنين؛ فمن أخفى خبيئة ألبسه الله ثوبها علانية، إن خيراً فخيراً، وإن شراً فشراً.

قال أبو الدرداء ـ رضي الله عنه ـ: «ليتق أحدكم أن تلعنه قلوب المؤمنين وهو لا يشعر، يخلو بمعاصي الله، فيلقي الله له البغض في قلوب المؤمنين»(١).

وقال أبو حازم ـ رحمه الله ـ: «لا يحسن عبد فيما بينه وبين الله ـ تعالى ـ إلا أحسن الله فيما بينه وبين العباد، ولا يعوِّر ـ يهدم ويفسد ـ فيما بينه وبين الله ـ تعالى ـ إلا عوَّر الله فيما بينه وبين العباد.

ولَمُصانعةُ وجهٍ واحدٍ أيسرُ من مصانعة الوجوه كلِّها؛ إنك إذا صانعت الله مالت إليك الوجوه كلها، وإذا أفسدت ما بينك وبينه شنأتك ـ أبغضتك ـ الوجوه كلها»(٢). =

---

(١) جامع العلوم ١/ ٤١١ .

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي ٦/ ١٠٠ .

. . . .

= وقال المعتمر بن سليمان ـ رحمه الله ـ: «إن الرجل يصيب الذنب في السر؛ فيصبح وعليه مذلته»[١].

وقال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ في صيد الخاطر ص١٠٨-١٠٩: «نظرت في الأدلة على الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فوجدتها أكثر من الرمل، ورأيت من أعجبها أن الإنسان قد يخفي ما لا يرضاه الله ـ عز وجل ـ فيظهره الله ـ سبحانه ـ عليه ولو بعد حين، وينطق الألسنة به، وإن لم يشاهده الناس.

وربما أوقع صاحبه في آفة يفضحه بها بين الخلق؛ فيكون جواباً لكل ما أخفى من الذنوب، وذلك؛ ليعلم الناس أن هنالك من يجازي على الزلل، ولا ينفع مِنْ قدره، وقُدْرته حجابٌ ولا استتار، ولا يضاع لديه عمل.

وكذلك يُخْفي الإنسانُ الطاعةَ، فتظهر عليه، ويتحدث الناس بها، وبأكثر منها، حتى إنهم لا يعرفون له ذنباً، ولا يذكرونه إلا بالمحاسن؛ ليعلم أن هناك رباً لا يُضيع عَمَل عامل.

وإن قلوب الناس لتَعْرِفُ حال الشخص، وتحبه أو تأباه، وتذمه أو تمدحه وفقَ ما يتحقق بينه وبين الله ـ تعالى ـ فإنه يكفيه كلَّ همٍّ، ويدفع عنه كل شر.

وما أصلح عبد ما بينه وبين الخلق دون أن ينظر إلى الحق إلا =

(١) روضة المحبين لابن القيم ص٤٣٩.

. . . .

= انعكس مقصوده، وعاد حامده ذاماً».

وقال ـ رحمه الله ـ ص٣٠١-٣٠٢: «إن للخلوة تأثيراتٍ تبين في الجلوة؛ كم من مؤمن بالله ـ عز وجل ـ يحترمه عند الخلوات؛ فيترك ما يشتهي؛ حذراً، من عقابه، أو رجاءً لثوابه، أو إجلالاً له؛ فيكون بذلك الفعل كأنه طرح عوداً هندياً على مجمر؛ فيفوح طيبه، فيستنشقه الخلائق، ولا يدرون أين هو.

وعلى قدر المجاهدة في ترك ما يهوى تقوى محبتُه، أو على مقدار زيادة دفع ذلك المحبوب المتروك يزيد الطيب، ويتفاوت تفاوتَ العود؛ فترى عيون الخلق تُعظِّم هذا الشخص، وألسنتهم تمدحه، ولا يعرفون لمَ، ولا يَقْدِرون على وصفه؛ لبعدهم عن حقيقة معرفته.

وقد تمتد تلك الأراييح ـ الروائح الزكية ـ بعد الموت على قدرها؛ فمنهم من يُذكر بالخير مدة مديدة ثم ينسى، ومنهم من يذكر مائة سنة ثم يخفى ذكره وقبره، ومنهم أعلام يبقى ذكرهم أبداً.

وعلى عكس هذا من هاب الخلق، ولم يحترم خلوته بالحق؛ فإنه على قدر مبارزته بالذنوب، وعلى مقادير تلك الذنوب ـ يفوح منه ريح الكراهة؛ فتمقته القلوب.

فإن قلَّ مقدار ما جنى قلَّ ذكر الألسن له بالخير، وبقي مجرد تعظيمه، وإن كثر كان قصارى الأمر سكوتَ الناس عنه لا يمدحونه، ولا يذمونه. =

. . . .

= وربَّ خالٍ بذنب كان سبب وقوعه في هُوَّةٍ شِقْوة في عيش الدنيا والآخرة، وكأنه قيل له: ابقَ بما آثرت؛ فيبقى أبداً في التخبيط؛ فانظروا إخواني إلى المعاصي أثَّرت، وعثَّرت».

إلى أن قال: «فتلمَّحوا ما سطَّرْتُه، واعرفوا ما ذكرته، ولا تهملوا خلواتكم؛ فإن الأعمال بالنية، والجزاء على مقدار الإخلاص».

ثم قال: «وأتبعِ(1) السيئة(2) الحسنة(3) تَمْحُها(4)».

١- قوله: «أتبع»: ألحق، وافعل عقبها مباشرة.

٢- قوله: «السيئة»: الفعل المعاقب عليه.

٣-قوله: «الحسنة»: الفعل المثاب عليه، ويعبر بها عن كل ما يسر من نعمةٍ تَنال الإنسانَ في نفسه، وبدنه، وأحواله، والسيئةُ ضدُّها.

والحسنة والسيئة من الألفاظ المشتركة التي تدل على عدة معان تختلف باختلاف السياق، وقرائن الأحوال؛ فمن إطلاقاتهما، ومعانيهما زيادة على ما مضى مايلي:

أ - الحسنة: النصر والغنيمة، والسيئة القتل والهزيمة، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

ب- الحسنة: التوحيد، والسيئة الشرك، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

ج- الحسنة: كثرةُ المطر والخصبُ، والسعةُ والظفر.

والسيئةُ: قحطُ المطر، وقلةُ النبات، والضيق والخيبة، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ﴾ [الأعراف: ١٣١].

د - السيئة: العذاب في الدنيا، والحسنة: العاقبة كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ [الرعد: ٦]. =

. . . .

= هـ- الحسنة: تعني العفو، وقول المعروف.

والسيئةُ: قول القبيح والأذى، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [القصص: ٥٤].

وقوله: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ﴾ [فصلت: ٣٤][1].

٤- قوله: «**تمحها**»: هذا جواب الطلب «**أتبع**» مجزوم، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، والأصل: تمحوها؛ فحذفت الواو للجزم.

والمحو: إزالة الأثر، وقوله (**تمحها**) أي تزيل الحسنةُ أثرَ السيئةِ، وترفع المؤاخذة بها.

قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ في جامع العلوم والحكم ١/ ٤١١- ٤١٢ في قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**وأتبع السيئة الحسنة تمحها**»: «لما كان العبد مأموراً بالتقوى في السر والعلانية مع أنه لابد أن يقع منه أحياناً تفريط في التقوى إما بترك المأمورات، أو بارتكاب بعض المحظورات؛ فأمره أن يفعل ما يمحو به هذه السيئة، وهو أن يتبعها بالحسنة.

قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

وفي الصحيحين ـ البخاري (٤٦٨٧) ومسلم (٢٧٦٣) ـ عن ابن=

---

(١) انظر معجم مفردات ألفاظ القرآن ص١١٧، والوجوه والنظائر ص٢٦٧- ٢٦٨.

. . . .

=مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة ثم أتى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فذكر ذلك له، فسكت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى نزلت هذه الآية، فقرأها عليه، فقال رجل: هذا له خاصة، قال: **«بل للناس عامة»** ا.هـ.

وقال ابن رجب ـ رحمه الله ـ: في قوله **«وأتبع السيئة الحسنة»**: «قد يراد بالحسنة: التوبة من تلك السيئة».

ثم شرع ـ رحمه الله ـ في ذكر أدلة هذا القول.

ثم قال ١/ ٤١٩: «وقد يراد بالحسنة ما هو أعم من التوبة» ثم ساق الأدلة على ذلك.

وقال في ١/ ٤٥١: «وقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«أتبع السيئة الحسنة تمحها»**: ظاهره أن السيئات تمحى بالحسنات» ا.هـ.

والقول بأن الحسنات تعم التوبة وغيرها من الحسنات الماحية، وغيرها من مكفرات الذنوب هو الأقرب للصواب كما سيأتي بيان ذلك.

وهذا ما رجحه شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ كما في مجموع الفتاوى ٧/ ٤٨٧-٥٠١ حيث قال: ٧/ ٤٨٧: «وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على أن عقوبة الذنوب تزول عن العبد بنحو عشرة أسباب: أحدها: التوبة».

ثم شرع ـ رحمه الله ـ بشرح تلك الأسباب التي سيأتي ذكرها في الصفحات التالية.

فإن الطبيب متى تناول المريضُ شيئاً مضراً أمره بما يصلحه[١].

١- أي إن الطبيب يأمر المريض إذا تناول طعاماً أو شراباً يضر بصحته ـ أن يصلح ما فسد وذلك بتناول الأدوية أو الأطعمة أو الأشربة الملائمة المُصْلِحة، وربما أمره بالحمية من بعض الأطعمة أو الأشربة.

وأمراض القلوب كأمراض الأبدان؛ فمرض البدن خلاف صحته وصلاحه، وهو فساد يكون فيه، وبسببه يفسد إدراكه، وحركته الطبيعية؛ فإدراكه إما أن يذهب كالعمى والصمم، وإما أن يدرك الأشياء على خلاف ما هي عليه كما يدرك الحلو مُراً، وكما يخيل إليه أشياء لا حقيقة لها في الخارج.

وأما فساد حركته الطبيعية فمثل أن تضعف قوته عند الهضم، أو مثل أن يبغض الأغذية التي يحتاج إليها، ويحب الأشياء التي تضره، ويحصل له من الآلام بحسب ذلك.

لكن مع ذلك المرض لم يمت، ولم يهلك.

وكذلك مرض القلب هو نوع فساد يحصل له يفسد به تصورُه وإرادته؛ فتصوره بالشبهات التي تعرض له حتى لا يرى الحق، أو يراه على خلاف ما هو عليه.

وإرادته بحيث يبغض الحق النافع، ويحب الباطل الضار؛ فلهذا يفسر المرض تارة بالشك والريب كما فسر مجاهد وقتادة قوله ـ تعالى ـ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]: أي شك.

=

. . . .

= وتارة يفسر بشهوة الزنا، كما فسر به قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢][1].

فأمراض القلوب تكون ـ إذاً ـ بالشبهات، وتكون بالشهوات وعلاجها ـ كما مر، وكما سيأتي ـ بإتباع السيئات الحسنات.

(١) انظر مجموع الفتاوى ١٠/٩١-١١١.

والذنب(١) للعبد(٢) كأنه أمرٌ(٣) حتم(٤).

١- **الذنب**: الذنب في الأصل الأخذ بذَنَب الشيء، يقال: ذَنَبتُه أصبت ذَنَبَه، ويستعمل في كل فعلٍ يُستَوخَم عقباه؛ ولهذا يسمى الذَّنب تبعةٌ؛ اعتباراً لما يحصل من عاقبته، وجمع الذنب ذنوب، قال ـ تعالى ـ: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١١]، وقال: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وقال: ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥] إلى غير ذلك من الآيات(١).

والذَّنب: الإثم، والجرم، والمعصية والجمع ذنوب، وذُنوبات جمع الجمع(٢).

٢- **للعبد**: العبودية إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها؛ لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله ـ تعالى ـ.

والعبادة على ضربين: عبودية لربوبية، وعبودية لألوهية.

والعبد يقال على أربعة أضرب:

الأول: عبد بحكم الشرع، وهو الإنسان الذي يصح بيعه، وابتياعه، نحو: **«العبد بالعبد» «وعبداً مملوكاً لا يقدر على شيء»**.

والثاني: عبد بالإيجاد، وذلك ليس إلا لله، وإياه قصد بقوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

والثالث: عبدٌ بالعبادةِ، والخدمةِ، والناسُ في هذا ضربان: =

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن ص١٨٤.

(٢) اللسان ١/ ٣٨٩.

. . . .

= **عبدٌ لله مخلصاً**: وهو المقصود بقوله: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ [ص: ٤١] ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣] ﴿نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١] ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١] ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٦٣] ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢] ونحو ذلك.

وعبدٌ لغير الله: وهو عبد للدنيا، وأغراضها، وأهلها، وهو المعتكف على خدمتها، ومراعاتها وإياه قصد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقول: «**تعس عبد الدرهم، وتعس عبد الدينار**».

والناس كلهم عباد الله، بل الأشياء كلها كذلك، لكنْ بعضُها بالتسخير والإكراه، وبعضها بالاختيار والطوع.

وجمع العبد الذي هو مسترقٌّ: عَبِيد، وقيل: عِبِدّ، وجمع العبد الذي هو العابد: عِبَاد.

فالعبيد إذا أضيف إلى الله أعم من العباد؛ فهو يشمل من انتسب إلى عبادته، ومن انتسب إلى غيره، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩].

ويقال: طريق معبد: أي مذلل بالوطء، وبعير معبد: مذلَّلٌ بالقطران، وعبَّدت فلاناً: إذا ذلَّلته، إذا اتخذته عبداً، قال ـ تعالى ـ: ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢][١]. =

---

(١) انظر معجم مفردات ألفاظ القرآن ص ٣٣٠-٣٣١

. . . .

= ٣- أمر: أي شأن، وجمعه أمور.

٤- حتم: الحتم: القضاء المقدر، اللازم الواجب الذي لابد من فعله[١].

ومعنى قوله: «**والذنب للعبد كأنه أمر حتم**»: أي أن الذنوب مقدرة عليه، لازمة له، مدركها لا محالة؛ وذلك بمقتضى طبيعته البشرية، وبمقتضى قدر الله الكوني، وحكمته البالغة في تقدير الأشياء؛ فإن لخلق الذنوب حكماً عظيمة سيمر بعضها فيما سيأتي.

فالعبد ـ إذاً ـ لابد أن يفعل ما قدر له من الذنوب كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**كتب على ابن آدم حظه من الزنا فهو مدرك ذلك لا محالة**» الحديث[٢].

وقد مر قبل قليل قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**كل بني آدم خطاء**».

وقوله في الحديث القدسي: «**يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار**» الحديث.

لكن الله ـ عز وجل ـ جعل للعبد مخرجاً مما وقع فيه من الذنوب، ومحاه بالتوبة، والاستغفار، والعمل الصالح، ونحو ذلك؛ فإن فعل فقد تخلص من شر الذنب، وإن أصر على الذنب هلك.

قال عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ في خطبة: «من أحسن منكم فليحمد الله، ومن أساء فليستغفر الله؛ فإنه لابد لأقوام من أن يعملوا=

(١) انظر معجم مفردات ص١٠٥ ولسان العرب ١٢/ ١١٣

(٢) رواه البخاري (٦٢٤٣) ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة.

. . . .

= أعمالاً وظَّفها الله في رقابهم، وكتبها عليهم».

وفي رواية عنه أنه قال: «يا أيها الناس من ألمَّ بذنب فليستغفر الله، وليتب، فإن عاد فليستغفر الله، وليتب؛ فإن عاد فليستغفر الله ولْيَتُبْ فإنما هي خطايا مطوقة في أعناق الرجال، وإن الهلاك كل الهلاك في الإصرار عليها»(١).

والإيمان بأن الله ـ عز وجل ـ قد قدَّر الذنوب والمعاصي على بنى آدم ليس حجة لأحد في ترك الواجبات، أو فعل المحرمات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وليس لأحد أن يحتج بالقدر على الذنب باتفاق المسلمين، وسائر الملل، وسائر العقلاء؛ فإن هذا لو كان مقبولاً لأمكن كل أحد أن يفعل ما يخطر له من قتل النفوس، وأخذ الأموال، وسائر أنواع الفساد في الأرض، ويحتج بالقدر. ونفس المُحتجِّ بالقدر إذا اعتُدي عليه، واحتج المعتدي بالقدر لم يقبل منه؛ بل يتناقض، وتناقضُ القول يدل على فساده؛ فالاحتجاج بالقدر معلوم الفساد في بداية العقول(٢)». =

---

(١) جامع العلوم ١/ ٤١٥.

(٢) مجموع الفتاوى ٨/ ١٧٩، وانظر مجموع الفتاوى ٨/ ٢٦٢-٢٦٨ واقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ٢/ ٨٥٨-٨٥٩، ومنهاج السنة لابن تيمية ٣/ ٦٥-٧٨، والإيمان بالقضاء والقدر للكاتب ص٨١-٨٧.

=«**الحكمة من خلق السيئات، وتقدير المعاصي**»

لخلق السيئات، وتقدير المعاصي حكم باهرة، وأسرار بديعة، يحسن الوقوف عندها، ولو على سبيل الإجمال.

قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وهذا باب عظيم من أبواب المعرفة قلَّ من استفتحه من الناس، وهو شهود الحكمة البالغة من قضاء السيئات وتقدير المعاصي.

وإنما استفتح الناس باب الحِكَم في الأوامر والنواهي، وخاضوا فيها، وأتوا بما وصلت إليه قواهم.

وأما هذا الباب فكما رأيت كلامهم فيه؛ فقلَّ أن ترى لأحدهم ما يشفي، أو يُلِمّ»(١).

إلى أن قال: «والمقصود أن مشاهدة حكمة الله في أقضيته وأقداره التي يجريها على عباده باختيارهم وإرادتهم هي ألطف ما تكلم فيه الناس، وأدقُّه، وأغمضُه، وفي ذلك حِكَمٌ لا يعلمها إلا الحكيم العليم ـ سبحانه ـ ونحن نشير إلى بعضها»(٢).

ثم شرع ـ رحمه الله ـ في ذكر العديد من الحكم في هذا الشأن؛ فإليك نبذة مما ذكره ـ رحمه الله ـ في كتابه مفتاح دار السعادة ١/ ٢٨٦-٢٩٩، وكذلك في مدارج السالكين ١/ ٣٠٦-٣١٢، وذلك على سبيل الإيجاز، والتصرف:

١ - **أن الله ـ عز وجل ـ يحب أن يتفضل على عباده:** ويُتِمَّ نعمه=

---

(١) (٢) مفتاح دار السعادة ١/ ٢٨٦.

. . . .

= عليهم، ويريهم مواقع بره وكرمه؛ فلذلك ينوعه عليهم أعظم الأنواع في سائر الوجوه الظاهرة والباطنة.

ومن أعظم ذلك أن يحسن إلى من أساء، ويعفو عمن ظلم، ويغفر لمن أذنب، ويتوب على من تاب إليه، ويقبل عذر من اعتذر إليه.

وقد ندب عباده إلى هذه الشيم الفاضلة، والأفعال الحميدة، وهو أولى بها منهم وأحق، وكان في تقدير أسبابها من الحكم والعواقب الحميدة ما يبهر العقول.

هذا ولو شاء الله ألا يُعصى في الأرض طرفة عين لم يُعْصَ، ولكن اقتضت مشيئته ما هو موجب حكمته ـ سبحانه ـ.

٢- أن يعرف العبد حاجته إلى حفظ الله له، ومعونته وصيانته: وأنه كالوليد في حاجته إلى من يحفظه؛ فإنه إن لم يحفظه مولاه، ويصونَه، ويعينه فهو هالك ولابد.

٣- استجلاب العبوديات المتنوعة من العبد إذا أذنب: وذلك كالاستعاذة، والاستعانة، والدعاء، والتضرع، ونحوها، مما هو من أعظم أسباب سعادته وفلاحه.

٤- استخراج تمام العبودية: وذلك بتكميل مقام الذل والانقياد؛ فأكمل الخلق عبودية أكملهم ذلاً لله، وانقياداً، وطاعة.

٥- أن يعرف العبد حقيقة نفسه: وأنها الظالمة الجهول، وأن ما=

. . . .

= صدر منها من شر فقد صدر من أهله ومعدنه؛ إذ الجهل والظلم منبع الشر كله، وأن كل ما فيها من خير، وعلم، وهدى، وإنابة، وتقوى فهو من ربها الذي زكاها به، وأعطاها إياه.

فإذا ابتلي العبد بالذنب عرف نفسه، ونَقْصَها؛ فَرُتِّب له على ذلك حكم ومصالح عديدة، منها أن يأنف نقصها، ويجتهد في كمالها، ومنها أن يعلم فقرها إلى من يتولاها ويحفظها.

٦- **تعريف العبد بكرم الله، وستره، وسعة حلمه:** وأنه لو شاء لعاجله على الذنب، ولهتك ستره بين العباد، فلم يَطِبْ له عيشٌ معهم أبداً.

ولكنه ـ عز وجل ـ جلَّله بستره، وغشَّاه بحلمه، وقيَّض له من يحفظه وهو في حالته هذه، بل كان شاهداً عليه وهو يبارزه بالمعاصي والآثام، ومع ذلك يحرسه بعينه التي لا تنام.

٧- **تعريف العبد بكرم الله في قبول التوبة:** فلا سبيل إلى النجاة إلا بعفو الله وكرمه ومغفرته، فهو الذي جاد عليه بأن وفقه للتوبة، وألهمه إياها، ثم قبلها منه، فتاب عليه أولاً وآخراً.

٨- **إقامة الحجة على العبد:** فإذا أصابه ما أصابه فلا يقلِ: من أين أُتيت، ولا بأي ذنب أصبت؛ فما أصاب العبد من مصيبة قطُّ دقيقةٍ أو جليلة إلا بما كسبت يده، وما يعفو الله أكثر.

٩- **أن يعامل العبد بني جنسه بما يحب أن يعامله الله به:** فيعامل بني جنسه في زلاتهم وإساءاتهم بما يحب أن يعامله الله في إساءته، =

. . . .

= وزلاته، وذنوبه؛ فإن الجزاء من جنس العمل، فمن عفى عفى الله عنه، ومن سامح أخاه سامحه الله، ومن استقصى استقصى الله عليه، وهكذا.

ثم إذا علم أن الذنوب والإساءة لازمة للإنسان لم تَعْظُمْ عنده إساءةُ الناس إليه؛ فليتأمل حاله مع ربه، كيف هو مع فرط إحسانه إليه، وحاجته هو إلى ربه، وهو هكذا له؛ فإذا كان العبد هكذا لربه فكيف ينكر أن يكون الناس له بتلك المنزلة؟.

١٠- **إقامة المعاذير للخلائق:** فإذا أذنب العبد أقام المعاذير للخلائق، واتسعت رحمته لهم، واستراح من الضيق والحصر، وأكْلِ بعضه بعضاً، واستراح العصاة من دعائه عليهم، وقنوطه من هدايتهم؛ فإنه إذا أذنب رأى نفسه واحداً منهم، فهو يسأل الله لهم المغفرة، ويرجو لهم ما يرجوه لنفسه، ويخاف عليهم ما يخافه على نفسه.

ومع هذا فيقيم أمر الله فيهم؛ طاعةً لله، ورحمة بهم، وإحساناً إليهم؛ إذ هو عين مصلحتهم، لا غلظة، ولا قوة، ولا فظاظة.

١١- **أن يخلع صولة الطاعة من قلبه:** وينزع داء الكبر والعظمة الذي ليس له، ويلبس رداء الذل، والانكسار، والفقر والفاقة؛ فلو دامت تلك الصولة والعزة في قلبه لخيف عليه مما هو أعظم الآفات؛ فكم بين آثار العجب والكبر وصولة الطاعة، وبين آثار الذلة والمسكنة والانكسار؟.

١٢- **هياج العبوديات القلبية وانبعاثها:** ذلك أن لله على القلوب=

. . . .

=أنواعاً من العبوديــة، من الخوف، والخشيــة، والإشفاق، والوجل، وتوابعها من المحبة، والإنابة، وابتغاء الوسيلة وتوابعها.

وهذه العبوديات لها أسباب تهيجها وتبعث عليها؛ وكلما قَيَّض الرب ـ تعالى ـ لعبده مِّن الأسباب الباعثة على ذلك، المهيجة له فهو من أسباب رحمته، ورُب ذنب قد هاج لصاحبه من الخوف، والإشفاق، والوجل، والإنابة، والمحبة، والفرار إلى الله ما لا يهيجه كثير مــن الطاعات، وكم من ذنب كان سبباً لاستقامة العبد، وفراره إلى الله، وبعده عن طريق الغي.

١٣ - أن يعرف العبد نعمة معافاة الله وفضله، وتوفيقه له، وحفظه إياه: فإن من تربى في العافية قد لا يعلم ما يقاسيه المبتلى، وقد لا يعرف مقدار العافية؛ فلو عرف أهل الطاعة أنهم هم المنعم عليهم في الحقيقة لعلموا أن لله عليهم من الشكر أضعافَ ما على غيرهم وإن توسدوا التراب، ومضغوا الحصى؛ فهم أهل النعمة المطلقــة، وأن من خلَّى الله بينه وبين معاصيه فقد سقط من عينه، وهان عليه.

فإذا طالبت العبدَ نَفْسُه بما تطالبه من الحظوظ والأقسام، وأَرَتْهُ أنه في بلية وضائقة تداركه الله برحمته، وابتلاه ببعض الذنوب، فرأى ما كان فيه من المعافاة والنعمة، وأنه لا نسبة لما كان فيه من النعم إلى ما طلبته نفسه من الحظوظ، فحينئذ يكون أكثر أمانيه وآماله العودَ إلى حاله، وأن يمتعه الله بعافيته. =

. . . .

= ١٤ - **أن التوبة توجب للتائب أثاراً عجيبة من المقامات التي لا تحصل بدونها:** فتوجب له المحبة، والرقة، واللطف، وشكر الله، وحمده، والرضا عنه فَرُتِّب له على ذلك أنواع من النعم لا يهتدي العبد لتفاصيلها، بل لا يزال يتقلب في بركتها، وآثارها ما لم ينقضها، أو يفسدها.

١٥ - **استكثار القليل من النعم:** فإذا شهد العبد ذنوبه، ومعاصيه، وتفريطه في حق ربه استكثر القليل من نعم ربه عليه ـ ولا قليل منه ـ لعلمه أن الواصل إليه منها كثير على مسيء مثله، واستقل الكثير من عمله؛ لعلمه أن الذي ينبغي أن يغسل به أوضاره أضعافُ ما أتى به، فهو دائماً مستقل لعمله كائناً ما كان، مستكثر لنعمة الله عليه وإن دقَّت.

١٦ - **أن الذنب يوجب لصاحبه التحرز والتيقظ من مصائد عدوه ومكائده:** فيعلم من أين يدخل عليه اللصوص والقطاع ومكامنهم، ومن أين يخرجون عليه، وفي أي وقت يخرجون؛ فهو قد استعد لهم، وتأهب، وعرف بماذا يستدفع شرهم وكيدهم؛ فلو أنه مرَّ عليهم على غِرَّة وطمأنينة لم يأمن أن يظفروا به، ويجتاحوه جملة.

١٧ - **مراغمة الشيطان وإغاظته ومجاهدته:** فالقلب يذهل عن عدوه، فإذا أصابه منه مكروه استجمعت له قوته، وطلب بثأره إن كان قلبه حراً كريماً.

كالرجل الشجاع إذا جرح فإنه لا يقوم له شيء، بل تراه بعدها=

. . . .

= هائجاً، طالباً، مقداماً.

والقلب المهين كالرجل الضعيف المهين إذا جرح ولى هارباً، والجراحات في أكتافه.

وكذلك الأسد إذا جرح فإنه لا يطاق؛ فلا خير فيمن لا مروءة له، لا يطلب أخذ ثأره من أعدى عدوٍّ له.

فما شيء أشفى للقلب من أخذه بثأره من عدوه، ولا عدوَّ أعدى له من الشيطان؛ فإن كان له قلب من قلوب الرجال المتسابقين في حلبة المجد جدَّ في أخذ الثأر، وغاظ عدوه كل الغيظ، وأضناه.

كما جاء عن بعض السلف: إن المؤمن لَيُنْضي شيطانه كما ينضي أحدكم بعيره في سفره.

١٨- معرفة الشر؛ حذر الوقوع فيه: فالذي يقع في الذنب يصير كالطبيب ينتفع به المرضى في علاجهم ودوائهم؛ فالطبيب الذي عرف المرض مباشرة، وعرف دواءه وعلاجه أحذق وأخبر من الطبيب الذي عرف الداء وصفاً فحسب.

هذا في أمراض الأبدان، وكذلك أمراض القلوب وأدواؤها.

ولذلك كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أعرف الأمة بالإسلام، وتفاصيله، وأبوابه، وطرقه، وأشد الناس رغبة فيه، ومحبة له، وجهاداً لأعدائه؛ لعلمهم بضده.

فإذا عرف العبد الضدين، وعلم مباينة الطرفين، وعرف أسباب=

. . . .

=الهلاك على التفصيل ـ كان أحرى أن تدوم له النعمة ما لم يؤثر أسباب زوالها على علم، وفي مثل هذا قال القائل:

عرفت الشرَّ لا للشرْ ... رِ لكنْ لتوقِّيه
ومن لا يعرفِ الشرَّ ... من الناس يقعْ فيه

وهذه حال المؤمن يكون فطناً حاذقاً أعرف الناس بالشر، وأبعدهم عنه؛ فإذا تكلم في الشر وأسبابه ظننته من شر الناس، فإذا خالَطْتَهُ، وعرفت طويته رأيته من أبر الناس.

والمقصود أن من بلي بالآفات صار أعرف الناس بطرقها، وأمكنه أن يسدها على نفسه، وعلى من استنصحه من الناس، ومن لم يستنصحه.

١٩ - ابتلاء العبد بالإعراض عنه: فالله ـ عز وجل ـ يذيق عبده ألم الحجاب عنه، وزوال ذلك الأنس به، والقرب منه؛ ليمتحن عبده، فإن أقام العبد على الرضا والحال، ولم يجد نفسه تطالبه بحالها الأول مع الله، بل اطمأنت وسكنت إلى غيره ـ علم أنه لا يصلح، فوضعه في مرتبته التي تليق به.

وإن استغاث استغاثة الملهوف، وتَقَلَّقَ تَقَلُّقَ المكروب، ودعاه دعاء المضطر، وعلم أنه قد فاتته حياته حقاً، فهو يهتف بربه أن يرد عليه ما لا حياة له بدونه ـ علم أنه مَوْضِعٌ لما أُهِّلَ له، فردَّ عليه أحوج ما هو محتاج إليه، فعظمت به فرحته، وكملت به لذته، وتمت به نعمته، واتصل به سروره، وعلم حينئذ مقداره، فعض عليه بالنواجذ، وثنَّى=

. . . .

=عليه بالخناصر؛ فالعبد إذا بُلي بَعْدَ الأنس بالوحشة، وبعد القرب بنار البعاد ـ اشتاقت نفسه إلى لذة تلك المعاملة، فحنَّتْ، وأنَّتْ، وتصدَّعت، وتعرضت لنفحات مَنْ ليس لها عنه عوض أبـداً، ولاسيما إذا تذكر برَّه، ولطفه، وحنانه، وقربه.

٢٠- أن الحكمة الإلهية اقتضت تركيب الشهوة والغضب فـي الإنسان: وهاتان القوتان فيه بمنزلة صفاته الذاتية التي لا ينفك عنهما، وبهما وقعت الفتنة والابتلاء.

وتركيب الإنسان على هذا الوجه هو غاية الحكمة، ولابد أن يقتضي كل واحد من القوتين أثره، فلا بد من وقوع الذنب، والمخالفات والمعاصي.

ولو لم تخلق في الإنسان لم يكن إنساناً، بل كان مَلكاً، فأما من اكتنفته العصمة، وضُرِبَتْ عليه سرادقاتُ الحفظ ـ فهم أقل أفراد النوع الإنساني، بل هم خلاصته ولبه.

٢١- أن الله إذا أراد بعبد خيراً أنساه رؤية طاعاته، ورفعها من قلبه ولسانه: فإذا ابتلي العبد بالذنب جعله نصب عينيه، وجعل همه كله بذنبه، فلا يزال ذنْبُه أمامه إن قام أو قعد، أو غدا أو راح، فيكون هذا عينَ الرحمةِ في حقه، كما قال بعض السلف: إن العبد ليعمل الخطيئة فلا تزال نصب عينيه كلما ذكرها بكى، وندم، واستغفر، وتضرع، وأناب إلى الله، وذل وانكسر، وعمل لها أعمالاً فتكون سبباً للرحمة في حقه.

ويعمل الحسنة، فلا تزال نصب عينيه، يمن بها، ويراها، ويَعْتَدُّ=

. . . .

= بها على ربه، وعلى الخلق، ويتكبر بها، ويعجب من الناس كيف لا يعظمونه، ويكرمونه، ويجلونه عليها، فلا تزال هذه الأمور به حتى تقوى عليه آثارها فتدخله النار.

٢٢- **لزوم التواضع وترك الترفع:** فإذا شهد العبد ذنوبه وخطاياه أوجب له ذلك ألا يرى لنفسه على أحد فضلاً، ولا له على أحد حقاً، فلا يظن أنه خير مسلم يؤمن بالله ورسوله.

وإذا شهد ذلك من نفسه لم ير لها على الناس حقوقاً من الإكرام؛ فاستراح هذا في نفسه، وأراح الناس من شكايته وغضبه على الوجود وأهله؛ فما أطيب عيشه، وما أنعم باله؛ فأين هذا ممن لا يزال عاتباً على الخلق، شاكياً ترك قيامهم بحقه، ساخطاً عليهم وهم عليه أسخط؟

٢٣- **الاشتغال بعيوب النفس، والإمساك عن عيوب الناس:** فالذنب يوجب له الإمساك عن عيوب الناس، والفكر فيها؛ فإنه في شغل بعيب نفسه، وهذا من أمارات السعادة.

٢٤- **الاستغفار للخطائين:** فإذا وقع الذنب من العبد شهد نفسه مثل إخوانه الخطائين، وشهد أن المصيبة واحدة، وأنهم مشتركون في الحاجة، بل الضرورة إلى مغفرة الله، وعفوه، ورحمته؛ فكما يحب أن يستغفر له أخوه المسلم ـ فكذلك هو ينبغي أن يستغفر لأخيه المسلم.

هذه بعض الحكم من خلق المعاصي، وتقدير السيئات، يتضح بها شيء من حكمة العليم الحكيم فيما يقدره ويقضيه.

فالكيِّس[١] هو الذي لا يزال يأتي من الحسنات بما يمحو السيئات[٢].

١- **الكيِّس**: هو العاقل.

٢- قوله: **«هو الذي لا يزال يأتي من الحسنات بما يمحو السيئات»**:
أي أن العاقل حقاً هو الذي يتبع السيئات الحسنات؛ لتزيل آثارها، وتمنع عقوبتها، خصوصاً وأن الحسنة بعشر أمثالها أو أكثر، والسيئة بمثلها أو تغفر.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**﴾ [الأنعام: ١٦٠].

فمضاعفة الحسنة بعشر أمثالها لازم لكل الحسنات كما جاء في الآية السابقة.

أما زيادة المضاعفة على العشر لمن شاء فدل عليه قوله ـ تعالى ـ: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿**وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: ٤٠].

وفي صحيح مسلم (١٨٩٢) عن ابن مسعود قال: جاء رجل بناقة مخطومة، فقال: يا رسول الله! هذه في سبيل الله، فقال: **«لك بها يوم القيامة سبع مائة ناقة»**.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يرويه عن ربه ـ تبارك وتعالى ـ قال: **«إن الله ـ عز**=

. . . .

= وجل ـ كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك؛ فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن همَّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن همَّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة» رواه البخاري (٦٤٩١) ومسلم (١٣١).

وفي الصحيحين - البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١) ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «كل عمل ابن آدم يضاعف: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف، قال الله ـ عز وجل ـ: إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، يدع شهوته، وطعامه، وشرابه من أجلي».

وفي رواية بعد قوله: «إلى سبع مائة ضعف»: «إلى ما يشاء الله».

وفي صحيح مسلم (٢٦٨٧) عن أبي ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «من عمل حسنة فله عشر أمثالها أو أزيد، ومن عمل سيئة فجزاؤها مثلها أو أغفر».

وإنما قدم في لفظ الحديث «السيئة» وإن كانت مفعولة[1]؛ لأن المقصود هنا مَحْوُها، لا فعلُ الحسنةِ.

١- قوله: «**وإن كانت مفعولة**»: أي وإن كانت السيئة مفعولة: أي أن موقعها من الإعراب مفعول به.

ولعل هذا الكلام يتضح بإعراب الجملة كاملة وهي:

«**أتبعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها**».

أتبع: فعل أمر مبني على السكون، وكسر آخره لالتقاء الساكنين، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت يعود على معاذ.

السيئة: مفعول به أول منصوب، وعلامة نصبه الفتحة.

الحسنة: مفعول به ثانٍ.

تمحها: تمح: فعل مضارع مجزوم بالطلب، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، والفاعل ضمير مستتر تقديره هي يعود على الحسنة، وها: ضمير متصل مبني على السكون من محل نصب مفعول به.

والتقدير: تمح الحسنةُ السيئةَ.

فهذا معنى تقديم السيئة على الحسنة، مع أن السيئة مفعوله، والحسنة فاعل؛ لأن المقصود محوها: أي محو السيئة، لا فعل الحسنة: أي ليست الحسنة مقصودة لذاتها ههنا، وإنما هي مقصودة لغيرها، وهو إزالة أثر السيئة، ولهذا قدمت السيئة عليها.

وقد يقال: إن المراد بتقديم السيئة هو تقديمها على الحسنة بالنسبة للعامل الأول «أتبع». =

. . . .

لأن (أتْبِعْ) يتعدى إلى مفعولين وقد تعدى إلى مفعولين في الحديث وهما: السيئة، والحسنة.

وإذا كان الفعل يتعدى إلى مفعولين وأحدهما فاعل في المعنى فالأصل تقديم ما هو فاعل في المعنى مثل:

أعطيت زيداً درهماً، وكسوت زيداً جبة.

فـ: (زيداً) مفعول أول، ودرهماً مفعول ثان.

وقدم: زيداً لأنه فاعل في المعنى، أي هو الآخذ.

وكذلك: (زيداً) في المثال الثاني فهو مفعول أول، وقدم لأنه فاعل في المعنى.

قال ابن مالك ـ رحمه الله ـ في ألفيَّته:

والأصل سبق فاعل معنى كـ: مَنْ
مِنْ أَلْبِسَنْ مَنْ زاركم نسجَ اليمن

فقوله: (من زاركم): مفعول أول، و(نسج اليمن) مفعول ثان.

ويجوز تقديم ما ليس فاعلاً في المعنى مثل: أعطيت درهماً زيداً، وكسوت جبة زيداً، لكنه خلاف الأصل، ويجوز إذا أمن اللبس قال ابن مالك:

ويلزم الأصل لموجب عرا وترك ذاك الأصل حتماً قد يرى

أي يلزم تقديم الفاعل إذا طرأ ما يوجب ذلك، وهو خوف اللبس

. . . .

= مثل: أعطيت زيداً عمراً، فيجب تقديم الفاعل الآخذ لا غيره؛ لأجل اللبس.

وعلى هذا فلعل شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ أراد أن السيئة قدمت للغرض الذي ذُكر وهو أن المقصود من السياق محو السيئة لا فعل الحسنة، فَقُدِّمت السيئة مع أنها مفعولة في المعنى، والحسنة فاعل بالنسبة لكونهما مفعولين للفعل: أتبع، فكان الأصل أن يقال: وأتبع الحسنةَ السيئةَ تمحها، لأن الحسنةَ ـ وإن كان مفعولاً أولَ ـ هي فاعل في المعنى، فهي الماحية، لكنها أخرت؛ للغرض الذي ذكر، والله أعلم، وذلك ما سيتضح في الفقرة الآتية.

فصار[١] كقوله[٢] في بول الأعرابي[٣]: «صبوا عليه ذنوباً من ماء»[٤].

١- قوله: «**فصار**»: إشارة إلى محو الحسنة للسيئة.

٢- قوله: «**كقوله**»: أي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

٣- أي الأعرابي الذي بال في المسجد، وهذه العبارة (في بول الأعرابي) ساقطة في مجموعة الرسائل.

٤- هذا الحديث رواه البخاري (٢٢٠) عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «قام أعرابيٌّ فبال في المسجد، فتناوله الناس، فقال لهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**دعوه، وهريقوا على بوله سجلاً من ماء ـ أو ذنوباً من ماء ـ فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين**».

وقوله: «**سِجْلاً**»: هو الدلو ملأى، ولا يقال لها ذلك وهي فارغة، قال أبو حاتم السجستاني، وقال ابن دريد: السَّجْل: دَلْوٌ واسعة، وفي الصحاح: الدلو الضخمة.

وقوله: «**ذنوباً**»: قال الخليل: الدلو ملأى، وقال ابن فارس: الدلو العظيمة، وقال ابن السِّكِّيت: فيها ماء قريب من الملء، ولا يقال لها: وهي فارغة ذنوب[١].

والمراد من سياق الحديث في المتن: أن الماء يزيل نجاسة البول، وهي نجاسة حسية، وكذلك الحسنة تزيل أثر السيئة، وهي نجاسة معنوية.

=

---

(١) انظر فتح الباري لابن حجر ١/ ٣٨٧.

. . . .

= ولعل المراد من قوله: «**فصار كقوله في بول الأعرابي...**»: هو إزالة أثر البول، لا صب الماء، فالصب ـ ههنا ـ ليس مقصوداً لذاته، وإنما هو مقصود لغيره، أي لإزالة أثر البول؛ ولهذا لم يقل «**صبوا ذنوباً من ماء عليه**» فصارت هذه المسألة كالمسألة السابقة، حيث قدمت السيئة على الحسنة في الحديث؛ لأن المراد في ذلك السياق محو السيئة، لا فعل الحسنة لذاتها؛ فلعل هذا هو المقصود من تشبيه حديث معاذ بقصة بول الأعرابي، والله أعلم.

وينبغي أن تكون الحسنات من جنس السيئات[١]؛ فإنه أبلغ في المحو[٢].

١- أي أنه يحسن أن تكون الحسنات الماحية من جنس السيئات المُرْتَكَبَة.

مثال ذلك أن يغتاب أحدٌ من الناس شخصاً، ويذكره بسوء، فحسنته التي هي من جنس تلك السيئة أن يندم، وأن يذكره بخير كما ذكره بسوء.

مثال ثانٍ: أن يفسد إنسان بين أناس، فهذه سيئة، وحسنتها التي من جنسها أن يندم، ويصلح ما أفسد.

مثال ثالث: أن يعق الإنسان والديه، أو أن يقطع أرحامه فهذه سيئة، والحسنة التي من جنسها أن يبر والديه، ويصل أرحامه وهكذا...

٢- قوله: «فإنه أبلغ في المحو» أي آكد في إزالة أثر السيئة.

ولا يلزم بكل حال أن تكون الحسنة الماحية من جنس السيئة المرتكبة، ولذلك قال ـ رحمه الله ـ «وينبغي» ولم يقل: ويجب؛ ذلك أن فعل الحسنات عموماً سبب في محو السيئات، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾.

والأمثلة على ذلك كثيرة، منها حديث البغي الذي جاء في صحيح البخاري (٣٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٥).

قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**بينما كلبٌ يُطيف بركيَّة ـ بئر ـ كاد يقتله العطش؛ إذ رأته بغيٌّ من بغايا بني إسرائيل، فنزعت موقها ـ خُفَّها ـ واستقت له به، فسقته إياه؛ فَغُفِر لها به**». =

. . . .

= فانظر كيف وقع المحو مع أن الحسنة ليست من جنس السيئة؛ إذ الإحسان إلى الكلب ليس من جنس الزنا الذي كانت ترتكبه.

والأمثلة على ذلك كثيرة.

والذنوب يزول موجبها[١] بأشياء[٢].

١- قوله: «**موجبها**»: قال الفيومي في المصباح المنير ص٣٣٤: «الموجِب: السبب، والموجَب: المُسبَّب».

٢- قوله: «**بأشياء**»: هذا شروع بذكر الأشياء التي يزول بها موجبُ الذنوب؛ فالذنوب مُوجِبة لدخول النار، وصاحبها مُتوعد بذلك، إلا أن هناك أسباباً تندفع بها العقوبة، وينتفي بسببها الوعيد.

وهذه الأسباب تسمى: «**موانع إنفاذ الوعيد**»، وهي عشرة أسباب عرفت بالاستقراء من الكتاب والسنة.

وقد ذكر شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ في هذه الوصية أربعة منها؛ حيث ذكر ثلاثة متوالية، وهي: التوبة، والاستغفار، والأعمال الصالحة المكفرة، ثم ذكر الرابع بعد عدة أسطر وهو المصائب المكفرة.

هذا وقد ذكر شيخ الإسلام موانع إنفاذ الوعيد العشرة في مواضع من كتبه؛ فمن ذلك أنه ذكرها في مجموع الفتاوى ١٠/ ٤٥-٤٦، فقال: «والمؤمن إذا فعل سيئة فإن عقوبتها تندفع عنه بعشرة أسباب:

١- أن يتوب؛ فيتوب الله عليه؛ فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

٢- أو يستغفر فيغفر الله له.

٣- أو يعمل حسناتٍ تمحوها؛ فإن الحسنات يذهبن السيئات.

٤- أو يدعو له إخوانُه المؤمنون، ويستغفرون له حيًّا، وميتاً.

٥- أو يهدون له من ثواب أعمالهم ما ينفعه الله به. =

. . . .

= ٥- أو يهدون له من ثواب أعمالهم ما ينفعه الله به.

٦- أو يشفع فيه نبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

٧- أو يبتليه الله ـ تعالى ـ في الدنيا بمصائب تكفِّر عنه.

٨- أو يبتليه في البرزخ بالصعقة؛ فيكفر بها عنه.

٩- أو يبتليه في عرصات القيامة من أهوالها بما يكفِّر عنه.

١٠- أو يرحمه أرحم الراحمين.

فمن أخطأته هذه العشرة فلا يلومن إلا نفسه كما قال ـ تعالى ـ فيما يرويه عنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها؛ فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه**».

وقد ذكرها ـ رحمه الله ـ في كتابه الاستقامة ٢/ ١٨٤-١٨٥، فقال: «فإن الذنوب التي يبتلى بها العباد يسقط عنهم عذابُها إما بتوبة تجُبُّ ما قبلها، وإما باستغفار، وإما بحسنات ماحية يذهبن السيئات، وإما بدعاء المسلمين وشفاعتهم، أو بما يفعلونه له من البر، وإما بشفاعة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وغيره فيه يوم القيامة، وإما أن يكفِّر الله خطاياه بما يصيبه من المصائب».

فتارة يذكرها ويعدُّها عشرة، وتارة يذكر بعضها.

وقد ذكرها شارح الطحاوية ابن أبي العز الحنفي ـ رحمه الله ـ ص٣٢٧، وقال: «فإن فاعل السيئات يسقط عنه عقوبة جهنم بنحو عشرة أسباب=

. . . .

= ثم شرع بذكرها وشرحها وقد عدَّها أحد عشر سبباً، حيث ذكر السببين: الثامن والتاسع وهما بمعنى واحد وإليك ذكرها على سبيل الإجمال ـ كما جاء في شرح الطحاوية:

١- التوبة ٢- الاستغفار ٣- الحسنات ٤- المصائب الدنيوية ٥- عذاب القبر ٦- دعاء المؤمنين، واستغفارهم في الحياة وبعد الممات. ٧- ما يهدى إليه بعد الموت من ثواب وصدقة، أو حجٍّ ونحو ذلك. ٨- أهوال يوم القيامة وشدائده. ٩- اقتصاص المؤمنين من بعض إذا عبروا الصراط، ووقفوا على قنطرة بين الجنة والنار؛ فإذا هُذِّبوا ونُقُّوا أذن لهم في دخول الجنة. ١٠- شفاعة الشافعين. ١١- عفو أرحم الراحمين من غير شفاعة.

أما ذِكْرُها بتفصيل، وتوسع، وذكر للأدلة ـ فقد جاء في مجموع الفتاوى ٧/ ٤٨٧-٥٠١؛ حيث ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بشيء من البسط.

أحدها(١): التوبة(٢).

١- أي أحد موانع إنفاذ الوعيد، وأحد الأشياء التي يزول بها موجب الذنوب.

٢- التوبة: فهي أهم موانع الإنفاذ، وأعظمها، وهي مما لا خلاف فيه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ٧/ ٤٨٧: «وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على أن عقوبة الذنوب تزول عن العبد بنحو عشرة أسباب.

أحدها: التوبة، وهذا متفق عليه بين المسلمين».

وقال شارح الطحاوية ابن أبي العز الحنفي ـ رحمه الله ـ ص٣٢٧: «وكون التوبة سبباً لغفران الذنوب، وعدم المؤاخذة بها مما لا خلاف فيه بين الأمة.

وليس شيء يكون سبباً لغفران جميع الذنوب إلا التوبة.

قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وهذا لمن تاب؛ ولهذا قال: ﴿لَا تَقْنَطُوا﴾ وقال بعدها: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٤]» ا ـ هـ.

وبما أن للتوبة هذه المزيةَ العظيمةَ فإنه يحسن الوقوف عند بعض مسائلها، وأحكامها؛ فإليك شيئاً من ذلك:

. . . .

= **«تعريف التوبة»**

التوبة مصدر الفعل تاب، وأصل هذه المادة: التاء، والواو، والباء: توب.

وهي تدور حول معاني الرجوع، والعودة، والإنابة، والندم.

ويقال: توبة، وتوباً، ومتاباً[1].

التوبة في الشرع: عُرِّفت التوبة في الشرع بتعريفات متقاربة، والمدلول الشرعي قريب من المدلول اللغوي، فمما عرفت به التوبة مايلي:

١- عرفها أبو حامد الغزالي ـ رحمه الله ـ في إحياء علوم الدين ٤/ ٥ فقال: «ومن معانيها: ترك المعاصي في الحال، والعزم على تركها في الاستقبال، وتدارك ما سبق من التقصير في سابق الأحوال».

٢-وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في مدارج السالكين ١/ ٩٩: «فحقيقة التوبة هي الندم على ما سلف منه في الماضي، والإقلاع عنه في الحال، والعزم على ألا يعاوده في المستقبل».

٣- وقال ـ أيضاً ـ ١/ ٣١٣: «التوبة هي الرجوع مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً».

٤- ويمكن أن تُعَرَّف التوبة بأنها: «ترك الذنب علماً بقبحه، وندماً على فعله، وعزماً على ألا يعود إليه إذا قدر، وتداركاً لما يمكن تداركه=

(١) انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس ١/ ٣٥٧، ولسان العرب ١/ ٢٣٣.

. . . .

= من الأعمال، وأداءًا لما ضيَّع من الفرائض؛ إخلاصاً لله، ورجاءًا لثوابه، وخوفاً من عقابه، وأن يكون ذلك قبل الغرغرة، وقبل طلوع الشمس من مغربها».

«فضائل التوبة وأسرارها»

للتوبة فضائل جمـة، وأسرار بديعة، وفوائد متعددة، وبركات متنوعة؛ فمن ذلك مايلي:

١- التوبة سبب للفلاح، والسعادة في الدارين: قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [النور: ٣١].

٢- بالتوبة تكفر السيئات: فإذا تاب العبد توبة نصوحاً كفَّر الله بها جميع ذنوبه.

قال ـ تعالى ـ: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ** ﴾ [التحريم: ٨].

٣- بالتوبة تبدل السيئات حسنات: فإذا حسنت التوبة بدَّل الله سيئات صاحبها حسنات، قال ـ تعالى ـ: ﴿ **إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ [الفرقان: ٧٠].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في المدارج ١/ ٣١٠ في هذه الآية: «وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح، وهو حقيقة التوبة. =

. . . .

= قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «ما رأيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرح بشيء قط فرحه بهذه الآية لما أنزلت، وفرحه بنزول: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١، ٢]».

٤- **أن الله يحب التوبة والتوابين:** قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

٥- **أن الله يفرح بتوبة التائبين:** ولم يجيء هذا الفرح في شيء من الطاعات سوى التوبة، ومعلوم أن لهذا الفرح تأثيراً عظيماً في حال التائب وقلبه، ومزيدُه لا يعبر عنه.

قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما رواه البخاري (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧١٢): «**لله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلاً وبه مهلكة، ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومـةً، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته حتى اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله، قال: أرجع إلى مكاني، فرجع فنام نومةً، ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده**».

٦- **التوبة توجب للتائب آثاراً عجيبة من المقامات التي لا تحصل إلا بالتوبة:** فتوجب له المحبة، والرقة، واللطف، وشكر الله، وحمده، والرضا عنه؛ فَرُتِّب له على ذلك أنواع من النعم لا يهتدي العبد لتفاصيلها، بل لا يزال يتقلب في بركتها وآثارها ما لم ينقضها أو يفسدها.

ومن ذلك حصول الذل، والانكسار، والخضوع لله ـ عز وجل ـ. =

. . . .

= وهذا أحب إلى الله من كثير من الأعمال الظاهرة وإن زادت في القدر والكميَّة على عبودية التوبة؛ فالذل، والانكسار روح العبودية، ولبُّها.

«مسائل في التوبة»

هناك مسائل في التوبة يحسن الوقوف عندها، والتنبيه عليها، ومن ذلك مايلي:

١ - أن باب التوبة مفتوح: فلقد فتح الله ـ بجوده وكرمه ـ باب التوبة؛ حيث أمر بها، وحض عليها، ووعد بقبولها سواء كانت من الكفار أو المشركين، أو المرتدين، أو الطغاة، أو الملاحدة، أو الظالمين، أو العصاة المقصرين.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله ـ عز وجل ـ»[١].

٢ - أن التوبة توبتان: واجبة ومستحبة؛ فالتوبة الواجبة تكون من فعل المحرمات، وترك الواجبات.

والتوبة المستحبة تكون من فعل المكروهات، وترك المستحبات.

فمن اقتصر على التوبة الأولى كان من الأبرار المقتصدين، ومن تاب التوبتين كان من السابقين المقربين، ومن لم يأت بالأولى كان من=

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٤/ ٦٠.

. . . .

= الظالمين: إما الكافرين، وإما الفاسقين[١].

٣- التوبة النصوح: وهي الخالصة، الصادقة، الناصحة، الخالية من الشوائب، والعلل.

وهي التي تكون من جميع الذنوب؛ فلا تدع ذنباً إلا تناولَتْهُ.

وهي التي يجمع صاحبُها العزمَ والصدقَ بكُلِّيته عليها؛ فلا يبقى عنده تردد، ولا تلوُّمٌ، ولا انتظار.

وهي التي تقع لمحض خوف الله، وخشيته، وحبِّه، ورجائه، والرغبة فيما لديه، والرهبة مما عنده.

فمن كانت هذه حاله غفرت جميع ذنوبه، وإذا حسنت توبته بدل الله سيئاته حسنات[٢].

٤- التوبة الخاصة: وهي التي يتوب صاحبها من بعض الذنوب مع إصراره على بعضها الآخر، كحال من يتوب من السرقة، وهو مصر على شرب الخمر وهكذا. . .

فهذه هي التوبة الخاصة، وحكمها أنها تصح فيما تاب منه ما لم يصرَّ على ذنب آخر من نوعه، شريطة أن يكون صاحبها باقياً على أصل الإيمان؛ فكل ذنب له توبة خاصة، وهي فرض منه لا تتعلق بالتوبة من غيره. =

(١) انظر جامع الرسائل لابن تيمية ١/ ٢٢٧.

(٢) انظر مدارج السالكين ١/ ٣١٦، وفتح الباري ١١/ ١٠٥.

. . . .

= وسر المسألة أن التوبة تتبعَّض كالمعصية، فيكون تائباً من وجه دون وجه[١].

٤- التخلص من الحقوق، والتحلل من المظالم: فالتوبة تكون من حق الله، وحق العباد؛ فحق الله ـ تعالى ـ يكفي في التوبة منه أن يتوب فيما بينه وبين الله على نحو ما تقدم.

أما حق غير الله فيحتاج إلى التحلل من المظالم، وأداء الحقوق إلى مستحقيها.

ولكن من لم يقْدر على الإيصال بعد بذله الوسعَ في ذلك فعفو الله مأمول؛ فإنه يضمن التبعات، ويبدل السيئات حسنات.

٥- توبة العاجز عن المعصية: كحال من عجز عن معصية من المعاصي بحيث يحال بينه وبينها، ويتعذر وقوعها منه، كحال من حكم عليه بالقصاص، وهو في السجن ينتظر التنفيذ، وكحال من حكم عليه بالسجن المؤبد؛ فهل لهذا توبة؟

الصحيح أن له توبة، وتكون بالندم، وتركِ التمني، والودادِ للمعصية.

٦- توبة القاتل المتعمد: الصحيح أنها تقبل إذا تاب إلى الله، وندم على فعله، وسلَّم نفسه لورثة القتيل؛ ليأخذوا حقهم إما بالقصاص، أو العفو، أو الدية. =

---

(١) انظر مدارج السالكين ١/ ٢٨٥.

. . . .

= ٧- **نقض التوبة:** وهي أن يتوب العبد ثم يرجع إلى الذنب؛ فيكون حينئذ ناقضاً للتوبة، ويلزمه أن يجددها.

والذي يرجع عليه إثمُ الذنب الجديد لا الماضي؛ لأن الماضي قد ارتفع بالتوبة.

٨- **رجوع الحسنات القديمة إلى التائب بعد التوبة:** فإذا كان للعبد حسنات، ثم عمل بعدها سيئات استغرقت حسناته القديمة، وأبطلتها، ثم تاب بعد ذلك توبة نصوحاً ـ عادت إليه حسناتهُ القديمةُ؛ لأن الإساءة المتَخَلِّلة بين طاعتين قد ارتفعت بالتوبة، وصارت كأنها لم تكن، فتلاقت الطاعتان، واجتمعتا[1].

٩- **إرجاع التوبةِ العبدَ إلى حاله الحسنة قبل معصيته:** فقد يكون للعبد حال، أو مقام مع ربه، ثم ينزل عنه بسبب ذنب ارتكبه، ثم يتوب بعد ذلك؛ فهل يعود بعد التوبة إلى مثل ما كان؟ أو لا يعود؟ أو يعود إلى أنقص من رتبته؟ أو يعود خيراً مما كان؟

والجواب أن من التائبين من يعود إلى مثل حاله، ومنهم من يعود إلى أكمل منها، ومنهم من يعود إلى أنقص مما كان؛ فإذا كان بعد التوبة خيراً مما كان قبل الخطيئة، وأشد حذراً، وأعظم تشميراً، وأعظم ذُلّاً وخشية وإنابة ـ عاد إلى أرفع مما كان. =

---

(١) انظر مدارج السالكين ١/٢٩٣، وفتح الباري لابن رجب ١/ ١٦٠-١٦١.

. . . .

= وإذا كان قبل الخطيئة أكملَ في هذه الأمور، ولم يعد بعد التوبة إليها ـ عاد أنقص مما كان عليه.

وإذا كان بعد التوبة مثل ما كان قبل الخطيئة رجع إلى منزلته.

وهذا ما رجحه شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ[1].

«من أخطاء الناس في التوبة»

هناك أخطاء يقع فيها بعض الناس في هذا الباب، ومنها على سبيل الإجمال ما يلي:

١- **تأجيل التوبة**: فيجب على العبد أن يبادر إلى التوبة من ذنوبه، وأن يتوب من تأجيل توبته.

٢- **الغفلة عن التوبة مما لا يعلمه العبد من ذنوبه**: فهناك ذنوب خفية، وهناك ذنوب يجهل العبد أنها ذنوب.

ولا ينجي من ذلك إلا توبة عامة مما يعلمه العبد من ذنوبه، ومما لا يعلمه.

قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل»**.

فقال أبو بكر: فكيف الخلاص منه يا رسول الله؟ =

---

(١) انظر طريق الهجرتين لابن القيم ص٤٠٧.

. . . .

= قال: «أن تقول: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم»[١].

فهذا طلب الاستغفار مما يعلم العبد أنه ذنب، ومما لا يعلم أنه ذنب.

٣- ترك التوبة مخافة الرجوع للذنب.

٤- ترك التوبة؛ خوفاً من لمز الناس، أو سقوط المنزلة، أو ذهاب الجاه، والشهرة.

٥- التمادي في الذنوب؛ اعتماداً على سعة رحمة الله.

٦- الاغترار بإمهال الله للمسيئين.

٧- اليأس من رحمة الله.

فكل ما مضى من أحكام التوبة، ومسائلها إنما هو عرض مجمل، وإذا أردت المزيد والتفصيل فارجع إلى كتاب: التوبة وظيفة العمر، وكتاب: الطريق إلى التوبة، وهما للكاتب.

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (٣٧).

والثاني[١]: الاستغفار[٢] من غير توبة[٣]؛ فإن الله ـ تعالى ـ قد يغفر له إجابة لدعائه[٤] وإن لم يتب.

١- الثاني: أي من موانع إنفاذ الوعيد، وهو الاستغفار، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

٢- الاستغفار: أصل هذه المادة: الغين، والفاء، والراء: غفر. والألف، والسين، والتاء: للطلب، مثل: استعان: طلب الإعانة، واستعاذ: طلب الإعاذة، كذلك استغفر: طلب المغفرة.

قال الراغب الأصفهاني في معجم مفردات ألفاظ القرآن ص٣٧٤ في مادة (غفر): «الغفر: إلباس ما يصونه عن الدنس، ومنه قيل: اغفر ثوبك في الوعاء، واصبغ ثوبك فإنه أغفر للوسخ.

والغفران، والمغفرة من الله هو أن يصون العبدَ من أن يمسَّه العذاب، قال: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ و﴿مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

إلى أن قال: «والاستغفار: طَلَبُ ذلك بالمقال والفعال».

وقال ـ رحمه الله ـ ص٣٧٥: «وقيل: اغفروا هذا الأمر بِغَفْرته: أي استروه بما يجب أن يُستَر به، والمِغْفَر: بنصة الحديد» ا.هـ.

وقال ابن منظور في لسان العرب ٢٥/٥: «وأصل الغَفْر: الستر والتغطية».

وقال: «وكل شيء سترته فقد غفرته، ومنه قيل للذي يكون تحت بيضة الحديد على الرأس: مِغْفَر، وتقول العرب: اصبغ ثوبك بالسواد؛ فهو أغفر لوسخه: أي أحمل له، وأغطى له». =

. . . .

= وقال: «والغَفْر والمغفرة: التغطية على الذنوب، والعفو عنها.

وقال ابن رجب ـ رحمه الله ـ في جامع العلوم ٢/ ٤٠٧: «الاستغفار طلب المغفرة، وهي وقاية شر الذنوب مع سترها».

٣- قوله: **«من غير توبة»**: أي من غير أن يتوب المستغفر، أي أنه يستغفر مع إصراره على الذنب.

٤- قوله: **«فإن الله ـ تعالى ـ قد يغفر له إجابة لدعائه وإن لم يتب»** أي أنه قد يزول عنه موجب الذنوب، وهو العذاب بالاستغفار وإن كان صاحبه مصراً بقلبه؛ فالاستغفار دعاء كغيره من الأدعية، والدعاء قد يجاب إذا توافرت أسبابه، وقد لا يجاب إذا لم تتوافر؛ فلا يلزم ـ إذاً ـ أن يقترن الاستغفار بالتوبة وترك الإصرار؛ فالاستغفار مانع مستقل، والتوبة كذلك.

والأدلة على ذلك كثيرة، وسيأتي ذكر لبعضها، ومنها ما جاء عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: «سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: **«قال الله ـ تعالى ـ: يا ابن آدم! إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم! لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم لو أنك أتيتني بقُراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة»** رواه الترمذي (٣٥٠) وقال: حديث حسن.

قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ في شرح هذا الحديث في جامع=

. . . .

= العلوم والحكم ٢/ ٤٠٧: «السبب الثاني للمغفرة: الاستغفار ولو عظمت الذنوب، وبلغت[1] الكثرة عنان السماء، وهو السحاب، وقيل: ما انتهى إليه البصر منها».

وقال: ٢/ ٤٠٨: «ومجرد قول القائل: «اللهم اغفر لي» طلب منه للمغفرة، ودعاء بها؛ فيكون حكمه كحكم سائر الدعاء؛ فإن شاء أجابه، وغفر لصاحبه لاسيما إذا خرج عن قلب منكسر بالذنب، أو صادف ساعة من ساعات الإجابة كالأسحار، وأدبار الصلوات» أ. هـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في مجموع الفتاوى ٧/ ٤٨٨-٤٨٩ في معرض حديث له عن موانع إنفاذ الوعيد العشرة: «السبب الثاني: الاستغفار كما في الصحيحين عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: **«أذنب عبد ذنباً فقال: أي ربِّ! أذنبت ذنباً فاغفر لي، فقال: علم عبدي أن له ربّاً يغفر الذنب، ويأخذ به قد غفرت لعبدي، ثم أذنب ذنباً آخر، فقال: أي ربِّ! أذنبت ذنباً آخر؛ فاغفره لي؛ فقال ربُّه: علم عبدي أن له ربّاً يغفر الذنب، ويأخذ به؛ قد غفرت لعبدي؛ فليفعل ما شاء، قال ذلك في الثالثة، أو الرابعة»**.

وفي صحيح مسلم عنه أنه قال: **«لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون، ثم يستغفرون، فيغفر لهم»**. =

(١) هكذا في الأصل، ولعلها: في الكثرة.

. . . .

= وقد يقال على هذا الوجه: الاستغفار هو مع التوبة كما جاء في حديث: «**ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم مائة مرة**».

وقد يقال: بل الاستغفار بدون التوبة ممكن واقع، وبَسْط هذا له موضع آخر؛ فإن هذا الاستغفار إذا كان مع التوبة مما يحكم به ـ عامٌّ في كل تائب.

وإن لم يكن مع التوبة فيكون في حقِّ بعض المستغفرين الذين يحصل لهم عند الاستغفار من الخشية، والإنابة ما يمحو الذنوب كما في حديث البطاقة بأن قول: لا إله إلا الله ثقلت بتلك السيئات لما قالها بنوع من الصدق والإخلاص الذي يمحو السيئات.

وكما غفر للبغي بسقي الكلب لما حصل في قلبها إذ ذاك من الإيمان، وأمثال ذلك كثير» ا.هـ

فإذا اجتمعت التوبة، والاستغفار فهو الكمال[1].

١- قوله: «فإذا اجتمعت التوبة، والاستغفار فهو الكمال».

أي أنه إذا حصل أن يتوب العبد، ويقلع عن الذنوب بقلبه وجوارحه، ويستغفر ربه بلسانه دون إصرار على المعاصي فذلك هو العمل الذي جاء على وجه التمام، وهو الكمال الذي يبلغ به العبد غاية السعادة والفلاح، وبه يدرك التوفيق، والقرب من الرب.

ومن هنا يتبين لنا أن التوبة والاستغفار ليسا بمتلازمين على كل حال؛ إذ قد يوجد أحدهما دون الآخر، كما أن بينهما فروقاً يتميز بها كل واحد منهما عن الآخر، كما سيبين من خلال الأسطر التالية:

«فروق بين التوبة والاستغفار»

من خلال التتبع والاستقراء يتبين أن هناك فروقاً بين التوبة والاستغفار، ومن ذلك مايلي:

١- يختلفان في أصل المادة؛ فمادة التوبة: تَوَب، ومادة الاستغفار: غفر ـ كما مر ـ.

٢- يختلفان في التعريف ـ كما مر ـ.

٣- الاستغفار قد يكون مع الإصرار على الذنب، أما التوبة فلا تكون إلا بالإقلاع، وترك الإصرار.

٤- التوبة تقبل، وتمحى بها الذنوب، وقد تبدل حسنات إذا كانت التوبة حسنةً نصوحاً.

. . . .

= أما الاستغفار فهو مجرد دعاء كسائر الأدعية قد يقبل وقد لا يقبل، قال ـ تعالى ـ: ﴿غافر الذنب وقابل التوب﴾ [غافر: ٣].

٥- الاستغفار يقوم به الإنسان عن نفسه، وعن غيره من إخوانه المسلمين، كما قال ـ تعالى ـ عن نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [نوح: ٢٨].

أما التوبة فلا يقوم بها إلا الإنسان المريد لها؛ إذ لا يصح أن يتوب أحد عن أحد.

٦- أنه جاء الأمر من الله ـ عز وجل ـ بأن يستغفر المؤمن لذنبه، ويستغفر للمؤمنين والمؤمنات، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩].

ولم يجيء الأمر بأن يتوب عن أحد من الناس.

٧- أن المسلم يؤجر إذا استغفر للمؤمنين والمؤمنات، فيكون له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة إذا هو استغفر لهم.

قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**من استغفر للمؤمنين والمؤمنات كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة**»[1].

أما التوبة فلا يتأتى فيها مثل ذلك؛ لما سبق من أنه لا يتوب أحد عن أحد.

=

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢١٠، وقال: «إسناده جيد» وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٢٦).

. . . .

= ٨- أن الملائكة - عليهم السلام - يستغفرون للذين آمنوا، ولم يأتِ أنهم يتوبون عنهم؛ لما تقرر آنفاً.

قال - تعالى -: ﴿الذينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾ [غافر: ٧].

٩- أن التوبة تنتهي بغرغرة الإنسان، أي إذا كان في سياق الموت، فلا يمكنه التوبة في ذلك الوقت، ولا بعده.

أما الاستغفار فقد يُستَغفر للإنسان إذا كان حياً، أو في سياق الموت، أو بعد الموت.

١٠- أن الاستغفار له أوقات مطلقة، ومقيدة؛ فالمطلق أن يستغفر الإنسان في كل وقت.

والمقيد كالاستغفار في الجلوس بين السجدتين، وكالاستغفار بعد التسليم من الصلاة، وكالاستغفار بعد الإفاضة من الحج، وكالاستغفار بالأسحار.

أما التوبة فتشرع في كل وقت، بل لا يجوز تأخيرها، ولا التسويف فيها، ما دام الإنسان لم يغرغر، والشمس لم تطلع من مغربها.

١١- أنهما إذا افترقا اجتمعا؛ فإذا ذكر الاستغفار وحده في سياق دخلت معه التوبة، وإذا ذكرت وحدها شملت الاستغفار؛ فالتوبة تتضمن الاستغفار، والاستغفار يتضمن التوبة؛ فكل واحد منهما يدخل في=

. . . .

= مسمى الآخر عند الإطلاق، أي إذا ذكر كل واحد منهما على حدة.

١٢- وإذا اجتمعا افترقا؛ فعند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣] يكون الاستغفار طلبَ وقاية شر ما مضى، وتكون التوبة: الرجوع، وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل.

١٣- وعند اقترانهما ـ أيضاً ـ يكون الاستغفار عبارةً عن طلب المغفرة باللسان، والتوبة عبارة عن الإقلاع عن الذنوب بالقلب، والجوارح.

١٤- الاستغفار يكون بصيغة طلب، كقولك: «رب اغفر لي» والتوبة طلب، وعزم، وندم، وفعل، وترك.

١٥- التوبة قد يترتب عليها تخلص من حقوق، وتحلل من مظالم. أما الاستغفار فهو مجرد دعاء كسائر الأدعية التي يدعو بها الإنسان لنفسه، أو لغيره.

١٦- التوبة تكون من الله، وتكون من العبد، والله ـ عز وجل ـ تواب، والعبد تواب؛ والله ـ عز وجل ـ يتوب، والعبد يتوب؛ فإذا كانت التوبة من الله عدِّيت بـ: على، وإذا كانت من العبد إلى الله عدِّيت بـ: إلى؛ كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ١٧]، وقال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [النور: ٣١].

أما الاستغفار فلا يقال فيه كذلك، بل يقال: إن الله غافر، والعبد مستغفر. =

. . . .

= ١٧- التوبة لابد أن تكون بقصد ونية، أما الاستغفار فقد يُبْذَل للإنسان دون قصده، ودون نيته، بل ربما دون علمه.

١٨- أن الله ـ عز وجل ـ يفرح بتوبة التائب، كما في حديث: «**لله أفرح بتوبة العبد**» الحديث.

ولم يرد أنه ـ عز وجل ـ يفرح بالاستغفار بل ولا غيره من سائر العبوديات إلا التوبة.

وليس معنى ذلك أن تلك العبوديات ليست محبوبة لله، وإنما المقصود أن الفرح خاص بالتوبة.

١٩- أن التوبة تقبل، بل وتطلب من كل أحد مؤمناً كان أم كافراً، براً أم فاجراً.

أما الاستغفار فلا يقبل إلا من المؤمن، وللمؤمن؛ فلا يقبل من الكافر، ولا يجوز أن يستغفر للكافر، قال ـ تعالى ـ: ﴿**اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠)**﴾[التوبة: ٨].

وقال: ﴿**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَىٰ**﴾ [التوبة: ١١٣].

٢٠- أن التوبة تكون من فعل محرمٍ أو مكروهٍ، أو تركِ واجبٍ أو مستحبٍّ.

أما الاستغفار فيكون عن ذلك، وقد لا يكون عن شيء من ذلك، بل قد يقوله الإنسان كذكرٍ مجردٍ، يرجو به الدرجات والحسنات. =

. . . .

= **«أفضل صيغ الاستغفار»**(١)

أفضل صيغ الاستغفار أن يبدأ العبد بالثناء على ربه، ثم يثنّي بالاعتراف بذنبه، ثم يسأل الله المغفرة كما في حديث شداد بن أوس في صحيح البخاري (٦٣٠٦) عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: **«سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك، ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء بذنبي؛ فاغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»**(٢).

«من صيغ الاستغفار»

هناك صيغ أخرى للاستغفار غير ما ذكر، ومن تلك الصيغ مايلي:

١- **«اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت؛ فاغفر لي مغفرةً من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»**(٣).

٢- **«أستغفر الله الحي القيوم وأتوب إليه»**.

وقد روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن من قاله غفر له وإن كان فر من الزحف(٤). =

(١ ، ٢) انظر جامع العلوم والحكم ٢/ ٤١٢-٤١٥.

(٣) رواه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥).

(٤) رواه أبو داود (١٥١٧)، والترمذي (٣٥٨٨) وجوَّد إسناده الحافظ المنذري في الترغيب، والترهيب ٢/ ٤٧٠.

. . . .

= ٣- وفي كتاب «عمل اليوم والليلة» للنسائي (٤٦١) عن خباب ابن الأرت قال: قلت: يا رسول الله كيف نستغفر؟ قال: «**قل: اللهم اغفر لنا، وارحمنا، وتب علينا؛ إنك أنت التواب الرحيم**».

٤- وفيه ـ أيضاً ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «ما رأيت أحداً أكثر أن يقول: أستغفر الله وأتوب إليه من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ».

٥- وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: «إنْ كنا لنعدُّ لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في المجلس الواحد مائة مرة يقول: «**رب اغفر لي وتب علي، إنك أنت التواب الرحيم**»[1].

٦- أستغفر الله، وهذه الصيغة أخصر الصيغ، وأدلتها كثيرة.

٧- رب اغفر لي.

«من فضائل الاستغفار»

١- أنه طاعة لله ـ عز وجل ـ.

٢-٣-٤-٥- أنه سبب لمغفرة الذنوب، ونزول الأمطار، والإمداد بالأموال والبنين، وحصول الجنات والأنهار، قال ـ تعالى ـ: ﴿**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ**=

(١) رواه أحمد ٢/ ٢١ و ٦٧، وأبو داود (١٥١٦) والترمذي (٣٤٣٤)، وابن ماجه (٣٨١٢) والبخاري في الأدب المفرد (٦١٨) وصححه ابن حبان (٩٢٧).

. . . .

= وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾ [نوح: ١٠ - ١٣].

٦- زيادة القوة: ﴿ ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴾ [هود: ٥٢].

٧- المتاع الحسن: ﴿ يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ﴾ [هود: ٣].

٨- دفع البلاء: ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ [الأنفال: ٣٣].

٩- حصول الرحمة: ﴿ لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون ﴾ [النمل: ٤٦].

«أقوال في الاستغفار»[1]

١- قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً».

٢- وقال أبو المنهال ـ رحمه الله ـ : «ما جاور عبدٌ في قبره من جارٍ أحبَّ إليه من استغفار كثير».

٣- قال قتادة ـ رحمه الله ـ: «إن هذا القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم؛ فأما داؤكم فالذنوب، وأما دواؤكم فالاستغفار».

٤- وقال بعضهم: «إنما معوَّل المذنبين البكاء والاستغفار؛ فمن أهمته ذنوبه أكثر لها الاستغفار».

---

(١) انظر جامع العلوم والحكم ٢/ ٤١٥.

الثالث[١]: الأعمال الصالحة[٢] المُكَفِّرة[٣]: إما الكفارات[٤] المقدَّرة[٥]

١- «**الثالث**»: أي من موانع إنفاذ الوعيد، ومما يزول به موجب الذنوب؛ وهذا المانع هو الأعمال الصالحة المكفرة، ويعبر عنها شيخ الإسلام في بعض المواضع من كتبه بـ: الحسنات الماحية، كما سيأتي ذكر لشيء من ذلك.

٢- قوله: «**الأعمال الصالحة**»: هي القربات الشرعية الصادرة من المكلفين.

٣- قوله: «**المكفرة**»: اسم فاعل من الفعل كفَّر، وأصل المادة: كَفَر، والكُفْرُ في اللغة ستر الشيء، وسمي الليل بـ: الكافر؛ لستره الأشخاص. وسمي الزَّارع كافراً؛ لستره البذر في الأرض.

والكفارة: ما يغطي الإثم، ومنه كفارة اليمين كما في قوله ـ تعالى ـ ﴿ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

وكذلك كفارة غيره من الآثام ككفارة القتل، والظهار.

والتكفير: ستر الإثم، وتغطيته حتى يصير بمنزلة ما لم يعمل، ويصح أن يكون إزالة الكفر.

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [المائدة: ٦٥].

وإلى هذا المعنى أشار بقوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤].

وقال: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥]. =

. . . .

= وقال: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ [الزمر: ٣٥][١].

قال ابن منظور في لسان العرب ٥/١٤٨: «والكفارة: ما كفِّر به من صدقة، أو صوم، أو نحو ذلك.

قال بعضهم: كأنه غُطِّي عليه بالكفارة.

وتكفير اليمين: فعل ما يجب بالحنث فيها، والاسم كفارة.

والتكفير في المعاصي: كالإحباط في الثواب، وسميت الكفارات كفارات لأنها تكفِّر الذنوب مثل كفارة الأيمان، وكفارة الظهار، والقتل الخطأ».

٤- قوله: «**الكفارات**»: جمع كفارة، وقد مر تعريفها، ومما قيل فيها ـ أيضاً ـ: أنها عبارة عن الفعلة، والخصلة التي من شأنها أن تُكفِّر الخطيئة، أي تمحوها، وتسترها، وهي فعَّالة للمبالغة كقتالة، وضرابة[٢].

٥- قوله: «**المقدَّرة**»: اسم مفعول من التقدير، والتقدير جعل الشيء على مقدار مخصوص على وجه مخصوص حسبما تقتضيه الحكمة.

والكفارات المقدرة: هي الأفعال المقدرة شرعاً على مقدار مخصوص ووجه مخصوص، لتكفير الخطايا، والآثام.

---

(١) انظر معجم مفردات ألفاظ القرآن ص٤٥١.

(٢) انظر لسان العرب ٥/١٤٩.

كما يكفر المجامع[١] في رمضان، والمُظاهر[٢]، والمرتكب[٣] لبعض محظورات الحج، أو تارك بعض واجباته[٤]، أو قاتل الصيد[٥] بالكفارات المقدرة[٦].

١- أي المجامع لزوجته في نهار رمضان.

٢- «**والمظاهر**»: من الظهار وهو أن يقول لامرأته: أنت عليَّ كظهر أمي، يقال: ظاهر من امرأته[١].

٣- **المرتكب لبعض محظورات الحج**: أي الواقع في ممنوع من ممنوعات الحج وهو متلبس به، كالجماع، ومس الطيب، ونحو ذلك.

٤- أي الذي ترك واجباً من واجبات الحج، كالمبيت بالمزدلفة ونحو ذلك.

٥- أي وهو متلبس بإحرامه.

٦- أي المقدرة شرعاً؛ فكفارة المجامع في نهار رمضان عتق رقبة، فإن لم يستطع فصيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع أطعم ستين مسكيناً، وكفارة المظاهر ـ كما في سورة المجادلة ـ عتق رقبة مؤمنة، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً، ولا يمسها حتى يُكفِّر.

والمرتكب لبعض محظورات الحج يختلف باختلاف المحظور، فإن جامع زوجته وهو محرم فسد حجه، ولزمه ذبح بدنة، وإن لبس=

(١) انظر معجم مفردات ألفاظ القرآن ص٣٢٨.

. . . .

= مخيطاً، أو مس طيباً فعليه دم، أي ذبح شاة أو سبع بدنة، أو سُبع بقرة وهكذا تارك الواجب.

وقاتل الصيد: جزاؤه مثل ما قتل من النعم وهكذا. . .

وهي[١] أربعة أجناس[٢]: هدي[٣]، وعتق[٤]، وصدقة[٥]، وصيام[٦].

١- قوله: «**وهي**»: يعني الكفارات المقدرة شرعاً التي يزول بها موجب الذنوب.

٢- قوله: «**أجناس**»: جمع جنس، والجنس هو الضرب من كل شيء، وهو أعم من النوع[١].

٣- قوله: «**هدي**»: الهدي مختص بما يهدى إلى البيت العتيق من بهيمة الأنعام: الإبل، والبقر، والغنم.

قال الأخفش: والواحدة هديَّة، قال: ويقال للأنثى هديٌ كأنه مصدر وصف به.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وقال: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥]، وقال: ﴿وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ﴾ [المائدة: ٢]، وقال: ﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا﴾ [الفتح: ٢٥][٢].

وقال ابن منظور في اللسان ١٥/ ٣٥٩: «قال الليث وغيره: ما يهدى إلى مكة من النعم، وغيره، من مال، أو متاع فهو هديٌ، وهديٌّ».

٤- قوله: «**عتق**»: العتق خلاف الرق، وهو الحرية، والمقصود به إعتاق الرقبةِ كفارةً عن عمل. =

---

(١) انظر لسان العرب ٦/ ٤٣.

(٢) انظر معجم مفردات ألفاظ القرآن ص٥٣٥.

. . . .

= ٥- قوله: «**صدقة**»: الصدقة ما يخرجه الإنسان من ماله على وجه القربة، وقد تكون الصدقة واجبة كالزكاة، وقد تكون مستحبة كصدقة التطوع، وقد تكون كفارة فتدخل في الواجب.

٦- قوله: «**صيام**»: الصيام هو الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس تقرباً لله ـ عز وجل ـ.

وإما الكفارات[١] المطلقة كما قال حذيفة لعمر: فتنة الرجل في أهله، وماله، وولده[٢] - يكفرها الصلاة، والصيام، والصدقة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وقد دل على ذلك القرآنُ، والأحاديثُ الصحاحُ في التكفير بالصلوات الخمس، والجمعة، والصيام، والحج، وسائر الأعمال التي يقال فيها: من قال: كذا، وعمل كذا غفر له، أو غفر له ما تقدم من ذنبه.

وهي كثيرة لمن تلقاها من السنن، خصوصاً ما صُنِّف في[٣] فضائل الأعمال[٤].

١- قوله: «وإما الكفارات المطلقة»: هذا عطف على قوله «إما الكفارات المقدرة...».

ويقصد بقوله: «الكفارات المطلقة»: الأعمال الصالحة المكفرة، أو الحسنات الماحية التي تعد من موانع إنفاذ الوعيد.

والكفارات المطلقة: هي التي تكفر عموم الخطايا دون أن تقترن بخطيئة معينة، ودون أن تكون كفارة على مقدار مخصوص على وجه مخصوص.

٢- معنى فتنة الرجل في أهله وماله وولده: أي اشتغال باله بهذه الأمور عن طاعة الله.

٣- في مجموعة الرسائل (من) بدلاً من (في).

٤- ما مضى من الحديث عن الكفارات المطلقة ذكره شيخ الإسلام=

. . . .

= في مجموع الفتاوى ٧/ ٤٨٩ بشيء من التفصيل عندما تحدث عن الأسباب التي تزول بها عقوبة الذنوب، فقال ـ رحمه الله ـ: «السبب الثالث: الحسنات الماحية: كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]».

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «إن الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر».

وقال: «من حج هذا البيت، فلم يرفث، ولم يفسق ـ رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه».

وقال: «فتنة الرجل في أهله، وماله، وولده تكفرها الصلاة، والصيام، والصدقة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

وقال: «من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منها عضواً منه من النار، حتى فرجه بفرجه».

وهذه الأحاديث وأمثالها في الصحاح.

وقال: «الصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفي الماء النار، والحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» اـ هـ.

«مسألة: هل الحسنات والأعمال الصالحة تكفر الصغائر أو الكبائر؟»

والجواب: أن هذه المسألة قد اختلف فيها على قولين:

قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ: في جامع العلوم ١/ ٤٢٥-٤٢٦:

«وقد اختلف في مسألتين: إحداهما: هل تكفر الأعمال الصالحة الكبائر=

. . . .

= والصغائر؟ أم لا تكفر سوى الصغائر؟

فمنهم قال: لا تكفِّر سوى الصغائر، وقد روي هذا عن عطاء، وغيره من السلف في الوضوء أنه يكفر الصغائر، وقال سلمان الفارسي في الوضوء: إنه يكفر الجراحات الصِّغار، والمشي إلى المساجد يكفر أكبر من ذلك، والصلاة تكفر أكبر من ذلك، خرجه محمد بن نصر المروزي.

وأما الكبائر فلابد لها من التوبة؛ لأن الله أمر العباد بالتوبة، وجعل من لم يتب ظالماً، واتفقت الأمة على أن التوبة فرض، والفرائض لا تؤدى إلا بنية وقصد، ولو كانت الكبائر تقع مكفرة بالوضوء، والصلاة، وأداء بقية أركان الإسلام ـ لم يحتج إلى التوبة، وهذا باطل بالإجماع».

ثم ساق ـ رحمه الله ـ جملة من الأقوال والآثار في تأييد هذا القول.

وانتقل بعد ذلك إلى القول الثاني في هذه المسألة، فقال: ٢/ ٤٢٨ «وذهب قوم من أهل الحديث، وغيرهم إلى أن هذه الأعمال تكفر الكبائر ومنهم ابن حزم الظاهري، وإياه عنى ابن عبدالبر في كتاب «التمهيد» بالرد عليه، وقال: قد كنت أرغب بنفسي عن الكلام في مثل هذا الباب لولا قول ذلك القائل، وخشيت أن يغتر به جاهل، فينهمك في الموبقات؛ اتكالاً على أنها تكفرها الصلوات دون الندم، والاستغفار والتوبة» ا.هـ

ثم قال ابن رجب ٢/ ٤٢٩ ـ رحمه الله ـ: «والصحيح قول الجمهور: إن الكبائر لا تكفَّر بدون التوبة؛ لأن التوبة فرض على العباد». =

. . . .

= ثم ساق جملة من الآثار التي تؤيد هذا القول.

ثم قال ٢/ ٤٣٨: «والأظهر ـ والله أعلم ـ في هذه المسألة ـ أعني مسألة تكفير الكبائر بالأعمال ـ أنه إن أريد أن الكبائر تمحى بمجرد الإتيان بالفرائض، وتقع الكبائر مُكفَّرة بذلك كما تكفر الصغائر باجتناب الكبائر ـ فهذا باطل.

وإن أريد أنه يوازَن يوم القيامة بين الكبائر وبين بعض الأعمال، فتمحى الكبيرة بما يقابلها من العمل، ويسقط العمل؛ فلا يبقى له ثواب فهذا يقع».

إلى أن قال ٢/ ٤٤٠: «وظاهر هذا أنه تقع المقاصَّةُ بين الحسنات والسيئات، ثم تسقط الحسنات المقابلة للسيئات، وينظر إلى ما يَفْضُل بعد المقاصة.

وهذا يوافق قول من قال بأن من رجحت حسناته على سيئاته بحسنة واحدة أثيب بتلك الحسنة خاصة، وسقط باقي حسناته في مقابل سيئاته، كأنها لم تكن.

وهذا في الكبائر، أما الصغائر فإنها قد تمحى بالأعمال الصالحة مع بقاء ثوابها» ا.هـ

هذا وقد رجح شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ أن الحسنات الماحية تكفر الكبائر بدون التوبة.

قال ـ رحمه الله ـ في مجموع الفتاوى ٧/ ٤٨٩ بعد أن ذكر السبب=

. . . .

= الثالث من الأسباب التي تزول بها عن العبد عقوبة الذنوب، وهو الحسنات الماحية قال: «وسؤالهم على هذا الوجه أن يقولوا: الحسنات إنما تكفر الصغائر فقط.

أما الكبائر فلا تغفر إلا بالتوبة كما جاء في بعض الأحاديث: «**ما اجتنبت الكبائر**» فيجاب عن هذا بوجوه» ا.هـ

ثم ذكر ـ رحمه الله ـ خمس وجوه بين من خلالها أن الحسنات تكفر الكبائر.

ومما قاله ـ رحمه الله ـ من الوجوه التـي أيَّد بها كلامه مايلي: «**أحدها**: أن هذا الشرط ـ يعني ما اجتنبت الكبائر ـ جاء في الفرائض، كالصلوات الخمس، والجمعة، وصيام شهر رمضان، وذلك أن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿**إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ**﴾ [النساء: ٣١].

فالفرائض مع ترك الكبائر مقتضية لتكفير السيئات، وأما الأعمال الزائدة من التطوعات فلابد أن يكون لها ثواب آخر؛ فإن الله ـ سبحانه ـ يقول: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨].

الثاني: أنه قد جاء التصريح في كثير من الأحاديث بأن المغفرة قد تكون مع الكبائر، كما في قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**غفر له وإن كان فر من الزحف**». =

. . . .

= وفي السنن: «أتينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في صاحب لنا قد أوجب، فقال: **«أعتقوا عنه يعتقِ الله عنه بكل عضو عضواً من النار»**.

وفي الصحيحين من حديث أبي ذر: **«وإن زنا وإن سرق»**.

الثالث: أن قوله لأهل بدر ونحوهم: **«اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»** إن حُمِل على الصغائر، أو على المغفرة مع التوبة لم يكن فرق بينهم وبين غيرهم؛ فكما لا يجوز حمل الحديث على الكفر؛ لما قد علم أن الكفر لا يغفر إلا بالتوبة لا يجوز حمله على الصغائر المُكَفَّرةِ باجتناب الكبائر».

ثم ذكر ـ رحمه الله ـ الوجهين الرابع، والخامس، وأطال فيهما.

والمقام لا يتسع لإيرادهما، وإنما المقصود هو الوقوف على رأي شيخ الإسلام في هذه المسألة.

«مسألة مهمة في تكفير الأعمال الصالحة للسيئات، ومنها الكبائر»

وبعد أن تبين ـ من خلال ما مضى ـ بعض أقوال أهل العلم في هذه المسألة، وأن بعضهم ـ ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية ـ يرى أن الحسنات الماحية، والأعمال الصالحة تكفر الكبائر بدون التوبة ـ فإنه يحسن الوقوف على مسألة مهمة في هذا الباب تتبين من خلال التساؤل الآتي:

هل الأعمال الصالحة تقوى على تكفير الكبائر بإطلاق؟ =

. . . .

= والجواب: أن الأعمال الصالحة قد لا تقوى على تكفير الكبائر؛ ذلك أن الأعمال إنما تتفاضل بحسب إحسان العمل، وبحسب ما يقوم بالقلب من حقائق الإيمان؛ فتكفير العمل للسيئات بحسب كماله، ونقصانه.

ولا ريب أن الكبائر والذنوب عموماً تضعف القلب، وتعطل سيره إلى الله والدار الآخرة، وعلى هذا فقد تكون الأعمال الصالحة ناقصة، ضعيفة لا تقاوم الكبائر؛ ولا تقوى على تكفيرها.

ولا يرد على هذا أن بعض النصوص صرحت بأن هناك أعمالاً غفر الله لأصحابها بسبب عمل صالح، كما في حديث البغي، وحديث صاحب البطاقة؛ ذلك أن الحالات الخاصة لا تعمم ولا تكون قاعدة مطردة بكل حال؛ فليس كل امرأة بغي تسقي كلباً يغفر لها، وليس كل من قال: «لا إله إلا الله» تنفعه كما نفعت صاحب البطاقة.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في الوابل الصيب ص١٩-٢١: «وينبغي أن يعلم أن سائر الأعمال تجري هذا المجرى؛ فتفاضل الأعمال عند الله ـ تعالى ـ بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص، والمحبة، وتوابعها.

وهذا العمل الكامل هو الذي يكفِّر السيئات تكفيراً كاملاً، والناقص بحسبه.

وبهاتين القاعدتين تزول إشكالات كثيرة، وهما: =

. . . .

= **تفاضل الأعمال بتفاضل ما في القلوب من حقائق الإيمان، وتكفير العمل للسيئات بحسب كماله، ونقصانه.**

وبهذا يزول الإشكال الذي يورده من نَقَصَ حظُّه من هذا الباب على الحديث الذي فيه: **«أن صوم يوم عرفة يُكفِّر سنتين، ويوم عاشوراء يكفِّر سنة»**.

قالوا: فإذا كان دأبه دائماً أنه يصوم يوم عرفة، فصامه، وصام يوم عاشوراء؛ فكيف يقع تكفير ثلاث سنين كل سنة؟

وأجاب بعضهم عن هذا بأن ما فَضُل عن التكفير ينال به الدرجات.

ويا لله العجب؛ فليت العبد إذا أتى بهذه المكفرات كلها أن تكفِّر عنه سيئاته باجتماع بعضها إلى بعض، والتكفير بهذه مشروط بشروط، موقوف على انتفاء موانع في العمل وخارجه؛ فإن علم العبد أنه جاء بالشروط كلها، وانتفت عنه الموانع كلها ـ فحينئذ يقع التكفير.

وأما عمل شملته الغفلة أو لأكثره، وفقد الإخلاص الذي هو روحه، ولم يوفّ حقه، ولم يقدرْه حق قدره ـ فأي شيء يكفر هذا؟ فإذا وثق العبد من عمله بأنه وفَّاه حقَّه الذي ينبغي له ظاهراً وباطناً، ولم يَعْرِضْ له مانعٌ يمنع تكفيره، ولا مبطل يحبطه ـ من عجب، أو رؤية نفسه فيه، أو يَمُنُّ به، أو يطلب من العباد تعظيمه، أو يستشرف بقلبه لمن يعظمه عليه، أو يعادي من لا يعظمه عليه، ويرى أنه قد بخسه حقَّه، وأنه قد استهان بحرمته ـ فهذا أي شيء يكفِّر ومحبطات الأعمال ومفسداتها=

. . . .

= أكثر من أن تحصر؟

وليس الشأن في العمل، إنما الشأن في حفظ العمل مما يفسده ويحبطه؛ فالرياء ـ وإن دقَّ ـ محبط للعمل، وهو أبواب كثيرة لا تحصر، وكونُ العملِ غيرَ مقيدٍ باتباع السنة ـ أيضاً ـ موجبٌ لكونه باطلاً، والمنُّ به على الله ـ تعالى ـ بقلبه مفسدٌ له، وكذلك المن بالصدقة، والمعروف، والبر، والإحسان، والصلة مفسدٌ لها».

إلى أن قال ـ رحمه الله ـ: «فمعرفة ما يفسد الأعمال في حال وقوعها، ويبطلها ويحبطها بعد وقوعها من أهم ما ينبغي أن يفتش عليه العبد، ويحرص على عمله، ويحذره» ا.هـ

وخلاصة القول أن على الإنسان أن يحرص على العمل الصالح، وعلى حفظه من محبطات الأعمال، ويحرص على البعد عن معاصي الله، وعلى التوبة مما وقع منه.

واعلم[١] أن العناية[٢] بهذا[٣] من أشد ما بالإنسان الحاجة إليه[٤].

١- قوله: «**واعلم**»: العلم ضد الجهل، أي كن عالماً.

٢- قوله: «**العناية**»: الاهتمام، والعناية بالشيء: الاهتمام به.

٣-قوله: «**بهذا**»: أي بشأن ما تقدم، من الوصية بالتقوى، وعظم تلك الوصية، وأنها أعظم وصية من أعظم موصٍ، وما يندرج تحتها من العناية بشأن معرفة ما يتقى، ومعرفة أثر الذنوب، ووجوب التخلص منها، وكيفية ذلك، ومعرفة ما جاء عن الله، ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولو على سبيل الإجمال.

٤- قوله: «**من أشد ما بالإنسان الحاجة إليه**»: أي أن الاهتمام بشأن ما مضى من أولى ما يحتاجه الإنسان، بل هو أولى وأهم ما يحتاج إليه؛ لأن تقوى الله، وعبادته، والتقرب إليه، والإقبال عليه، ومعرفة ما جاء عنه، وعن رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أوجب الواجبات، وأهم المهمات، وأعظم الأسباب الموصلة لسعادة الدنيا والآخرة.

وحاجة العبد إلى ذلك أعظم من حاجته إلى الطعام، والشراب، والنَّفَس.

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في مجموع الفتاوى ١/ ٢٤-٢٥: «واعلم أن فقر العبد إلى الله أن يعبده لا يشرك به شيئاً ـ ليس له نظير فيقاس عليه، لكن يشبه من بعض الوجوه حاجة الجسد إلى الطعام والشراب، وبينهما فروق كثيرة؛ فإن حقيقة العبد قلبُه وروحه، وهي لا صلاح لها إلا بذكره، وهي كادحة إليه كدحاً فملاقيته، ولابد لها من لقائه،=

. . . .

= ولا صلاح لها إلا بلقائه.

ولو حصل للعبد لذاتٌ، أو سرور بغير الله فلا يدوم ذلك بل ينتقل من نوع إلى نوع، ومن شخص إلى شخص، ويتنعم بهذا في وقت وفي بعض الأحوال.

وتارة يكون ذلك الذي يتنعم به والتذ ـ غير مُنَعِّمٍ ولا مُلْتذٍّ له، بل قد يؤذيه اتصاله به، ووجوده عنده، ويضره ذلك.

وأما إلهه فلابد له منه في كل وقت، وأينما كان فهو معه؛ ولهذا قال إمامنا الخليل ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**لا أحب الآفلين**».

وكان أعظم آية في القرآن الكريم ﴿**الله لا إله إلا هو الحي القيوم**﴾ اهـ.

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في زاد المعاد ١/ ٦٩-٧٠: «ومن ههنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول، وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر؛ فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا، ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيّب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا يُنال رضى الله البتة إلا على أيديهم؛ فالطَّيِّب من الأعمال، والأقوال، والأخلاق ليس إلا هديَهم، وما جاءوا به؛ فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم، وأعمالهم، وأخلاقهم توزن الأقوال، والأخلاق، والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال؛ فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة=

. . . .

= البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها؛ فأي ضرورة وحاجة فُرِضت فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير.

وما ظَنُّك بمن إذا غاب عنك هدْيُـهُ وما جاء به طرفة عين فَسَدَ قلبك، وصار كالحوت إذا فارق الماء، ووضع في المِقْلاة[1]؛ فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل كهذه الحال، بل أعظم، ولكن لا يحس بهذا إلا من قلبه حي، و:

ما لجرح بميِّت إيلامُ

وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيجب على كل من نصح نفسه، وأحب نجاتها، وسعادتها أن يعرف من هديه، وسيرته، وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به، ويدخل في عداد أتباعه، وشيعته، وحزبه.

والناس في هذا بين مستقلٍّ، ومستكثر، ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم» ا ـ هـ.

---

(١) هكذا في الأصل؛ ولعلها: القلاة.

فإن الإنسان[١] من حين يبلغ[٢] خصوصاً في هذه الأزمنة ونحوها من أزمنة الفترات[٣] التي تشبه الجاهلية من بعض الوجوه[٤]، فإن الإنسان الذي ينشأ بين أهل[٥] علم ودين قد يتلطخ[٦] من أمور الجاهلية بعدة أشياء[٧]؛ فكيف بغير هذا[٨]؟!.

١- قوله: «**فإن الإنسان...**»: هذا تعليل لما مضى في قوله: «**واعلم أن العناية بهذا...**».

٢- قوله: «**من حين يبلغ**» أي من حين يجري عليه قلم التكليف، ويبلغ سن الرشد، أو يظهر عليه إحدى علامات البلوغ.

٣- قوله «**الفترات**»: جمع فترة، وهي التي انقطعت فيها الرسالة، والفترة من الفتور، وهو ـ كما قال الراغب ص٣٨٤-٣٨٥ ـ: «سكون بعد حدة، ولين بعد شدة، وضعف بعد قوة».

والمقصود من الفترات في كلام شيخ الإسلام الأوقاتُ التي تضعف فيها السنة، ويقل العلم، وتخفت أنوار الرسالة، ويشيع الجهل، وتكثر البدع.

٤- قوله: «**التي تشبه الجاهلية من بعض الوجوه**»: أي التي تشبه ما كان عليه أهل الجاهلية من الجهل، والبعد عن الدين الحق.

٥- قوله: «**فإن الإنسان ينشأ بين أهل علم ودين**»: أي يعيش بين أبوين مسلمين عالمين بالله، أو يعيش في بيئة يشيع فيها العلم، والعبادة والسنة. =

. . . .

= ٦- قوله: «يتلطخ»: أي يتدنس، ويتلوث، ويتنجس، ويتقذر[١].

٧- قوله: «**من أمور الجاهلية بعدة أشياء**»: كالفخر بالأحساب، والطعن بالأنساب، والنياحة على الميت، ولطم الخدود، وشق الجيوب، وما هو أعظم من ذلك كالشرك في كافة صوره، وما إلى ذلك مما سيأتي بيان له فيما بعد.

٨- قوله: «**فكيف بغير هذا**»: أي كيف بغير هذا الذي نشأ بين أهل علم ودين، ممن نشأ في بيئة جهل، ودجل، وشرك، وخرافة، وبدعة؟ فإن تدنسه بأمور الجاهلية أشد، وأكثر.

وخلاصة الكلام السابق: أن الإنسان منذ بلوغه، وجريان قلم التكليف عليه في الأزمنة التي يشيع فيها الجهل، وتخفت فيها أنوار الرسالة، وتسود فيها البدع والأهواء ـ لابد أن يصيبه شيء من غبارها، فيتدنس بشيء من تلك البلايا، وإن كان ناشئاً في بيئة صالحة؛ فكيف به إذا نشأ في زمان، ومكان يعج بالدجل، والخرافة، والجهل، أو هو مع ذلك لم ينشأ بين أهل علم ودين؟

لاشك أنه سيتطبَّع بذلك، ويكون له نصيب غير منقوص من أمور الجاهلية، كما سيأتي زيادة بيان لذلك في الفقرات التالية.

---

(١) انظر اللسان ٣/ ٥١.

وفي الصحيحين[١] عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من حديث أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ: «لتتبعن[٢] سنن[٣] من كان قبلكم حذو[٤] القُذَّةِ[٥] بالقذة، حتى لو دخلوا[٦] جحر ضبٍّ لدخلتموه.

قالوا: يا رسول الله! اليهود، والنصارى؟

قال: فمن؟»[٧].

١- البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩)، وجملة «حذو القذة بالقذة» لم تخرج في الصحيحين، وإنما هي في المسند ٤/ ١٢٥.

٢- قوله: «لَتَتَّبِعُنَّ»: أي لَتَفْعَلُنَّ أفعالهم، ولتتبعن طرائقهم.

٣- قوله: «سُنن»: بفتح السين وضمها، فبالفتح: تكون مفرداً بمعنى الطريق، وبالضم: جمع سنة وهي الطريقة.

٤- قوله: «حذو»: الحذو: التقدير والقطع، تقول: حذوتُ النَّعل بالنعل، والقذة بالقذة: أي قدرتهما عليهما كما تقدر كل واحدة منهن على صاحبتها وتقطع[١].

٥- قوله: «القُذَّة»: واحدة القُذذ، قال ابن منظور في لسان العرب ٣/ ٥٠٣: «القذة ريش السهم، وجمعها أقذاذ، وقِذاذ، وقذوت السهم أقُذُّه قذاً، وأقذذته: جعلت عليه القُذَذ، وللسهم ثلاث قُذَذ هي آذانه. وسهمٌ أَقَذُّ: عليه القذذ، وقيل: المستوي البَرْي الذي لا زيغ فيه ولا ميل» ٣/ ٥٠٢. =

---

(١) انظر لسان العرب ١٤/ ١٦٩ و ٣/ ٥٠٣.

. . . .

= ومعنى ذلك أنكم ستفعلون أفعالهم، وتتبعون طرائقهم حتى تشابهوهم، وتحاذوهم كما تشبه قُذَّةُ السهم القُذَّةَ الأخرى؛ فقوله: «**حذو القذة بالقذة**» يضرب مثلاً للشيئين يستويان، ولا يتفاوتان(١).

قال الشيخ العلامة سليمان بن عبدالله ـ رحمه الله ـ في تيسير العزيز الحميد ص٣٦٧ في شرح هذا الحديث: «وهذا من معجزاته؛ فقد اتبع كثير من أمته سنن اليهود والنصارى، وفارس والروم في شيمهم، ومراكبهم، وملابسهم، وإقامة شعائرهم في الأديان، والحروب، والعادات، من زخرفة المساجد، وتعظيم القبور، واتخاذها مساجد، حتى عبدوها ومَنْ فيها مِنْ دون الله، وإقامة الحدود والتعزيرات على الضعفاء دون الأقوياء، وترك العمل يوم الجمعة، والتسليم بالأصابع، وعدم زيارة المريض يوم السبت، والسرور بخميس البيض، وأن الحائض لا تمس عجيناً، واتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله، والإعراض عن كتاب الله، والإقبال على كتب الضلال والسحر، والفلسفة، والكلام، والتكذيب بصفات الله التي وصف الله بها نفسه، أو وصفه بها رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووصفه بما لا يليق به من النقائض، والعيوب إلى غير ذلك مما اتبعوا فيه اليهود والنصارى» ا.هـ

٦- قوله: «**حتى لو دخلوا جحر ضب...**»: أراد أن أمته لا تدع شيئاً مما كان يفعله اليهود والنصارى إلا فعلته كلَّه. =

---

(١) انظر لسان العرب ٣/ ٥٠٣.

. . . .

= ٧- قوله: «فمن»: هذا استفهام إنكـاري، أي فمن غير اليهود والنصارى؟

قال الشيخ سليمان بن عبدالله ـ رحمه الله ـ في تيسير العزيز الحميد ص٣٦٩: «ثم إنه فسر هنا باليهود والنصارى، وفي رواية أبي هريرة في البخاري بفارس والروم، ولا تعارض ـ كما قال بعضهم ـ لاختلاف الجواب بحسب اختلاف المقام؛ فحيث قيل: فارس والروم كان ثَمَّ قرينةٌ تتعلق بالحكم بين الناس، وسياسة الرعية.

وحيث قيل: اليهود والنصارى كان هناك قرينة تتعلق بأمور الديانات: أصولها وفروعها كذا قال.

ولا يلزم وجود قرينة، بل الظاهر أنه أخبر أن هذه الأمة ستفعل ما فعلته الأمم قبلها من الديانات، والعادات، والسياسات مطلقاً.

والتفسير ببعض الأمم لا ينفي التفسير بأمة أخرى؛ إذ المقصود التمثيل لا الحصر» ا.هـ

هذا خبرٌ[١] تصديقه[٢] في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الذِينَ من قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾[٣] [التوبة: ٦٩] ولهذا شواهد في الصحاح والحسان[٤].

١- قوله: «هذا خبر..» أي قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «لتتبعن..».

٢- قوله: «تصديقه»: أي شاهده، ومؤيده.

٣- قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ١٠٤ في كلام له حول هذه الآية: «وجمع ـ سبحانه ـ بين الاستمتاع بالخلاق، وبين الخوض؛ لأن فساد الدين إما أن يقع بالاعتقاد الباطل، والتكلم به، أو يقع في العمل بخلاف الاعتقاد الحق.

والأول: هو البدع ونحوها.

والثاني: فسق الأعمال ونحوها.

والأول: من جهة الشبهات.

والثاني: من جهة الشهوات.

ولهذا كان السلف يقولون: احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى فتنه هواه، وصاحب دنيا أعمته دنياه.

وكانوا يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون؛ فهذا يشبه المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ولا يتبعونه، وهذا يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم» ا.هـ

وقال ـ رحمه الله ـ ١/ ١٠٧: «فقوله ـ سبحانه ـ: ﴿ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ ﴾ إشارة إلى اتباع الشهوات وهو داء العصاة. =

. . . .

= وقوله: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ إشارة إلى اتباع الشبهات وهو داء المبتدعة، وأهل الأهواء، والخصومات.

وكثيراً ما يجتمعان؛ فقلَّ من تجد في اعتقاده فساداً إلا ويظهر في عمله.

وقد دلت الآية على أن الذين من قبل استمتعوا وخاضوا، وهؤلاء فعلوا مثل أولئك.

ثم قوله: «فاستمتعتم» و«خضتم» خبر عن وقوع ذلك في الماضي وهو ذم لمن يفعله إلى يوم القيامة كسائر ما أخبر الله به عن الكفار والمنافقين عند مبعث محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإنه ذم لمن حاله كحالهم إلى يوم القيامة.

وقد يكون خبراً عن أمر دائم مستمر» ا. هـ

ومعنى الخلاق في الآية: هو النصيب، والحظ، كأنه ما خلق للإنسان، أي ما قُدِّر له، كما يقال: القسم لما قسم له، والنصيب لما نصب له[1].

٤- قوله: «ولهذا شواهد في الصحاح، والحسان»: أي في الأحاديث الصحيحة، والحسنة.

وإذا أردت مزيداً من ذلك فارجع إلى اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ١١٠-١٧٧. =

(١) انظر اقتضاء الصراط ١/ ١٠٣.

. . . .

= بل إن شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ قد بنى كتابه الآنف الذكر على هذه القاعدة وهي النهي عن مشابهة أصحاب الجحيم، ولهذا فإن اسم الكتاب كاملاً هو: **«اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم»**.

وهذا أمر [١] قد يسري في المنتسبين [٢] إلى الدين من الخاصة [٣] كما قال غير واحد من السلف منهم ابن عيينة [٤]؛ فإن كثيراً من أحوال اليهود قد ابتلي به بعض المنتسبين إلى العلم، وكثيراً من أحوال النصارى قد ابتلي به بعض المنتسبين إلى الدين [٥]، كما يبصر ذلك من فهم دين الإسلام الذي بعث الله به محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم نزّله على أحوال الناس [٦].

١- قوله: «**وهذا أمر..**»: الضمير في «**هذا**» يرجع إلى ما سبق الحديث عنه من وجود المشابهة لليهود، والنصارى وغيرهم من أصحاب الجحيم.

٢- قوله: «**قد يسري في المنتسبين إلى الدين**»: أي قد يوجد فيهم.

٣- قوله: «**من الخاصة**»: أي من خاصة المنتسبين إلى الدين وهم أهل العلم والعبادة، وهم ههنا ألصق بالمنتسبين إلى العبادة.

٤- هو الإمام سفيان بن عيينة بن أبي عمران، مولى بني هلال، كنيته أبو محمد ولد سنة ١٠٧ بالكوفة، وكان ثقةً ثبتاً كثير الحديث، حُجَّة، وكان محدث الحجاز في زمانه في مكة، توفي في مكة سنة ١٩٨، وعمره ٩١ سنة[١].

أما مقولة سفيان ـ رحمه الله ـ فهي: «من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عُبَّادنا ففيه شبه من النصارى»[١]. =

---

(١) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ٥/ ٤٩٧.

. . . .

= ٥- قوله: «**فإن كثيراً**» إلى قوله: «**إلى الدين**» هذا تفسير لمقولة سفيان ـ رحمه الله ـ.

وقوله «**بعض المنتسبين إلى العلم**» يعني بعض المشتغلين بالعلم، كأهل الكلام ومن شاكلهم.

وقوله: «**بعض المنتسبين إلى الديـن**»: يعني بعض المعروفيـن بالزهد، والعبادة كالصوفية، وغيرهم.

قال شيخ الإسلام في اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٦٧ مبيناً أسباب كفر اليهود والنصارى قال: «واليهود مقصِّرون عن الحق، والنصارى غالون فيه؛ فأما وَسْمُ اليهود بالغضب، والنصارى بالضلال فله أسباب ظاهرة وباطنة ليس هذا موضعها.

وجماع ذلك أن كفر اليهود أصله من جهة عدم العمل بعلمهم؛ فهم يعلمون الحق، ولا يَتْبعونه عملاً، أوْ لا قولاً ولا عملاً.

وكفرَ النصارى من جهة عملهم بلا علم؛ فهم يجتهدون في أصناف العبادات بلا شريعة من الله، ويقولون على الله ما لا يعلمون» ا.هـ.

٦- قوله: «**كما يبصر ذلك**» إلى قوله: «**ثم نزله على أحوال الناس**»: أي أن الذي عقل دين الإسلام، وفهمه كما جاء في الكتاب والسنة، وكما فهمه الصحابة ومن تبعهم بإحسان، ثم نظر في أحوال الناس، وعرضها على الوحيين فإنه يلحظ أن داء التشبه بأهل الكتاب قد سرى وتغلغل في بعض خاصة المسلمين؛ فكيف بعامتهم؟

---

(١) انظر اقتضاء الصراط ١/ ٦٧-٦٨.

وإذا كان الأمر كذلك فمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه، وكان ميتاً فأحياه الله، وجعل له نوراً يمشي به في الناس - لابد أن يلاحظ أحوال الجاهلية، وطريق[1] الأمتين المغضوب عليهم والضالين من اليهود والنصارى؛ فيرى أن قد ابتلي ببعض ذلك[2].

١- في نسخة مجموعة الرسائل: «**وطرفي الأمتين...**».

٢- خلاصة الكلام السابق: أنه إذا تقرر هذا الأمر وهو وجود المشابهة للأمم السابقة، وأن هذا قدر كوني نافذ لا محالة فإنه لابد لمن أحيا الله قلبه، ونوَّر بصيرته بالعلم والإيمان أن يكون على علم واطلاع - ولو على سبيل الإجمال - فيما يخالف الدين الحق من أحوال الجاهلية، وطريق أهل الكتاب؛ من باب: معرفة الشر؛ لتجنبه.

وإذا فقه هذا الأمر فإنه قد يرى أنه ربما وقع في شيء من ذلك؛ فيقوده علمه، وإيمانه إلى تجنب ذلك السبيل؛ فيكون دينه خالصاً لله - عز وجل -.

قال شيخ الإسلام - رحمه الله - في معرض حديث طويل حول أحاديث التشبه في اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ١٥٢-١٥٣: «وهذا كله خرج منه - يعني النبي - صلى الله عليه وسلم - مخرج الخبر عن وقوع ذلك، والذم لمن يفعله كما كان يخبر عما يفعله الناس بين يدي الساعة من الأشراط والأمور المحرمات.

فعلم أن مشابهتها اليهودَ، والنصارى، وفارس والروم مما ذمه الله ورسوله، وهو المطلوب.

. . . .

= ولا يقال: فإذا كان الكتاب والسنة قـد دَلاَ على وقوع ذلك فما فائدة النهي عنه؟

لأن الكتاب والسنة ـ أيضاً ـ قد دلا على أنه لا يزال في هذه الأمة طائفة متمسكة بالحق الذي بعث به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى قيام الساعة، وأنها لا تجتمع على ضلالة؛ ففي النهي عن ذلك تكثير هذه الطائفة المنصورة، وتثبيتها، وزيادة إيمانها؛ فنسأل الله المجيب أن يجعلنا منها.

وأيضاً لو فرض أن الناس لا يترك أحد منهم هذه المشابهة المنكرة ـ لكان العلم بها معرفة القبيح، والإيمان بذلك؛ فإن نفس العلم والإيمان بما كرهه الله خيرٌ وإن لم يعمل به.

بل فائدة العلم والإيمان أعظم من فائدة مجرد العمل الذي لـم يقترن به علم؛ فإن الإنسان إذا عرف المعروف، وأنكر المنكر كان خيراً له من أن يكون ميت القلب، لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً».

إلى أن قال ـ رحمه الله ـ: «ثم لو فرض أنا علمنا أن النـاس لا يتركون المنكر، ولا يعترفون بأنه منكر لم يكن ذلك مانعاً من إبلاغ الرسالة، وبيان العلم».

فأنفع ما للخاصة[١] والعامة ـ العلمُ بما يخلص النفوس من هـذه الورطات[٢]، وهو إتباع السيئات الحسنات.

١- قوله: «**للخاصة والعامة**»: يعني بالخاصة: المتسببين للعلم، والعبادة، والعامة: عامة الناس.

٢- قوله «**الورطات**»: جمع ورطة، والورطة تدور حول عدة معان منها: الهلكة، والنشب، والارتباك، والوقوع فيما لا يسهل المخرج منه.

قال في لسان العرب ٧/ ٤٢٥: «والوَرْطَة: الهلكة، وقيل: الأمر الذي تقع فيه من هلكة وغيرها».

وقال: «وأورطه، وورَّطه: توريطاً أي: أوقعه في الورطة، فتورَّط فيها، وأورطه: أي أوقعه فيما لا خلاص منه».

وقال ٧/ ٤٢٦: «تورط فلان في الأمر: هلك ونشب، واستورط فيه: إذا ارتبك فيه؛ فلم يسهل له المخرج».

ومراد شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ بالورطات: الذنوبُ، والمعاصي، واتباعُ الأمم السابقة في الضلال، وما يستتبع ذلك من آثار وخيمة، وعواقب وبيلة؛ فأنفع ما للناس ـ على اختلاف طبقاتهم ـ أن يعلموا ما فيه راحة نفوسهم، وخلاصها من أسر الذنوب، والمعاصي، والنجاة من آثارها، وذلك بإتباع السيئات الحسنات.

وإلا غلبت عليهم الشقوة، وحلت بهم آثار الذنوب وأضرارها؛ فإن للذنوب أضراراً عظيمة، وعقوبات متنوعة سواء في الدنيا أو في الآخرة على مستوى الأفراد أو الجماعات؛ فمن أضرارها حرمان العلم=

. . . .

= والرزق، والوحشةُ التي يجدها العاصي في قلبه، وبينه وبين ربه، وبينه وبين الناس.

ومنها تعسير الأمور، وسواد الوجه، ووهن البدن، وحرمان الطاعة، وتقصير العمر، ومحق بركته.

ومنها ظلمة القلب، وضيقه، وحزنه، وألمه، وانحصاره، وشدة قلقه، واضطرابه، وتمزق شمله، وضعفه عن مقاومة عدوه، وتعَرِّيه من زينته.

ومنها أن المعاصي تزرع أمثالها، وتقوي في القلب إرادة المعصية، وتضعف إرادة التوبة شيئاً فشيئاً إلى أن تنسلخ إرادة التوبة من القلب بالكلية، فيستمرىء صاحبها المعصية، وينسلخ من استقباحها.

ومنها أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه، وأن شؤمها لا يقتصر على العاصي، بل يعود على غيره من الناس والدواب.

ومنها أن المعصية تورث الذل، وتفسد العقل، وتدخل العبد تحت اللعنة، وتحرمه من دعوة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودعوة الملائكة، ودعوة المؤمنين.

كما أنها تطفىء نار الغيرة من القلب، وتذهب الحياء، وتضعف في القلب تعظيم الرب، وتستدعي نسيان الله لعبده، وتَخْليته بينه وبين نفسه وشيطانه. =

. . . .

= ومن أضرار المعاصي أنها تنزل الرعب في قلب العاصي، وتزيل أمنه، وتبدله به مخافة؛ فأخوف الناس أشدهم إساءة.

كذلك تخرج العبد من دائرة الإحسان، وتمنعه ثواب المحسنين، وتضعف سير قلبه إلى الله والدار الآخرة، وتصغِّر نفسه، وتُعمي قلبه، وتسقط منزلته، وتسلبه أسماء المدح والشرف، وتكسوه أسماء الذل والصغار، وتجعله من السفلة بعد أن كان مُهيَّأً لأن يكون من العلية، وتجرىء عليه شياطين الجن والإنس، فيصير في أسرهم بعد أن كانوا يخافونه ويرهبونه.

ومنها وقوع العاصي في بئر الحسرات؛ فلا يزال في حسرة دائمة؛ فكلما نال لذة نازعته نفسه إلى نظيرها إن لم يقض منها وطراً، أو إلى غيرها إن قضى وطره منها، وما يعجز عنه من ذلك أضعافُ أضعافِ ما يقدر عليه، وكلما اشتد نزوعُه وعرف عجزَه اشتدت حسرتُه وحزنُه؛ فيا لها ناراً قد عُذِّب بها القلبُ في هذه الدار قبل نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة.

ومنها ضياع أعز الأشياء وأنفسها وأغلاها وهو الوقت الذي لا عوض عنه، ولا يعود إليه أبداً.

وبالجملة فالآثار القبيحة للمعاصي أكثر من أن يحيط بها العبد علماً، وآثار الطاعة الحسنة أكثر من أن يحيط بها علماً؛ فخير الدنيا والآخرة=

. . . .

= بحذافيره في طاعة الله، وشر الدنيا والآخرة بحذافيره في معصية الله[١].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ مبيناً فوائد ترك المعاصي في كتابه الفوائد ص٢٢١-٢٢٢: «سبحان الله رب العالمين! لو لم يكن في ترك المعاصي إلا إقامةُ المروءةِ، وصونُ العِرْضِ، وحفظُ الجاهِ، وصيانةُ المالِ الذي جعله الله قواماً لمصالح الدنيا والآخرة، ومحبةُ الخلقِ، وجوازُ القول بينهم، وصلاحُ المعاش، وراحةُ البدن، وقوةُ القلبِ، وطيبُ النفسِ، ونعيمُ القلبِ، وانشراحُ الصدرِ، والأمنُ من مخاوف الفساق والفجار، وقلةُ الهمِّ والغمِّ والحزنِ، وعزُّ النفس عن احتمال الذل، وصونُ نورِ القلبِ أن تطفئه ظلمةُ المعصيةِ، وحصولُ المخرجِ له مما ضاق على الفساق والفجار، وتيسيرُ الرزقِ عليه من حيث لا يحتسب، وتيسيرُ ما عَسُرَ على أرباب الفسوق والمعاصي، وتسهيلُ الطاعاتِ عليه، وتيسيرُ العلم، والثناءُ الحسن في الناس، وكثرةُ الدعاء له، والحلاوةُ التي يكتسبها وجهُهُ، والمهابةُ التي تلقى له في قلوب الناس، وانتصارُهم وحميتُهم له إذا أوذي أو ظلم، وذبُّهم عن عرضه إذا اغتابه مغتاب، وسرعةُ إجابة دعائه، وزوالُ الوحشة التي بينه وبين الله، وقربُ الملائكة منه، وبُعد شياطين الإنس والجن منه، وتنافُس الناس على خدمته وقضاء حوائجه، وخطبتُهم لمودته=

(١) انظر الجواب الكافي ففيه تفصيل لتلك الأضرار، وانظر طريق الهجرتين ص٤٥٠-٤٥٤.

. . . .

= وصحبته، وعدمُ خوفه من الموت، بل يفرح به لقدومه على ربه، ولقائه له، ومصيره إليه، وصِغَرُ الدنيا في قلبه، وكِبَرُ الآخرة عنده، وحرصُه على الملك الكبير، والفوزِ العظيم فيها، وذوقُ حلاوة الطاعة، وَوَجْدُ حلاوة الإيمان، ودعاءُ حملة العرش ومَنْ حوله من الملائكة له، وفرحُ الكاتبين به، ودعاؤهم له كل وقت، والزيادةُ في عقله وفهمه وإيمانهِ ومعرفتِه، وحصولُ محبة الله له، وإقبالِه عليه، وفرحِه بتوبته، وهكذا يجازيه بفرح وسرور لا نسبة له إلى فرحه وسروره بالمعصية بوجه من الوجوه.

فهذه بعض آثار ترك المعاصي في الدنيا، فإذا مات تَلَقَّتْه الملائكة بالبشرى من ربه بالجنة، وبأنه لا خوف عليه ولا حزن، وينتقل من سجن الدنيا وضيقها إلى روضة من رياض الجنة ينعم فيها إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة كان الناس في الحر والعرق، وهو في ظل العرش، فإذا انصرفوا من بين يدي الله أخذ به ذات اليمين مع أوليائه المتقين وحزبه المفلحين، و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾ [الجمعة: ٤]».

وقال ـ رحمه الله ـ في الفوائد ص٢٠٤ مبيناً أن الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة: «فإنها ـ يعني الشهوة ـ إما أن توجب ألماً وعقوبةً، وإما أن تقطع لذةً أكملَ منها، وإما أن تضيع وقتاً إضاعتُه حسرةٌ وندامة، وإما أن تثلم عرضاً توفيرُه أنفعُ للعبد من=

. . . .

= ثلمه، وإما أن تُذْهِب مالاً بقاؤه خير له من ذهابه، وإما أن تضع قدراً وجاهاً قيامُه خيرٌ من وضعه، وإما أن تسلب نعمةً بقاؤها ألذّ وأطيبُ من قضاء الشهوة، وإما أن تُطَرِّقَ لوضيع إليك طريقاً لم يكن يجدها قبل ذلك، وإما أن تجلب هماً وغماً وحزناً وخوفاً لا يقارب لذة الشهوة، وإما أن تنسي علماً ذكرهُ ألذُّ من نيل الشهوة، وإمـا أن تُشْمِتُ عدواً وتحزن وليّاً، وإما أن تقطع الطريق على نعمة مقبلة، وإما أن تحدث عيباً يبقى صفة لا تزول؛ فإن الأعمال تورث الصفات والأخلاق».

والحسنات: ما ندب الله إليه على لسان خاتم النبيين من الأعمال، والأخلاق والصفات[1].

١- وعرف ـ رحمه الله ـ الحسنات في كتابه العبودية ص٦٨ بقوله: «والحسنات: هي ما أحبه الله، ورسوله، وهو ما أمر به أمر إيجاب، أو استحباب» ا.هـ.

هذا وقد مر الحديث عن الحسنات قبل صفحات.

ومما يزيل موجَبَ الذنوب[١] «المصائب المكفرة[٢]»
وهي[٣] كل ما يؤلم[٤] من[٥] هم[٦]، أو حزن[٧]، أو أذى[٨] في مالٍ[٩]، أو عِرْضٍ[١٠]، أو جسد[١١]، أو غير ذلك[١٢]، لكن ليس هذا من فعل العبد[١٣].

١- قوله: **«ومما يزيل موجب الذنوب»**: هذا رجوع إلى موانع إنفاذ الوعيد؛ حيث ذكر ثلاثة منها، وهذا هو الرابع الذي ذكره في هذه الوصية.

٢- قوله: **«المصائب المكفرة»**: في نسخة مجموع الفتاوى «المفكِّرة» وهذا خطأ، والصواب أنها المصائب المكفرة، أي التي يكفر الله بها عن العبد الخطايا، وتسمى ـ أيضاً ـ المصائب الدنيوية.

قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«ما يصيب المؤمن مِنْ وَصَبٍ، ولا نصبٍ، ولا غمٍّ، ولا همٍّ، ولا حزنٍ حتى الشوكةِ يشاكها إلا كفَّر الله بها من خطاياه»**[١].

وفي صحيح مسلم (٢٥٧٤)، والمسند (٧٣٨٠) أنه لما نزلت هذه الآية ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣] شقَّت على المسلمين، وبلغت منهم ما شاء الله أن تبلَغ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال لهم **قاربوا، وسدِّدوا؛ فكل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة يُنْكَبُها، والشوكة يشاكها»**[٢].

---

(١) رواه البخاري (٥٦٤١) و(٥٦٤٢)، ومسلم (٢٥٧٣) من حديث أبي سعيد، وأبي هريرة.
(٢) انظر تفسير الآية في تفسير ابن كثير.

. . . .

= ٣- قوله: «وهي» أي المصائب المكفرة، وهذا شروع في تعريفها.

٤- قوله: «كل ما يؤلم»: أي كل ما يوجع وجعاً شديداً، والألم هو الوجع الشديد[1].

٥- قوله: «من»: أي بسبب، فـ: «من» هنا سببية، ويحتمل أن تكون بيانية، أي لبيان الجنس.

٦- قوله: «هَمّ»: الهم هو الحزن، والقلق، والغم الذي يعتري الإنسان، وجمعه هموم[2].

قال أبو هلال العسكري في الفروق اللغوية ص٢٢١: «الهم هو الفكر في إزالة المكروه، واجتلاب المحبوب».

فالهم ـ إذاً ـ قلق وغم يلحق النفس بسبب إزالة شيء، أو جلبه في المستقبل.

والهموم التي تصيب الإنسان كثيرة، كهمِّ الأولاد، وهمِّ الدَّين، وهمِّ المرض، وهمِّ العلم، وهمِّ الجهاد، وهمِّ الدعوة، وهمِّ الإصلاح، ونحو ذلك.

٧- قوله: «أو حزن»: الحَزَن، والحُزْن: نقيض الفرح، وخلاف السرور. =

(١) انظر معجم مفردات ص١٧.

(٢) انظر معجم مفردات ص٥٤٣، ولسان العرب ١٢/٦١٩-٦٢٠.

. . . .

= قال الراغب في معجم مفرداته ص١١٤: «الحزن خشونة في الأرض، وخشونة في النفس لما يحصل فيه من الغم».

وقال أبو هلال العسكري في الفروق ص٢٢١: «الحزن تكاثف الغم وغلظه».

وقال الجرجاني في التعريفات ص٩١: «الحزن عبارة عما يحصل لوقوع مكروه، أو فوات محبوب في الماضي».

وكلام الجرجاني يفيد بأن الحزن غم يلحق النفس لشيء مضى، ولعل هذا من أجلى الفروق بينه وبين الهم.

ومن الحزن الذي يصيب الإنسان: الحزن على فقد حبيب، أو فراق قريب، أو خسارة مال، أو حزن على ألم، أو على إخفاق، أو نحو ذلك.

٨- قوله: «أو أذى»: الأذى كل ما يتأذى منه الإنسان، أو يصيبه من الضر إما في نفسه، أو جسمه، أو تبعاته دنيوياً، أو أخروياً[١].

٩- قوله: «في مال»: المال: ما مَلَكْتَهُ من جميع الأشياء.

قال الراغب: «وسمي مالاً؛ لكونه مائلاً أبداً، وزائلاً، ولذلك سُمِّي عَرَضاً»[٢].

والأذى الذي يكون في مال الإنسان: فقده، أو خسارته، أو سرقته، =

(١) انظر معجم مفردات ص١٠، ولسان العرب ١٤/ ٢٧.

(٢) معجم مفردات ص٤٤٩، وانظر لسان العرب ١١/ ٦٣٥.

. . . .

= أو غصبه منه، أو تلفه، أو نحو ذلك من الآفات التي تعترض المال.

١٠- قوله: «أو عرض»: العِرْض بكسر العين، وسكون الراء موضع القدح والمدح من الإنسان، وعرض الرجل حسبه.

وقيل: ما يمدح به ويذم، وقيل: هو جانبه الذي يصونه من نفسه وحسبه، ويحامي عنه أن ينتقص ويثلب(١).

والأذى الذي يصيب الإنسان من جهة العرض هو ما يكون فيه عيبه، وثلبه، وتنقصه، والإساءة إليه في نحو غيبة، أو نميمة، أو طعن، أو لمز، أو غمز، أو تلطيخ عرض، أو افتراء، أو قذف؛ فكل ذلك وما جرى مجراه داخل في المصائب التي تصيب الإنسان في عرضه.

١١- قوله: «أو جسد»: قال الراغب في معجمه ص٩١: «الجسد كالجسم، لكنه أخص.

قال الخليل ـ رحمه الله ـ: «لا يقال الجسد لغير الإنسان من خلق الأرض ونحوه.

وأيضاً فإن الجسد ماله لون، والجسم يقال لما لا يبين له لون كالماء والهواء».

والأذى الذي يصيب الإنسان في جسده: ما يصيبه في جسده من ضرب، وجرح، وكسر، ونصب، وتعب، ومرض، وتعذيب، وقتل، ونحو ذلك. =

---

(١) انظر لسان العرب ٧/ ١٧٠-١٧١.

. . . .

= ١٢- قوله: «**أو غير ذلك**» من المصائب الدنيوية التي تصيب الإنسان.

١٣- قوله: «**لكن هذا ليس من فعل العبد**»: أي أن هذه المصائب ليست من فعل العبد الاختياري الذي يقوم به عن قصد، ونية.

وإنما هي قضاء مقدر من الله ـ عز وجل ـ لحكم عظيمة تنطق بفضل الله، وعدله، ورحمته.

ومن تلك الحكم على وجه الإجمال: استخراج عبودية الضراء، وهي الصبر، وطهارة القلب، وحصول الانكسار والتذلل لله، والإخلاص له، وصدق الإنابة إليه، وحصول رحمة أهل البلاء، ومعرفة قدر العافية، والعلم بحقارة الدنيا.

ومن أعظم تلك الحكم تكفير السيئات، وكتابة الحسنات، وهو ما نحن بصدده.

قال بعض السلف: «لولا مصائب الدنيا لوردنا الآخرة مفاليس»[(١)].

قال ابن أبي العز الحنفي ـ رحمه الله ـ في شرح العقيدة الطحاوية ص٣٢٩: «فالمصائب نفسها مُكَفِّرةٌ، وبالصبر عليها يثاب العبد، وبالسخط يأثم.

والصبر والسخط أمران آخران غير المصيبة؛ فالمصيبة من فعل الله لا من فعل العبد، وهي جزاءٌ للعبد على ذنبه، ويُكَفَّرُ بها ذنبه. =

---

(١) بر الأكباد عند فقد الأولاد لابن ناصر الدين الدمشقي ص٤٦.

. . . .

= وإنما يثاب المرء ويأثم على فعله، والصبر، والسخط من فعله، وإن كان الأجر قد يحصل بغير عمل من العبد، بل هديةً من الغير، أو فضلاً من الله بغير سبب.

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

فنفس المرض جزاء وكفارة؛ لما تقدم، وكثيراً ما يفهم من الأجر غفران الذنوب، وليس ذلك مدلوله، وإنما يكون من لازمه» ا. هـ[١].

(١) انظر تفصيل الحديث عن الحكم من خلق المصائب والآلام في شفاء العليل لابن القيم، وكتاب الإيمان بالقضاء والقدر للكاتب ص١٠٢-١٠٩.

فلما قضى[١] بهاتين الكلمتين[٢] حق الله[٣]: من عمل الصالح، وإصلاح الفاسد[٤] ـ قال[٥]: «وخالقِ[٦] الناسَ بخلقٍ حسنٍ[٧]»، وهو حق الناس[١].

١- قوله: «**فلما قضى**»: الضمير يعود إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

ومعنى قضى: أي أمر، ووصى، وفَصَل.

و«لما» هنا شرطية، و«قضى» فعل الشرط.

٢- قوله: «**بهاتين الكلمتين**»: يعني بهما قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها**».

ويعني بالكلمتين: الجملتين؛ لأن الكلمة تطلق على الكلمة المفردة، وتطلق على الكلام.

٣- قوله: «**حق الله**»: أي أن تلك الجملتين تضمنتا حق الله ـ عز وجل ـ.

٤- قوله: «**من عمل الصالح، وإصلاح الفاسد**»: هذا بيان معنى حق الله ـ عز وجل ـ.

وقوله «**من عمل الصالح**»: أي من تقوى الله، وفعل الحسنات، وهذا ما تضمنه قوله «**اتق الله حيثما كنت**».

وقوله: «**وإصلاح الفاسد**»: أي ما فسد بسبب الذنوب والمعاصي.

وإصلاح الفاسد يكون باتباع السيئات الحسنات، وهذا معنى قوله: «**وأتبع السيئة الحسنة تمحها**». =

. . . .

= ٥- قوله: «**قال**»: أي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال: جواب الشرط.

وههنا شروع في بيان الحق الثاني الذي تضمنه هذا الحديث، وهو حق الناس.

٦- قوله: «**وخالقِ الناس**»: خَالِقْ: فعل أمر من المخالقة، وهي المعاملة والمعاشرة.

وقوله: «**وخالق الناس**»: أي عاشرهم على أخلاقهم، قال الشاعر:

خالــقِ الناس بـخـلْق حسـن لا تكن كلباً على النـاس يَهِر[1]

٧- قوله: «**بخلق حسن**»: الخُلُق والخُلْق: الطبيعة والسجيـة، والدين، وتجمع على أخلاق.

قال ابن منظور: «الخُلْق بضم اللام وسكونها وهو الدين، والطبع، والسجية»[2].

وقال الجاحظ: «الخلق: هو حال النفس بها يفعل الإنسان أفعاله بلا رويَّة، ولا اختيار.

والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعاً، وفي بعضهم لا يكون إلا بالرياضة والاجتهاد»[3]. =

(١) انظر لسان العرب: ١٠/ ٨٧

(٢) لسان العرب ١٠/ ٨٦-٨٧، وانظر معجم مقاييس اللغة ٢/ ٢١٣-٤١٤.

(٣) تهذيب الأخلاق للجاحظ ص١٢.

. . . .

= وقوله: «حسن» الحسن ضد القبح، وهو نعت لما حَسُن، والجمع محاسن على غير قياس، والمحاسن من الأعمال ضد المساوىء(١).

ومعنى **«حسن الخلق»**: بذل الندى، وكف الأذى، واحتمال الأذى.

وقيل: هو بذل الجميل، وكفُّ القبيح.

وقيل: التخلي من الرذائل، والتحلي بالفضائل(٢).

وقال الماوردي ـ رحمه الله ـ في أدب الدنيا والدين ص٢٤٣ وفي وصف حَسِن الخلق: «أن يكون سهل العريكة، ليِّن الجانب، طليق الوجه، قليل النفور، طيب الكلمة».

قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ في جامع العلوم والحكم ١/ ٤٥٤؛ في شرح هذا الحديث: وقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«وخالق الناس بخلق حسن»**.

هذا من خصال التقوى، ولا تتم التقوى إلا به.

وإنما أفرده بالذكر للحاجة إلى بيانه؛ فإن كثيراً من الناس يظن أن التقوى هي القيام بحق الله دون حقوق عباده؛ فنصَّ له على الأمر بإحسان العشرة للناس؛ فإنه قد بعثه إلى اليمن معلماً لهم، ومفقهاً، وقاضياً.

ومن كان كذلك فإنه يحتاج إلى مخالقة الناس بخلق حسن ما لا يحتاج إليه غيره ممن لا حاجة للناس به، ولا يخالطهم. =

(١) انظر لسان العرب ١٢/ ١١٤.

(٢) انظر مدارج السالكين ٢/ ٢٩٤.

. . . .

= وكثيراً ما يَغْلِب على حال من يعتني بحقوق الله، والانعكاف على محبته، وخشيته، وطاعته إهمالُ حقوق العباد بالكُلِّية، أو التقصير فيها.

والجمع بين القيام بحقوق الله، وحق عباده عزيزٌ جداً لا يقوى عليه إلا الكُمَّلُ من الأنبياء والصديقين».

وقال ـ رحمه الله ـ ١/ ٤٥٧: «وقد روي عن السلف تفسير حسن الخلق، فعن الحسن قال: حسن الخلق: الكرم والبَذْلَةُ، والاحتمال.

وعن الشعبي قال: حسن الخلق: البذلة، والعطية، والبشر الحسن. وكان الشعبي كذلك.

وعن ابن المبارك: هو بسط الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى.

وقال الإمام أحمد: حسن الخلق أن لا تغضب، ولا تحتدَّ.

وعنه أنه قال: حسن الخلق أن تحتمل ما يكون من الناس» ا.هـ

«فائدة في معاني لما»

مر في بداية الفقرة قوله: **«فلما قضى بهاتين الكلمتين...»** أن معنى **«لما»** في ذلك السياق أنها شرطية، وهذه الكلمة تطلق في القرآن الكريم على معانٍ هي كما يلي:

١- تأتي شرطية ـ كما مر ـ أي أنها تعلق شيئاً بشيء، فتحتاج إلى فعل الشرط وجواب الشرط، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩] وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. =

. . . .

= ٢- وتأتي جازمة للفعل المضارع، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ [عبس: ٢٣].

٣- وتأتي ظرفية، ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١].

٤- وتأتي بمعنى إلا، ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤].

وجماعُ[١] الخلقِ الحسن مع الناس: أن تصل[٢] من قطعك بالسلام، والإكرام، والدعاء له، والاستغفار والثناء عليه، والزيارة له.
وتعطي من حَرَمَك من التعليم، والمنفعة، والمال.
وتعفو عمن ظلمك في دم، أو مال، أو عرض.
وبعض هذا واجب، وبعضه مستحب[٣].

١- قوله: «**جِماع الخلق..**»: أي جمعه، ومظنته، والجماع: ما جمع عدداً، أي كلمة تجمع كلمات[١].

والمعنى أن الخلق الحسن جَمْعه وجِماعُه في الكلمات التالية في المتن بعد كلمة «**وجماع الخلق الحسن**» إلى قوله: «**أو عرض**».

هذا هو مقصود شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ.

٢- قوله: «**أن تصل**» إلى قوله: «**أو عرض**»: هذا هو جماع الخلق الحسن، وهو تفسير الوصية القرآنية:

﴿**خُذ العَفْوَ وَأْمُرْ بالْعُرْف وأَعْرِضْ عَنِ الجَاهلِينَ**﴾ [الأعراف: ١٩٩].

فهذه الآية جمعت مكارم الأخلاق.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: في مدارج السالكين ٢/ ٢٨٩-٢٩٠: «وقد جمع الله له مكارم الأخلاق في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**خُذ العَفْوَ وَأْمُرْ بالْعُرْف وأَعْرِضْ عَنِ الجَاهلِينَ**﴾.

قال جعفر بن محمد: أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية. =

---

(١) انظر لسان العرب ٨/ ٥٤.

. . . .

= وقد ذُكر أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لجبريل: «ما هذا؟» قال: **لا أدري حتى أسأل، فسأل ثم رجع، فقال: إن الله يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك»** اـ هـ[١].

وكما أن كلام شيخ الإسلام تفسير للوصية القرآنية فهو كذلك تفسير للوصية النبوية.

قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعقبة بن عامر الجهني ـ رضي الله عنه ـ: **«يا عقبةُ! ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة؟ تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك»**[٢].

ولقد كان هذا الخلق النبيل الكريم الحسن دأبَ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في مدارج السالكين ٢/ ٣٢٨-٣٢٩ في معرض حديث له عن حسن الخلق، والعفو، والإحسان إلى من أساء، قال: «وما رأيت أحداً أجمع لهذه الخصال من شيخ الإسلام ـ ابن تيمية ـ قدَّس الله روحه ـ.

وكان بعض أصحابه الأكابر يقول: وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه. =

(١) انظر تفصيل الكلام عليه في تفسير ابن كثير ٢/ ٢٧٧.

(٢) رواه الحاكم ٤/ ١٦١-١٦٢، وأحمد ٤/ ١٤٨ و ١٥٨، وذكره الهيثمي في المجمع ٨/ ١٨٨ وقال: «رواه أحمد والطبراني وأحد إسنادي أحمد رجاله ثقات».

. . . .

= وما رأيته يدعو على أحد منهم قط، وكان يدعو لهم.

وجئت يوماً مبشِّراً له بموت أكبر أعدائه، وأشدهم عداوة وأذىً له ـ فنهرني، وتنكَّر لي، واسترجع، ثم قام من فوره إلى بيت أهله، فعزاهم، وقال: إني لكم مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه، ونحو هذا الكلام، فسُرُّوا به، ودعوا له، وعظموا هذه الحال منه، فرحمه الله، ورضي عنه».

٢- قوله: **«وبعض هذا واجب»**: أي بعض هذه الأخلاق، والحقوق واجب، وذلك كصلة ذي الرحم القاطع؛ فإن الله ـ عز وجل ـ أمر بالصلة، وأثنى على الواصلين.

والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: **«ليس الواصل بالمكافىء، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها»**[1].

وكالإحسان إلى الوالد وإن كان مسيئاً في معاملة الولد؛ فإن الله ـ عز وجل ـ ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمرا ببر الوالدين والإحسان إليهما، بل إن الله ـ عز وجل ـ قرن حقهما بحقه.

والأدلة في هذا كثيرة جداً منها قوله ـ تعالى ـ: ﴿**وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**﴾ [الإسراء: ٢٣].

٣- قوله: **«وبعضه مستحب»**: أي بعض تلك الحقوق جاء الأمر به على وجه الاستحباب، كصلة سائر الناس، والإحسان إليهم، والعفو=

(١) رواه البخاري (٥٩٩١).

. . . .

= عن زلاتهم، وظلمهم كالعفو عمن ظلم في دم من نحو الجراحات، أو عفو الإنسان عن قاتل مورثه، ونحو ذلك.

وكالعفو عمن ظَلَم في مال كأن يبيح من أخذ ماله بغير حق بعد أن يستطيع أخذه منه، وهكذا. . .

وكعفو الإنسان عمن ناله بسوء من القول في غيبة، أو نميمة، أو نحو ذلك؛ فهذا كله مستحب مُرَغَّبٌ فيه.

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقال: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

وقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً»(١).

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في المدارج ٢/ ٣٠٣ «وههنا للعبد أحد عشر مشهداً فيما يصيبه من أذى الخلق وجنايتهم.

ثم قال بعد ما ساق الأول، والثاني: «المشهد الثالث: مشهد العفو، والصفح، والحكم؛ فإنه متى شهد ذلك، وفضله، وحلاوته، وعزته لم يعدل عنه إلا لِعَشىً في بصيرته؛ فإنه «ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً» كما صح ذلك عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلم بالتجربة، والوجود، وما انتقم أحد لنفسه إلا ذل. =

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨).

. . . .

= هذا وفي الصفح، والعفو، والحلم من الحلاوة، والطمأنينة، والسكينة، وشرف النفس، وعزها، ورفعتها عن تشفّيها بالانتقام ـ ما ليس شيء منه في المقابلة، والانتقام» ا ـ هـ.

«أمور تعين على العفو والصبر على الأذى»

هناك أمور تعين العبد على العفو والصبر على أذى الناس، وهي مبثوثة في كثير من كتب ابن تيمية ـ رحمه الله ـ ومن أجمع المواضع التي تكلم فيها على هذه المسألة رسالة لطيفة عنوانها: «قاعدة في الصبر» وهي موجودة في ص ١٦٥-١٧٤ من المجموعة الأولى من جامع المسائل لابن تيمية تحقيق الشيخ محمد عزير شمس، وإليك خلاصة تجمل ما جاء في تلك الرسالة:

قال ـ رحمه الله ـ ويُعينُ العبدَ على هذا الصبر عدّةُ أشياء:

١- أن يشهد أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ خالق أفعال العباد؛ فانظر إلى الذي سلَّطهم عليك، ولا تنظُر إلى فعلهم بك، تستَرح من الهمّ والغَمّ.

٢- أن يشهد ذُنوبه، وأن الله إنما سلَّطهم عليه بذنبه.

وإذا رأيت العبدَ يقع في الناس إذا آذوه، ولا يرجع إلى نفسه باللوم والاستغفار ـ فاعلم أن مصيبته مصيبةٌ حقيقية، وإذا تاب واستغفر وقال: هذا بذنوبي، صارت في حقّه نعمةً. =

. . . .

= ٣- أن يشهد العبد حُسن الثواب الذي وعده الله لمن عفا وصَبر، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

ولَما كان الناس عند مقابلة الأذى ثلاثة أقسام: ظالم يأخذ فوق حقه، ومقتصدٌ يأخذ بقدر حقه، ومحسن يعفو ويترك حقه ـ ذكَر الأقسام الثلاثة في هذه الآية، فأولها للمقتصدين، ووسطها للسابقين، وآخرها للظالمين.

٤- أن يشهد أنه إذا عفا وأحسن أورثه ذلك من سلامة القلب لإخوانه، ونقائه من الغِشّ والغِلّ وطلب الانتقام، وإرادة الشر، وحصل له من حلاوة العفو ـ ما يزيد لذته ومنفعته عاجلاً وآجلاً، على المنفعة الحاصلة له بالانتقام أضعافاً مضاعفة، ويدخل في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، فيصير محبوباً لله، ويصير حاله حال من أُخِذ منه درهم، فعُوِّض عليه ألوفاً من الدنانير، فحينئذ يفرح بما منَّ الله عليه أعظم فرحٍ يكون.

٥- أن يعلم أنه ما انتقم أحد قَطُّ لنفسه إلا أورثَه ذلك ذُلاً يجده في نفسه، فإذا عفا أعزّه الله ـ تعالى ـ.

وهذا مما أخبر به الصادق المصدوق حيث يقول: «ما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً»[1]. =

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٨) عن أبي هريرة.

. . . .

= فالعز الحاصل له بالعفو أحب إليه وأنفع له من العز الحاصل له بالانتقام؛ فإن هذا عِزٌّ في الظاهر، وهو يُورث في الباطن ذُلاً، والعفوُ ذُلٌّ في الظاهر، وهو يورث العزَّ باطناً وظاهراً.

٦- وهي ـ من أعظم الفوائد ـ: أن يشهد أن الجزاء من جنس العمل، وأنه نَفْسَه ظالمٌ مذنب، وأن من عفا عن الناس عفا الله عنه، ومن غَفَرَ لهم غَفَرَ الله له.

٧- أن يعلم أنه إذا اشتغلتْ نفسه بالانتقام وطلب المقابلة ضاعَ عليه زمانُه، وتفرَّق عليه قلبُه، وفاتَه من مصالحِه ما لا يمكن استدراكه، ولعل هذا أعظم عليه من المصيبة التي نالته من جهتهم، فإذا عفا وصفحَ فرغَ قلبُه وجسمهُ لمصالحه التي هي أهمُّ عنده من الانتقام.

٨- أن يستحضر أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما انتقمَ لنفسه قَطُّ، فإذا كان هذا خيرَ خلق الله وأكرمهم على الله لم ينتقِم لنفسه، مع أن أذاه أذى الله، ويتعلّقُ به حقوق الدين، ونفسه أشرف الأنفُس وأزكاها وأبرُّها، وأبعدُها من كل خُلُق مذموم، وأحقُّها بكل خُلُقٍ جميل، ومع هذا فلم يكن ينتقم لها؛ فكيف ينتقمُ أحدنا لنفسه التي هو أعلم بها، وبما فيها من الشرور والعيوب.

بل الرجل العارف لا تساوي نفسه عنده أن ينتقم لها، ولا قدرَ لها عنده يُوجبُ عليه انتصاره لها.

٩- أنه إن أُوذيَ على ما فعله لله، أو على ما أُمرَ به من طاعته ونُهى عنه من معصيته ـ وجبَ عليه الصبرُ، ولم يكن له الانتقام، فإنه =

. . . .

= قد أُوذي في الله فأجره على الله؛ فإنه من كان في الله تَلَفُهُ كان على الله خَلَفُه.

١٠- أن يشهد معيَّة الله ومحبته له إذا صبر.

ومن كان الله معه دفع عنه أنواع الأذى والمضرات ما لا يدفعه عنه أحد من خلقه، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

١١- أن يشهد أن الصبر نصفُ الإيمان، فلا يبدّل من إيمانه جزاءً في نُصرة نفسه، فإذا صبر فقد أحرزَ إيمانه، وصانَه من النقص، والله يدافع عن الذين آمنوا.

١٢- أن يعلم أنه إن صبرَ فالله ناصرُه ولابد؛ فالله وكيل من صبر، وأحال ظالمه على الله، ومن انتصر لنفسه وكلَه الله إلى نفسه، فكان هو الناصرَ لها؛ فأين من ناصره الله خيرُ الناصرين إلى من ناصِرُه نفسُه أعجز الناصرين وأضعفُه؟.

١٣- أن صَبْرَه على من آذاه واحتماله له يوجب رجوع خَصْمه عن ظُلمِه، وندامتَه واعتذارَه، ولومَ الناس له، فيعودُ بعد إيذائه له مستحيياً منه نادماً على ما فعله، بل يصيرُ موالياً له، وهذا معنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

١٤- أنه ربما كان انتقامه ومقابلته سبباً لزيادة شرِّ خصمِه، وقوة=

. . . .

= نفسه، وفكرته في أنواع الأذى التي يوصلها إليه، كما هو المشاهد؛ فإذا صبر وعفا أمِنَ من هذا الضرر، والعاقل لا يختارُ أعظمَ الضررين بدفع أدناهما.

وكم قد جلب الانتقام والمقابلة من شرٍّ عَجَزَ صاحبُه عن دفعه، وكم قد ذهبت نفوسٌ ورئاساتٌ وأموالٌ لو عفا المظلومُ لبقيتْ عليه.

١٥- أن من اعتاد الانتقام ولم يصبر لابد أن يقع في الظلم، فإن النفس لا تقتصر علـى قدر العدل الواجب لها، لا علماً ولا إرادة، وربما عجزت عن الاقتصار على قدر الحق؛ فإن الغضبَ يخرُجُ بصاحبه إلى حدٍّ لا يعقل ما يقول ويفعل، فبينما هو مظلوم ينتظرُ النَّصْرَ والعِزَّ، إذ انقلب ظالماً ينتظرُ المقتَ والعقوبةَ.

١٦- أن هذه المظلمةَ التي ظُلمِها هي سببٌ لتكفير سيِّئتِه، أو رفع درجتِه، فإذا انتقم ولم يصبر لم تكن مُكفِّرةً لسيئتِه ولا رافعةً لدرجته.

١٧- أن عفوه وصبره من أكبر الجند له على خصمه؛ فإن من صبر وعفا كان صبرُه وعفوه مُوجباً لذُلِّ عدوِّه وخوفه وخشيتِه منه ومن الناس؛ فإن الناس لا يسكتون عن خصمه، وإن سكت هو، فإذا انتقمَ زال ذلك كلُّه.

ولهذا تجدُ كثيراً من الناس إذا شتَم غيرَه أو آذاه يُحِبُّ أن يستوفي منه المشتومُ، أو المؤذَى، فإذا قابله استراح وألقى عنه ثِقلاً كان يجده.

١٨- أنه إذا عفا عن خصمِه استشعرت نفسُ خصمِه أنه فوقه، وأنه قد رَبحَ عليه، فلا يزال يرى نفسه دونَه، وكفى بهذا فضلاً وشرفاً للعفو. =

. . . .

= **«مسائل في حسن الخلق»**

أولاً: فضائل حسن الخلق: لحسن الخلق فضائل عظيمة تنتظم خيري الدنيا، والآخرة؛ ومن ذلك مايلي:

١- أنه امتثال لأمر الله ـ عز وجل ـ: قال ـ تعالى ـ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

٢- أنه طاعة للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ: فلقد أمر بحسن الخلق بأحاديث كثيرة، ومنه الحديث الذي بين أيدينا حديث معاذ ـ رضي الله عنه ـ وفيه: **«وخالق الناس بخلق حسن»**.

٣- أنه اقتداء بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: والله ـ عز وجل ـ يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

٤- رفعة الدرجات: قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجة الصائم القائم»**[١].

٥- أنه أعظم ما يدخل الجنة: قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«أعظم ما يدخل الناس الجنة: تقوى الله، وحسن الخلق»**[٢]. =

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٩٨)، والحاكم عن عائشة، وقال الحاكم: إسناده على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الصحيحة (٧٩٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠٠٤)، وابن ماجه (٤٢٤٦)، وابن حبان (٤٧٦)، والحاكم ٤/ ٣٢٤ وكلهم عن أبي هريرة، وقال الترمذي: «الحديث صحيح غريب». وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

. . . .

= **٦- القرب من مجلس النبي - صلى الله عليه وسلم - يوم القيامة:** قال - عليه الصلاة والسلام -: «**إن من أحبّكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً**»(١).

٧- نيل محبة الله - عز وجل -: فعن أسامة بن شريك - رضي الله عنه - قال: كنا جلوساً عند النبي - صلى الله عليه وسلم - كأنما على رؤوسنا الطير، ما يتكلم منا متكلم إذ جاءه أناسٌ فقالوا: من أحب عباد الله إلى الله؟ قال: «**أحسنهم أخلاقاً**»(٢)

٨- حسن الخلق أثقل شيء في الميزان يوم القيامة: فعن أبي الدرداء - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم -: «**ما من شيء أثقل في ميزان العبد يوم القيامة من حسن الخلق**»(٣).

٩- زيادة الأعمار، وعمارة الديار: قال - عليه الصلاة والسلام -: «**حسن الخلق، وحسن الجوار يعمران الديار، ويزيدان في الأعمار**»(٤). =

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ١٩٣-١٩٤، والترمذي (٢٠١٨) وقال: «حديث حسن غريب».

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ١/ ١٨١ (٤٧١) وقال الهيثمي في المجمع ٨/ ٢٤: «رجاله رجال الصحيح».

(٣) أخرجه أحمد ٦/ ٤٤٦-٤٤٨، وأبو داود (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٠٠٣) وقال حسن صحيح، وابن حبان (٤٨١)، والخرائطي (٥٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (٨٧٦).

(٤) رواه أحمد ٦/ ١٥٩، وصححه الألباني في الصحيحة (٥١٩).

. . . .

= ١٠- كسب القلوب، وتيسير الأمور، والسلامة من شر الخلق.

١١- حسن الخلق مدعاة للذكر الحسن، وزيادة العلم.

١٢- حسن الخلق سبب لراحة البال، وطيب العيش، والسلامة من مضار العيش والعجلة[(١)].

ثانياً: هل يمكن اكتساب الأخلاق أو لا يمكن؟

الجواب عن ذلك أن يقال: إن الأخلاق، والطباع ـ كما أنها غريزية، فطرية، جِبِلِّيَّة ـ هي كذلك اكتسابية تخلُّقيّة تتأتَّى بالدَّرَبة، والمجاهدة، والأخذ بالأسباب.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١].

وقال: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ [الشمس: ٩].

وقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلُّم، ومن يتحرَّ الخير يعطه، ومن يتوقَّ الشر يوقَّه**»[(٢)].

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**وخالق الناس بخلق حسن**»[(٣)]. =

(١) انظر تفاصيل ذلك في كتاب: سوء الخلق ـ مظاهره ـ أسبابه علاجه ـ للكاتب ص٨١-٩٠.

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه ٩/١٢٧، وقال الألباني في الصحيحة (٣٤٢): إسناده حسن، أو قريب من الحسن».

(٣) مضى تخريجه.

. . . .

= فهذه النصوص وغيرها كثير تدل على أن تغيير الطباع والأخلاق وارد ممكن؛ فليس متعذِّراً، ولا مستحيلاً، خلافاً لمن يرى أنها ثابتة في الإنسان لا يمكن أن تتغير؛ بحجة أنها غرائز فطر عليها، وطباع جُبل على التحلي بها؛ فلا يمكنه تغييرها، ولا يتصور فكاكه عنها.

ولو كانت الأخلاق لا تتغير لبطلت الوصايا، والمواعظ، والتأديبات، ولكان الأمر بالتحلي بالفضائل، والتخلي عن الرذائل من التكليف بما لا يطاق، ولا يقول بهذا عاقل.

بل كيف ينكر هذا، وتغييرُ خلق الحيوان الأعجم وارد ممكن؟

إذ إن البازيَّ ينقل من الاستيحاش إلى الأنس، والفرس من الجماح إلى السلامة والانقياد، وكل ذلك تغيير في الأخلاق.

فإذا كان هذا هو الشأن مع الحيوان فأجدِر بالإنسان الذي ميَّزه الله بالعقل، وكلَّفه من بين سائر المخلوقات ـ أن يتغير طبعه، ويتبدل خلقه إلى حد الاعتدال، وذلك إذا أخذ بالأسباب، وقام برياضة نفسه، وحملها على المكارم.

وخير دليل على هذا ما كان من أمر الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ حيث كانوا قبل بعثة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقبل دخولهم الإسلام كسائر كثير من العرب، يتصفون بالشدة، والغلظة، والفظاظة.

فلما دخلوا في الإسلام، وتأدبوا بآدابه، وخالطت بشاشة الإيمان قلوبهم ـ رقَّت طباعهم، ولانت عريكتهم. =

. . . .

= بل إنهم أصبحوا مثالاً يحتذى، ونهجاً يقتفى في الإيثار، والسماحة، والكرم، والشجاعة، والحلم، ونحو ذلك من مكارم الأخلاق.

ثم إن الواقع يشهد على أن الأخلاق قابلة للتغيير؛ فأنت ترى، وتقرأ، وتسمع عن أناس سيئةٍ أخلاقُهم، دانية هممهم، خائرةٍ عزائمهم.

فإذا ما راض الواحد منهم نفسه، وساسها، وتطلع إلى الفضائل، وسعى لها سعيها، وتخلى من الرذائل، وأنِفَ من أن يوصف بها ـ حسنت أخلاقه، وَوَفُرت كرامته.

أما إذا جُبِل المرء على مكارم الأخلاق، ثم سقاها بماء المكرمات، وأدبها بآداب الشريعة الغراء، ونمَّاها بالممارسة، والمران ـ فذاك نور على نور، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وأما الخلق العظيم[١] الذي وصَفَ الله به محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ[٢] فهو الدين الجامع لجميع ما أمر الله به مطلقاً[٣]، هكذا قال مجاهد[٤]، وغيره[٥].

وهو تأويل القرآن[٦]، كما قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ «كان خلقه القرآن»[٧].

وحقيقته[٨] المبادرة إلى امتثال ما يحبه الله ـ تعالى ـ بطيب نفس، وانشراح صدر[٩].

١- قوله: «وأما الخلق العظيم»: أي بمفهوم الخلق الواسع العام.

٢- قوله: «الذي وصَفَ الله به محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ»: يشير بذلك إلى قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

٣- قوله: «فهو الدين الجامع لجميع ما أمر الله به مطلقاً»: هذا هو تفسير الخلق العظيم، وهو أنه دين الإسلام.

٤- قوله: «هكذا قال مجاهد»: يعني أن هذا هو تفسير المفسر الكبير، التابعي الجليل تلميذ ابن عباس مجاهد بن جبر أبو الحجاج المخزومي مولاهم، المكي، ثقة إمام في التفسير، وفي العلم من الثالثة، مات سنة إحدى ـ أو اثنتين، أو ثلاث، أو أربع ـ ومائة، وله ثلاث وثمانون سنة[١].

٥- قوله: «وغيره»: أي أن هذا التفسير لم ينفرد به مجاهد ـ رحمه=

---

(١) انظر تقريب التهذيب لابن حجر ص٥٢٠.

. . . .

= الله ـ بل قال به جمع من أكابر أهل العلم من الصحابة ومن بعدهم كابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وسفيان بن عيينة، وأحمد بن حنبل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في الاستقامة ١/ ٤٤٣ : «والخلق: الدين، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: على دين عظيم، وبذلك فسره سفيان بن عيينة، وأحمد بن حنبل، وغيرهما».

وقال في مجموع الفتاوى ١٦/ ٦١ : في تفسير سورة القلم: «سورة (ن) هي سورة الخُلُق الذي هو جماع الدين الذي بعث الله به محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

قال الله ـ تعالى ـ فيها: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

قال ابن عباس: على دين عظيم، وقاله ابن عيينة، وأخذه أحمد عن ابن عيينة؛ فإن الدين، والعادة، والخلق ألفاظ متقاربة المعنى في الذات، وإن تنوعت في الصفات» ا. هـ

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في مدارج السالكين ٢/ ٢٨٩ في تفسير الآية السابقة: «قال ابن عباس ومجاهد: لعلى دين عظيم، لا دين أحب إليَّ، ولا أرضى عندي منه، وهو دين الإسلام.

وقال الحسن ـ رضي الله عنه ـ: هو آداب القرآن.

وقال قتادة: هو ما كان يأمر به من أمر الله، وينهى عنه من نهي الله.

والمعنى: أنك على الخلق الذي آثرك الله به في القرآن». =

. . . .

=

٦- قوله: **«وهو تأويل القرآن»**: أي تفسيره، وتطبيقه، والعمل به.

٧- هذا حديث هشام بن حكيم في صحيح مسلم (٧٤٦) أنه سأل عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن خلق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ؟

فقالت: «كان خلقه القرآن».

فقال: لقد هممت أن أقوم ولا أسأل شيئاً».

٨- قوله: «وحقيقته»: أي معنى كيف كان خلقه القرآن.

٩- قوله: «المبادرة» إلى قوله: «وانشراح صدر»: هذا معنى كون القرآن خلقه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أي أنه كان متمسكاً به، وبآدابه، ممتثلاً لأوامره، مجتنباً لنواهيه، قائماً بكل ما يدعو إليه من المكارم، والمحاسن، والألطاف، قد جعله حاكماً عليه في كل ما يأتي وما يذر، كل ذلك بطيب نفس، وانشراح صدر، دونما تردد، أو تلوم، أو حرج، فصار العمل بالقرآن خلقاً له كالجِبِلَّة، والطبيعة لا يفارقه.

وهذا أحسن الأخلاق وأشرفها[١].

---

(١) انظر جامع العلوم ٢/ ٩٩.

وأما بيان أن هذا كله[١] في وصية[٢] الله فهو أن اسم تقوى الله يجمع فِعْلَ كلِّ ما أمر الله به إيجاباً، أو استحباباً، وما نهى عنه تحريماً وتنزيهاً[٣].

وهذا يجمع[٤] حقوق الله[٥]، وحقوق العباد[٦]، لكن لما كان تارةً يعني بالتقوى خشية ا لعذاب المقتضية للانكفاف عن المحارم ـ جاء مُفَسَّراً في حديث معاذ[٧]، وكذلك[٨] في حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ الذي رواه الترمذي[٩] وصححه: «قيل: يا رسول الله! ما أكثر ما يدخل الناس الجنة؟

قال: تقوى الله، وحسن الخلق[١٠].

قيل: وما أكثر ما يدخل الناس النار؟

قال: الأجوفان: الفم، والفرج»[١١].

١- هذا الكلام معطوف على الكلام السابق من قوله: «وأما الخلق العظيم...».

وقولُه: «وأما بيان أن هذا كله»: أي بيان أن هذا يشمل الدين كله.

٢- قوله: «في وصية الله»: يعني بها الوصية بالتقوى في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

٣- قوله: «فهو أن اسم تقوى الله..» إلى قوله: «وتنزيهاً».

هذا تعريف جامع للتقوى، وقد مضى الحديث عن التقوى مفصلاً.

. . . .

= ٤- قوله: «**وهذا يجمع**»: يعني الوصية بالتقوى، وقوله: «**يجمع**»: أي يتضمن.

٥- قوله: «**حقوق الله**»: أي حقوقه المحضة، وهي إفراده بالتقوى، والعبادة، ونحو ذلك.

٦- قوله: «**وحقوق العباد**»: أي حقوق المخلوقين فهي داخلة ضمن التقوى، وإنما خصت هنا من باب عطف الخاص على العام، وإلا فهي من حقوق الله ـ أيضاً ـ.

لكن لما كانت حقوق العباد مبنية على المشاحة أفردت، وخصت؛ فإذا أطلقت التقوى دخلت حقوق العباد فيها.

٧- قوله: «**لكن لما كان تارة يعني بالتقوى خشية العذاب المقتضية للانكفاف عن المحارم جاء مفسَّراً في حديث معاذ**»: معنى ذلك أنه لما كان لفظ التقوى يطلق أحياناً على خشية العذاب، أي الخوف من الله، واتقاءه المقتضي كفَّ الإنسان نفسه عما حرم الله ـ «**جاء مفسَّراً في حديث معاذ**»: أي جاء لفظ التقوى مفسراً في حديث معاذ: «اتق الله..» حيث كان المراد بالتقوى في هذا الحديث حق الله؛ لأنها اجتمعت في سياق واحد مع الخلق الحسن.

أما إذا أفردت التقوى، وأطلقت في سياق فإنها تشمل حسن الخلق، وغيره من أصول التقوى وفروعها.

وبالجملة فإن التقوى إذا اجتمعت مع حسن الخلق في سياق واحد=

. . . .

= صار المراد بالتقوى حق الله، وبحسن الخلق حق الناس.

وإذا أفردا وأطلق كل واحد منهما دخل فيه الآخر؛ فالتقوى إذا أفردت تشمل الدين كله، والخلق إذا أطلق يشمل الدين كله ـ كما مر ـ.

كما هي الحال في كثير من الألفاظ إذا اجتمعت وإذا افترقت.

كالإسلام والإيمان، وكالبر والتقوى، وكالإثم والعدوان، وما جرى مجرى ذلك.

٨- قوله: «**وكذلك**»: أي ويشبه ما مضى من كون المراد بالتقوى حقَّ الله، وبحسن الخلق حق الخلق.

٩- سبق تخريجه.

١٠- قوله: «**تقوى الله وحسن الخلق**»: هذا هو الشاهد من الحديث، حيث عطف حسن الخلق على التقوى، كالحديث السابق، حديثِ معاذ؛ فيكون المراد بالتقوى حق الله، وبحسن الخلق حق الناس؛ لأنهما اجتمعا في سياق واحد.

١١- قوله: «**الأجوفان: الفم والفرج**»: فيه دليل على خطر هاتين الجارحتين؛ وأنهما من أعظم ما يجب حفظه من نواهي الله ـ عز وجل ـ.

والمقصود بالفم: اللسان.

وكما أن اللسان والفرج أكثر ما يدخل الناس النار وذلك إذا استرسل الإنسان مع هواه، وشهواته، وترك لهما العنان دون ضبط وقيد ـ فكذلك هما من أعظم أسباب دخول الجنة إذا حفظهما الإنسان. =

. . . .

= قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«من حفظ ما بين لحييه وما بين رجليه دخل الجنة»**(١).

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: **«من حفظ ما بين فقميه وفَرْجَـه دخل الجنة»**(٢).

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٠٩) وحسنه، والحاكم في المستدرك ٤/٣٥٧، وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه ابن حبان (٥٧٠٣).

(٢) رواه أحمد ٤/٣٩٨، وذكره الهيثمي في المجمع ١٠/٢٩٨ وقال: «رواه أحمد وأبو يعلى، والطبراني بنحوه، ورجال الطبراني وأبي يعلى ثقات، وفي رجال أحمد راوٍ لم يُسَمَّ، وبقية رجاله ثقات».

وفي الصحيح(١) عن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً».

فجعل كمال الإيمان في كمال حسن الخلق، ومعلوم أن الإيمان كله تقوى الله(٢).

١- الحديث رواه أبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢)، وقال: حسن صحيح.

٢- وهذا بمعنى الأحاديث السابقة التي أفرد فيها حسن الخلق، فكان شاملاً للإيمان، والتقوى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في الاستقامة ١/ ٤٤٣: «ومن المعلوم أن أحبَّ خلقِهِ إليه المؤمنون؛ فإذا كان أكملهم إيماناً أحسنهم خلقاً كان أعظمهم محبةً أحسنهم خلقاً، والخلق: الدين» ا.هـ

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في الفوائد ص٨٤-٨٥ مبيناً فضل التقوى وحسن الخلق، وأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد جمع بينهما، قال: «جمع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين تقوى الله، وحسن الخلق؛ لأن تقوى الله تصلح ما بين العبد وربه، وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه؛ فتقوى الله توجب له محبة الله، وحسن الخلق يدعو الناس إلى محبته» ا.هـ.

وتفصيل أصول التقوى، وفروعها لا يحتمله هذا الموضع؛ فإنها الدين كله[١].

لكنَّ ينبوع الخير، وأصلَه[٢]: إخلاص العبد لربه[٣].

١- أي إن تفصيل الحديث عن التقوى يطول، ويتشعب لأنه يشمل الدين كله، والمقام لا يتسع لذلك.

وقد مضى شيء من التفصيل في التقوى في أول الوصية.

٢- قوله: «**لكن ينبوع الخير وأصله**»: أي مُفَجّرُه الذي ينبع منه، ومادته التي تُمدُّه، وقاعدته التي يتكأ عليها.

وفي ذلك إشارة إلى أن الإخلاص أصل الخير، وعليه مدار العمل.

٣- قوله: «**إخلاص العبد لربه**»: أصل الإخلاص مادة (خلص) والخالص هو ما زال عنه شوبه بعد أن كان فيه[١].

والإخلاص في الشرع: هو تصفية العمل من كل شائبة تشوبه.

ومدار الإخلاص على أن يكون الباعث على العمل امتثال أمر الله، وإرادته ـ عز وجل ـ فلا يمازج العمل شائبة من شوائب إرادات النفس: إما طلب التزين في قلوب الخلق، وإما طلب مدحهم، والهرب من ذمهم، أو طلب تعظيمهم، أو طلب أموالهم، أو خدمتهم ومحبتهم وقضائهم حوائجه، أو غير ذلك من العلل والشوائب التي يجمعها إرادة ما سوى الله في العمل[٢]. =

---

(١) انظر معجم مفردات ١٥٥.

(٢) انظر مدارج السالكين ٢/ ٩٣.

. . . .

= والإخلاص شرط العبادة؛ فالعبادة تقوم على شرطين هما: الإخلاص لله، والمتابعة للرسول - صلى الله عليه وسلم -.

قال - تعالى -: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

وقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: «**يقول الله - تعالى -: أنا أغنى الشركاء عن الشرك؛ فمن عمل عملاً فأشرك فيه غيري فأنا منه بريء، وهو للذي أشرك**»(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن الإخلاص: «بل إخلاص الدين لله هو الدين الذي لا يقبل الله سواه، وهو الذي بعث به الأولين والآخرين من الرسل، وأنزل به جميع الكتب، واتفق عليه أئمة أهل الإيمان، وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية، وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه»(٢).

وقال - رحمه الله - في العبودية ص٩٩ متحدثاً عن فضل العبادة والإخلاص: «فإن القلب إذا ذاق طعم عبادة الله، والإخلاص له لم يكن عنده شيء قطُّ أحلى من ذلك، ولا ألذُّ، ولا أمتع، ولا أطيب».

إلى أن قال: «قال الله - تعالى - في حق يوسف: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]. =

---

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥).

(٢) مجموع الفتاوى ١٠/٤٩.

. . . .

= فالله يصرف عن عبده ما يسوؤه من الميل إلى الصور المحرمة، والتعلق بها، ويصرف عنه الفحشاء بإخلاصه لله.

ولهذا يكون قبل أن يذوق حلاوة العبودية لله، والإخلاص له بحيث تغلبه نفسه على اتباع هواها؛ فإذا ذاق طعم الإخلاص وقوي في قلبه ـ انقهر بلا علاج» ا.هـ

وقال في ص١٤٠-١٤١: «وإذا كان العبد مخلصاً لله اجتباه ربه، فأحيا قلبه، واجتذبه إليه، فينصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء، ويخاف من ضد ذلك.

بخلاف القلب الذي لم يخلص لله، فإن فيه طلباً، وإرادة، وحباً مطلقاً، فيهوى ما يسنح له، ويتشبث بما يهواه كالغصن أيُّ نسيم مرَّ به عطفه وأماله» ا.هـ

عبادةً(١)...

١- قوله: «عبادةً»: العبادة في اللغة: هي التذلل، والخضوع، يقال: بعير معبَّد: أي مذلل، وطريق معبَّد أي مذلل ذللته الأقدام.

أما العبادة في الاصطلاح فقد عرفت بعدة تعريفات؛ ومنها:

١- عرفها شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بأنها: «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة»(١).

٢- وعرفها في مجموع الفتاوى ١٠/٥٦ بقوله: «والعبادة تتضمن كمال الحب ونهايته، وكمال الذل ونهايته، فالمحبوب الذي لا يُعَظَّم ولا يُذل له لا يكون معبوداً، والمعظَّم الذي لا يحب لا يكون معبوداً».

٣- وعرفها العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ بقوله: «والعبادة تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع.

والعرب تقول طريق معبَّد: أي مذلَّل، والتعبد: التذلل والخضوع؛ فمن أحببته ولم تكن خاضعاً له لم تكن عابداً له.

ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابداً له حتى تكون محباً خاضعاً»(٢). =

---

(١) العبودية ص٣٨.

(٢) مدارج السالكين ١/١٠٤.

. . . .

= «**شروط العبادة**»

لا تقبل العبادة إلا إذا توافر فيها شرطان:

١- الإخلاص لله. ٢- المتابعة للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وجماع الدين أصلان: أن لا نعبد إلا الله، ولا نعبده إلا بما شرع، لا نعبده بالبدع، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾ [الكهف: ١١٠].

وذلك تحقيق الشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمداً رسول الله؛ ففي الأولى: ألا نعبد إلا إياه، وفي الثانية: أن محمداً هو رسوله المبلغ؛ فعلينا أن نصدق خبره، ونطيع أمره»(١).

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «لا يكون العبد متحققاً بـ ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ إلا بأصلين عظيمين: أحدهما متابعة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

والثاني: الإخلاص للمعبود؛ فهذا تحقيق ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾»(٢). =

---

(١) العبودية ص ١٧٠.

(٢) مدارج السالكين ١/ ١٠٤.

. . . .

= **«أركان العبادة»**

العبادة تقوم على أركان ثلاثة، هي:

١- الحب أو المحبة. ٢- الخوف. ٣- الرجاء.

ولابد للعبد من الجمع بين هذه الأركان الثلاثة؛ لأن عبادة الله بالخوف وحده طريقة الخوارج، فهم لا يجمعون إليه الحب والرجاء؛ ولهذا لا يجدون للعبادة لذة، ولا إليها رغبة، فيجعلون الخالق بمنزلة سلطان جائر.

وهذا يورث اليأس والقنوط من رحمة الله، وغايته إساءة الظن بالله، والكفر به ـ عز وجل ـ.

وعبادة الله بالرجاء وحده طريقة المرجئة الذين وقعوا في الغرور والأماني الباطلة، وتركِ العمل الصالح، وغايتُه الخروج من الملة.

وعبادة الله بالحب وحده طريقة غلاة الصوفية الذين يقولون: نعبد الله لا خوفاً من ناره، ولا طمعاً في جنته، وإنما نعبده حباً لذاته.

وهذه طريقة فاسدة، ولها آثار وخيمة منها الأمن من مكر الله، وغايتُه الزندقةُ، والخروجُ من الدين.

ولهذا قال السلف كلمتهم المشهورة: «من عَبَدَ الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجىء، ومن عبده بالخوف، والرجاء، والحب فهو مؤمن موحد»[1]. =

(١) العبودية ١٢٨.

. . . .

= قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في مدارج السالكين ١/ ٥١٣ : «القلب في سيره إلى الله ـ عز وجل ـ بمنزلة الطائر؛ فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه؛ فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيّد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر.

ولكن السلف استحبوا أن يقوي في الصحة الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف.

هذه طريقة أبي سليمان ـ الداراني ـ وغيره.

قال: وينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف؛ فإن غلب عليه الرجاء فسد.

وقال غيره: أكمل الأحوال: اعتدال الرجاء والخوف، وغلبة الحب؛ فالمحبة هي المَرْكَبُ، والرجاء حادٍ، والخوف سائق، والله الموصل بمنِّه وكرمه» ا. هـ

«فضائل العبادة، وأهميتها»

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ مبيناً أهمية العبادة وفضلها: «وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له، والمرضية له، التي خلق الخلق لها، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجنَّ وَالإنسَ إلاَّ لِيَعْبُدُون﴾ [الذاريات: ٥٦].

وبها أرسل جميع الرسل كما قال نوح لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم

. . . .

= مَنْ إِلَه غَيْرُهُ﴾» [الأعراف: ٥٩].

إلى أن قال ـ رحمه الله ـ: «وبذلك وصف ملائكته وأنبياءه، فقال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِه وَلا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

وذم المستكبرين عنها بقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الذينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

ونعت صفوة خلقه بالعبودية له، فقال ـ تعالى ـ: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦].

وقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الذينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]»[١].

وقال ـ رحمه الله ـ في مجموع الفتاوى ١/ ٢٤: «فليس في الكائنات ما يسكن العبد إليه، ويطمئن به، ويتنعم بالتوجه إليه ـ إلا الله ـ سبحانه ـ.

ومن عَبَدَ غَيْرَ الله ـ وإن أحبه، وحصل به مودة في الحياة الدنيا، ونوع من اللذة ـ فهو مفسدة لصاحبه أعظم من مفسدة التذاذ آكل الطعام المسموم» ا.هـ

هذا وقد مر شيء من فضائل العبادة، وسيأتي مزيد لذلك.

---

(١) العبودية ص ٣٩-٤٠.

واستعانة[١] كما في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٢].

١- قوله: «**واستعانة**»: الاستعانة داخلة في العبادة، وعطفها على العبادة من باب عطف الخاص على العام.

والاستعانة: طلب العون، هذا هو معناها اللغوي.

أما معناها الشرعي: فهو طلب العون من الله، والثقة به، والاعتماد عليه.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في مدارج السالكين ١/ ٩٦: «والاستعانة تجمع أصلين: الثقة بالله، والاعتماد عليه؛ فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس، ولا يعتمد عليه في أموره مع ثقته به؛ لاستغنائه عنه، وقد يعتمد عليه مع عدم ثقته به؛ لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه؛ فيحتاج إلى اعتماده عليه مع أنه غير واثق به» ا.هـ

وقال ابن رجب ـ رحمه الله ـ في جامع العلوم والحكم ١/ ٤٨١-٤٨٢ مبيناً سِرَّ الاستعانة، وأهميتها: «وأما الاستعانة بالله ـ عز وجل ـ دون غيره من الخلق ـ فلأن العبد عاجزٌ عن الاستقلال بجلب مصالحه، ودفع مضارِّه، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله ـ عز وجل ـ فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول، وهذا تحقيق معنى «لا حول ولا قوة إلا بالله».

إلى أن قال ـ رحمه الله ـ: «فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات، وترك المحظورات، والصبر على المقدورات كلها في الدنيا، وعند الموت، وبعده من أهوال البرزخ ويوم القيامة. =

. . . .

= ولا يقدر على الإعانة على ذلك إلا الله ـ عز وجل ـ فمن حقق الاستعانة عليه في ذلك كله أعانه.

وفي الحديث الصحيح عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز**»(١).

ومن ترك الاستعانة بالله، واستعان بغيره وكله الله إلى من استعان به؛ فصار مخذولاً.

كتب الحسن إلى عمر بن عبدالعزيز: لا تستعن بغير الله؛ فيَكِلَك الله إليه.

ومن كلام بعض السلف: يا رب عجبت لمن يعرفك كيف يرجو غيرك؟! عجبت لمن يعرفك كيف يستعين بغيرك» ا.هـ

٢- قوله: «كما في قوله: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾»: هذا دليل استدل به شيخ الإسلام على العبادة والاستعانة.

ومعنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾: أي لا نعبد إلا أنت، ولا نستعين إلا بك.

وتقديم المعمول «**إياك**» الذي حقه التأخير على العامل «**نعبد، ونستعين**» الذي حقه التقديم ـ يفيد الحصر.

وهاتان الكلماتان ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ عليهما مدار العبودية، والتوحيد، وهما أنفع الدعاء، بل إن معاني القرآن والكتب السماوية=

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤).

. . . .

= وعلومهما قد جُمعت في هاتين الكلمتين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في مجموع الفتاوى ١٠/١٨: «ولهذا قال من قال من السلف: إن الله جمع الكتب المنزلة في القرآن، وجمع علم القرآن في المفصل، وجمع علم المفصل في فاتحة الكتاب، وجمع علم فاتحة الكتاب في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ا.هـ

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في مدارج السالكين ١/ ٩٥: «وسر الخلق والأمر، والكتب والشرائع، والثواب والعقاب ـ انتهى إلى هاتين الكلمتين، وعليهما مدار العبودية، والتوحيد، حتى قيل: إن الله أنزل مائة كتاب وأربعة كتب، جمع معانيها في التوراة، والإنجيل، والقرآن، وجمع معاني هذه الكتب الثلاثة في المفصل، وجمع المفصَّل في الفاتحة، ومعاني الفاتحة في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ا.هـ

وقال ـ رحمه الله ـ ١/ ١٠٠ لما تكلم على أقسام الناس في العبادة والاستعانة قال: «أجلها، وأفضلها: أهل العبادة، والاستعانة بالله عليها؛ فعبادة الله غاية مرادهم، وطلبهم منه أن يعينهم عليها، ويوفقهم للقيام بها؛ ولهذا كان من أفضل ما يسأل الرب ـ تبارك وتعالى ـ: الإعانة على مرضاته، وهو الذي علَّمه النبيُّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ لِحِبِّه معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ فقال: «يا معاذ، والله إني لأحبك؛ فلا =

. . . .

= تنس أن تقول دُبُرَ كلِّ صلاةٍ: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك».

فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته، وأفضل المواهب: إسعافه بهذا المطلوبِ، وجميعُ الأدعيةِ المأثورةِ مدارُها على هذا، وعلى دفع ما يضاده، وعلى تكميله، وتيسير أسبابه؛ فتأمَّلْها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدَّس الله روحه ـ: تأملت أنفـع الدعاء فإذا هو سؤالُ الله العونَ على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة، في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾» ا. هـ

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ ١/ ٩٧-٩٨ مبينـاً السر في تقديم العبادة على الاستعانة في الفاتحة قال: «وتقديم العبادة على الاستعانة في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل؛ إذ العبادة غاية العباد التي خلقوا لها، والاستعانة وسيلة إليها.

ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ متعلق بألوهيته واسمه «الله» و ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ متعلق بربوبيته، واسمه «الرب» فقدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، كما قدم اسم «الله» على اسم «الرب» في أول السورة.

ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قَسْمُ الربِّ؛ فكان من الشطر الأول الذي هو ثناء على الله ـ تعالى ـ لكونه أولى به.

و ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَسْمُ العبد؛ فكان من الشطر الذي له، وهو ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. =

. . . .

= ولأن العبادة المطلقة تتضمن الاستعانة من غير عكس؛ فكلُّ عابدٍ لله عبودية تامة مستعين به، ولا ينعكس؛ لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على شهواته؛ فكانت العبادة أكمل وأتم؛ ولهذا كانت قَسْمَ الرب.

ولأن الاستعانة جزء من العبادة من غير عكس، ولأن الاستعانة طلب منه، والعبادة طلب له.

ولأن العبادة لا تكون إلا من مخلص، والاستعانة تكون من مُخلص، ومن غير مخلص ولأن العبادة حقُّه الذي أوجبه عليك، والاستعانة طلب الإعانة على العبادة، وهو بيان صدقته التي تصدق بها عليك، وأداء حقِّه أهم من التعرض لصدقته.

ولأن العبادة شكر نعمته عليك، والله يحب أن يشكر، والإعانة فعله بك، وتوفيقه لك؛ فإذا التزمت عبوديته، ودخلت تحت رقِّها أعانك عليها؛ فكان التزامها، والدخول تحت رقِّها سبباً لنيل الإعانة.

وكلما كان العبدُ أتمَّ عبودية كانت الإعانة له من الله أعظم.

والعبودية محفوفة بإعانتين: إعانةٍ قبلها على التزامها، والقيام بها، وإعانةٍ بعدها على عبودية أخرى، وهكذا أبداً حتى يقضي العبد نَحْبَه.

ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ له، و﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ به، وماله مقدم على ما به؛ لأن ماله متعلق بمحبته ورضاه، وما به متعلق بمشيئته؛ فإن الكون=

. . . .

= كلّه متعلق بمشيئته، والملائكة والشياطين، والمؤمنون والكفار، والطاعات، والمعاصي.

والمتعلق بمحبته: طاعاتهم، وإيمانهم؛ فالكفار أهل مشيئته، والمؤمنون أهل محبته؛ ولهذا لا يستقر في النار شيء لله أبداً، وكلُّ ما فيها فإنه به ـ تعالى ـ وبمشيئته.

فهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ثم انتقل ـ رحمه الله ـ ١/ ٩٨ إلى بيان الحكمة من تقديم المعبود والمستعان وهو قوله: «إياك» على الفعلين وهما «نعبد» و«نستعين» فقال: «وأما تقديم المعبود، والمستعان على الفعلين ففيه أدبهم مع الله، بتقديم اسمه على فعلهم، وفيه الاهتمام، وشدة العناية به، وفيه الإيذان بالاختصاص المسمى بالحصر؛ فهو في قوة: لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك». ا.هـ

وفي قوله: «فاعبده[١] وتوكل عليه[٢]».

=

١- قوله: «**فاعبده**»: مر الحديث عن العبادة، وقوله «فاعبده»: أمر بالعبادة.

٢- قوله: «**وتوكل عليه**»: هذا خصوص بعد عموم؛ فالتوكل داخل في العبادة، والعبادة شاملة للتوكل.

والجمع بين العبادة والتوكل كثير في القرآن؛ لأنهما جماع الدين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في مجموع الفتـاوى ١٠/١٨: «فهو قد جمع بين العبادة والتوكل في عدة مواضع؛ لأن هذين يجمعان الدين كله» ا.هـ

هذا وسيأتي مزيد حديث وبيان عن التوكل.

وفي قوله: «عليه توكلت[١] وإليه أنيب[٢]».

١- قوله: «عليه توكلت» في هذه الآية حصر وقصر؛ حيث قدم ما حقه التأخير، وهو المعمول: الجار والمجرور في قوله «عليه» حيث قدمه على العامل: «توكلت».

وذلك لإفاد الحصر والقصر، أي أن التوكل لا يكون إلا على الله وحده.

٢- قوله: «وإليه أنيب»: قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في المدارج ٢/ ١١٣: «والتوكل نصف الدين، والنصف الثاني الإنابة؛ فإن الدين استعانة، وعبادة؛ فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة» ا.هـ

«تعريف الإنابة»

الإنابة في اللغة: أصل هذه المادة: النون، والواو، والباء: نَوْب:

والنوب: رجوع الشيء مرة بعد أخرى.

يقال: ناب ينوب نوْباً، ونَوْبة.

وسمي النحلُ نَوْباً لرجوعها إلى مقارّها.

ونابته نائبة: أي حادثة من شأنها أن تنوب دائماً.

والإنابة في الشرع: هي الرجوع إلى الله بالتوبة، وإخلاص العمل[١].

وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿وإليه أنيب﴾ فيه حصر وقصر ـ كما مضى عند الحديث عن التوكل ـ فالإنابة لا تكون إلا لله، ويفهم هذا من تقديم الجار والمجرور (إليه) على عامله الفعل «أنيب». =

---

(١) انظر معجم مفردات ص٥٢٩.

. . . .

= «**الإنابة إنابتان**»

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «**والإنابة إنابتان:**

إنابة لربوبيته: وهي إنابة المخلوقات كلها، يشترك فيها المؤمن والكافر، والبر والفاجر.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ**﴾ [الروم: ٣٣].

فهذا عام في حق كل داعٍ أصابه ضرٌّ كما هو الواقع.

وهذه الإنابة لا تستلزم الإسلام، بل تجامع الشرك، والكفر كما قال ـ تعالى ـ في حق هؤلاء: ﴿**ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ**﴾ [الروم: ٣٣، ٣٤].

فهذه حالهم بعد إنابتهم.

الإنابة الثانية: إنابة أوليائه، وهي إنابة لإلهيته، إنابة عبودية ومحبة.

وهي تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه؛ فلا يستحق اسم «**المنيب**» إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع، وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك.

وفي اللفظة معنى الإسراع، والرجوع، والتقدم.

والمنيب إلى الله: المسرع إلى مرضاته، الراجع إليه كل وقت، المتقدم إلى محابّه»[1].

(١) مدارج السالكين ١/ ٤٣٣.

. . . .

= «**من علامات الإنابة**»

١- أن يتوجع لعثرته إذا عثر، فيتوجع قلبه، وينصدع.

وهذا دليل على إنابته، بخلاف من لا يتألم قلبه، ولا ينصدع من عثرته؛ فإنه دليل على فساد قلبه وموته.

٢- أن يتوجع لعثرة أخيه المؤمن إذا عَثُر، حتى كأنه هو الذي عثر بها، ولا يشمت به؛ فهو دليل على رقة قلبه، وإنابته.

٣- ترك الاستهانة بأهل الغفلة، والخوفِ عليهم مع فتح باب الرجاء للنفس.

بل المنيب يرجو لهم الرحمة، ويخشى على نفسه النقمة؛ فإن كان لابد مستهيناً بهم ماقتاً لهم؛ لانكشاف أحوالهم له، ورؤيته لما هم عليه ـ فليكن لنفسه أشدَّ مقتاً منه لهم، وليكن أرجى لهم لرحمة الله منه لنفسه[١].

«قال بعض السلف: لن تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس في ذات الله، ثم ترجع إلى نفسك فتكون لها أشد مقتاً»[٢].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ معلقاً على هذا: «وهذا الكلام لا يفقه معناه إلا الفقيه في دين الله؛ فإن من شهد حقيقة الخلق، وعجزهم، وضعفهم، وتقصيرهم بل تفريطهم، وإضاعتهم لحق الله، وإقبالهم على=

(١) انظر مدارج السالكين ١/ ٤٣٥ و ٤٣٧.
(٢) المدارج ١/ ٤٣٧.

. . . .

= غيره، وبيعهم حظَّهم من الله بأبخس الثمن من هذا العاجل الفاني ـ لم يجد بُدّاً من مقتهم، ولا يمكنه غير ذلك البتة.

ولكن إذا رجع إلى نفسه، وحاله، وتقصيره، وكان على بصيرة من ذلك ـ كان لنفسه أشد مقتاً، واستهانة؛ فهذا هو الفقيه»[1].

(١) مدارج السالكين ١/ ٤٣٧.

وفي قوله: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾[1].

١- هذه الآية من سورة العنكبوت، والآيات التي قبلها في سياق الحديث عن دعوة إبراهيم ـ عليه السلام ـ لقومه.

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت: ١٦, ١٧].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره ٣/ ٣٩٣-٣٩٤ عند تفسير هذه الآيات: «يخبر ـ تعالى ـ عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والإخلاص له في التقوى، وطلب الرزق منه وحده لا شريك له، وتوحيده في الشكر؛ فإنه المشكور على النعم لا يسدي لها غيره».

إلى أن قال: « ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ وهذا أبلغ في الحصر كقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١].

ولهذا قال: ﴿فَابْتَغُوا﴾ أي: فاطلبوا ﴿عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾: أي لا عند غيره؛ فإن غيره لا يملك شيئاً ﴿وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾: أي كلوا من رزقه، واعبدوه وحده، واشكروا له على ما أنعم به عليكم» ا.هـ =

. . . .

= «**وقفات مع الشكر**»:

أولاً: تعريف الشكر في اللغة: قال الراغب: «الشكر تصور النعمة، وإظهارها، قيل: وهو مقلوب عن الكشر أي الكشف، ويضاده الكفر، وهو نسيان النعمة وسترها.

ودابة شكور: مظهرةٌ بسُمْنِها إسداءَ صاحبها إليها.

وقيل: أصله من عين شكْرى أي ممتلئة.

فالشكر على هذا هو الامتلاء من ذكر المُنْعِم عليه»[١].

تعريف الشكر في الشرع: حقيقة الشكر الشرعية قريبة من حقيقته في أصل اللغة.

قال ابن القيم: «وكذلك حقيقته في العبودية، وهو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناءً واعترافاً، وعلى قلبه شهوداً ومحبة، وعلى جوارحه انقياداً وطاعة»[٢].

ثانياً: أركان الشكر وقواعده: قال الراغب: «والشكر ثلاثة أضرب: شكر القلب، وهو تصور النعمة، وشكر اللسان، وهو الثناء على المنعم، وشكر سائر الجوارح وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقه»[٣].

(١) معجم مفردات ص٢٧٢.
(٢) مدارج السالكين ٢/ ٢٣٤.
(٣) معجم مفردات ص٢٧٢.

. . . .

= وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «والشكر مبني على خمس قواعد: خضوعه للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمته، وثناؤه عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره فهذه الخمس هي أساس الشكر، وبناؤه عليها؛ فمتى عدم منها واحدة اختل من قواعد الشكر قاعدة»[١].

ثالثاً: فضل الشكر وأهميته:

الشكر من أجلِّ العبوديات، ومن أعلى المنازل؛ فهو نصف الإيمان، والإيمان نصفان: نصف شكر، ونصف صبر.

وقد أمر الله بالشكر، ونهى عن ضده، وأثنى على أهله، ووصف به خواص خلقه، وجعله غاية خلقه وأمره، ووعد أهله بأحسن جزائه، وجعله سبباً للمزيد من فضله، وحارساً وحافظاً لنعمته.

وأخبر ـ عز وجل ـ أن أهله هم المنتفعون بآياته، واشتق لهم اسماً من أسمائه؛ فإنه ـ سبحانه ـ هو الشكور، وهو يوصل الشاكر إلى مشكوره، بل يعيد الشاكر مشكوراً.

وهو غاية الرب من عبده، وأهله هم القليل من عباده.

والشكر قيد النعم الموجودة، وحصيد النعم المفقودة.

وأدلة الكتاب والسنة متضافرة، شاهدة على ما مضى ذكره، والمجال لا يتسع لسردها[٢]. =

(١) مدارج ٢/ ٢٣٤.

(٢) انظر مدارج السالكين ٢/ ٢٣٢-٢٣٣.

. . . .

= **رابعاً: قصة عجيبة في الشكر:**

جاء في كتاب الثقات لابن حبان ـ رحمه الله ـ ٥/ ٢-٥ في ترجمة التابعي الجليل أبي قلابة ـ ما نصه:

أبو قِلابة ـ عبدالله بن زيد الجرمي، من عباد أهل البصرة وزهادهم، يروي عن أنس بن مالك ومالك بن الحويرث، روى عنه أيوب وخالد، مات بالشام سنة أربع ومائة في ولاية يزيد بن عبدالملك، حدثني بقصة موته محمد بن المنذر بن سعيد قال: ثنا يعقوب بن إسحاق بن الجراح، قال: ثنا الفضل بن عيسى عن بقية بن الوليد قال: ثنا الأوزاعي عن عبدالله ابن محمد قال: خرجت إلى ساحل البحر مرابطاً وكان رابطُنا يومئذ عريشَ مصر، قال: فلما انتهيت إلى الساحل فإذا أنا ببطيحة، وفي البطيحة خيمة فيها رجل قد ذهبت يداه ورجلاه، وثقل سمعه وبصره، وما له من جارحة تنفعه إلا لسانه، وهو يقول: اللهم أوزعني أن أحمدك حمداً أكافئ به شكر نعمتك التي أنعمت بها عليّ وفضلتني على كثير ممن خلقت تفضيلا.

قال الأوزاعي: قال: عبدالله قلت: والله لآتينَّ هذا الرجل، ولأسألنه أنى له هذا الكلام: فهم أم علم؟ أم إلهام ألهم؟

فأتيت الرجل فسلمت عليه فقلت: سمعتك وأنت تقول: اللهم أوزعني أن أحمدك حمداً أكافئ به شكر نعمتك التي أنعمت بها عليّ وفضلتني على كثير ممن خلقت تفضيلاً، فأي نعمة من نعم الله عليك=

. . . .

= تحمده عليها؟ وأي فضيلة تفضل بها عليك تشكره عليها؟

قال: وما ترى ما صنع بي ربي؟ والله لو أرسل السماء عليّ ناراً فأحرقتني، وأمر الجبال فدمرتني، وأمر البحار فغرقتني، وأمر الأرض فبلعتني، ما ازددت لربي إلا شكـراً؛ لما أنعم علي من لساني هذا، ولكن يا عبدالله: إذ أتيتني لي إليك حاجة، قد تراني على أي حالة أنا، أنا لست أقدر لنفسي على ضر ولا نفع، ولقد كان معي بُنَيٌّ لي يتعاهدني في وقت صلاتي، فيوضِّيني، وإذا جعت أطعمني، وإذا عطشت سقاني، ولقد فقدته منذ ثلاثة أيام فتحسسه لي رحمك الله، فقلت: والله ما مشى خلق في حاجة خلق كان أعـظم عند الله أجراً ممن يمشي في حاجة مثلك، فمضيت في طلب الغلام، فما مضيت غير بعيد حتى صرت بين كثبان من الرمل، فإذا أنا بالغلام قد افترسه سبع وأكل لحمه، فاسترجعت وقلت: أنى لي وجهُ رقيقٍ آتي به الرجل، فبينما أنا مقبل نحوه إذ خطر على قلبي ذكرُ أيوب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما أتيته سلمت عليه، فرد عليّ السلام، فقال: ألست بصاحبي؟ قلت: بلى! قال: ما فعلتَ في حاجتي؟ فقلت: أنت أكرم على الله أم أيوب النبي؟ قال: بل أيوب النبي، قلت: هل علمت ما صنع به ربه، أليس قد ابتلاه بماله وآله وولده؟ قال: بلى! قلت: فكيف وجده؟ قال: وجده صابراً شاكراً حامداً، قلت: لم يرض منه ذلك حتى أوحش من أقربائه وأحبابه قال: نعم، قلت: فكيف وجده ربه؟ قال: وجده صابراً شاكراً=

. . . .

= حامداً، قلت: فلم يرض منه بذلك حتى صيَّره عرضاً لمارٍّ الطريق هل علمت؟ قال: نعم، قلت: فكيف وجده ربه؟ قال: صابراً شاكراً حامداً، أوجز رحمك الله! قلت له: إن الغلام الذي أرسلتني في طلبه وجدته بين كثبان الرمل وقد افترسه سبع، فأكل لحمه؛ فأعظم الله لك الأجر وألهمك الصبر.

فقال المبتلى: الحمد لله الذي لم يخلق من ذريتي خلقاً يعصيه؛ فيعذبه بالنار، ثم استرجع، وشهق شهقة فمات، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، عظمت مصيبتي، رجل مثل هذا إن تركته أكلته السباع، وإن قعدت لم أقدر له على ضر ولا نفع، فسجَّيته بشملة كانت عليه، وقعدت عند رأسه باكياً، فبينما أنا قاعد إذ تهجَّم عليَّ أربعة رجال فقالوا: يا عبدالله! ما حالك وما قصتك؟ فقصصت عليهم قصتي وقصته، فقالوا لي: اكشف لنا عن وجهه فعسى أن نعرفه، فكشفت عن وجهه؛ فانكب القوم عليه يقبلون عينيه مرة، ويديه أخرى ويقولون: بأبي عين طال ما غضت عن محارم الله، وبأبي وجسمه طال ما كنت ساجداً والناس نيام، فقلت: من هذا يرحمكم الله؟ فقالوا: هذا أبو قلابة الجرمي صاحب ابن عباس، لقد كان شديد الحب لله وللنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فغسلناه وكفناه بأثواب كانت معنا، وصلينا عليه ودفناه، فانصرف القوم وانصرفت إلى رباطي، فلما أن جن عليّ الليل وضعت رأسي، فرأيته فيما يرى النائم في روضة من رياض الجنة، وعليه حلتان من =

. . . .

= حلل الجنة وهو يتلو الوحي ﴿سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤].

فقلت: ألست بصاحبي؟ قال: بلى! قلت: أنى لك هذا؟ قال: إن لله درجات لا تنال إلا بالصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء مع خشية الله ـ عز وجل ـ في السر والعلانية» ا ـ هـ.

بحيث يقطع العبد تعلق قلبه من المخلوقين، انتفاعاً بهم، أو عملاً لأجلهم[١].

١- هذا الكلام تفسير للكلام السابق؛ فينبوع الخير، وأصله، ومادته أن يخلص العبد لربه عبادة، واستعانة، وإنابة، وشكراً، ونحو ذلك.

وهذا يوجب له وعليه أن يقطع تعلق قلبه بالمخلوقين، حباً لهم، وخوفاً منهم، ورجاءًا ورياءًا لهم.

وبذلك يتخلص من أسرهم، ويتحرر من رقهم، ويسلم من مِنَّتهم؛ لأنه أوى إلى الركن الشديد الذي ينزله به حاجاته، ويستعين به في كافة أموره.

وهذا هو العز الحقيقي، والشرف العالي؛ إذ يكون بذلك متألهاً لله، متعبداً له، لا يرجو سواه، ولا يخشى غيره، لا ينيب إلا إليه، ولا يتوكل إلا عليه؛ وبهذا يتم فلاحه، ويتناهى عزه، وسؤدده.

قال ـ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وكلما قوي طمع العبد في فضل الله، ورحمته لقضاء حاجته، ودفع ضرورته قويت عبوديته له، وحريته مما سواه؛ فكما أن طمعه في المخلوق يوجب عبوديته له فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه، كما قيل: استغن عمن شئت تكن نظيره، وأَفْضِلْ على من شئت تكن أميره، واحْتَجْ لمن شئت تكن أسيره.

فكذلك طمع العبد في ربه، ورجاؤه له يوجب عبوديتَه له، وإعراضُ قلبه عن الطلب من الله، والرجاء له ـ يوجب انصراف قلبه عن العبودية=

. . . .

= لله، لاسيما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق، بحيث يكون قلبه معتمداً إما على رئاسته وجنوده وأتباعه ومماليكه، وإما على أهله وأصدقائه، وإما على أمواله وذخائره، وإما على ساداته وكبرائه، كمالكه، وملكه، وشيخه، ومخدومه، وغيرهم ممن قد مات أو يموت.

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨].

وكل مَن علَّق قلبه بالمخلوقين أن ينصروه، أو يرزقوه، أو أن يهدوه خضع قلبه لهم، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك، وإن كان في الظاهر أميراً مدبراً لأمورهم، متصرفاً بهم؛ فالعاقل ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر»[١].

إلى أن قال: «واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن؛ فإن من استعبد بدنه، واسترق لا يبالي إذا كان قلبه مستريحاً من ذلك مطمئناً، بل يمكنه الاحتيال في الخلاص.

وأما إذا كان القلب ـ الذي هو ملك الجسد ـ رقيقاً مستعبداً، متيماً لغير الله ـ فهذا هو الذل والأسر المحض، والعبودية الذليلة لما استعبد القلب»[٢]. =

(١) العبودية ص٩٤-٩٦.

(٢) العبودية ص٩٦.

. . . .

= إلى أن قال: «فأكمل الخلق، وأفضلهم، وأعلاهم، وأقربهم إلى الله، وأقواهم، وأهداهم ـ أتمهم عبودية لله من هذا الوجه»[١].

وقال ـ رحمه الله ـ: «ولن يستغني القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه، ولا يستعين إلا به، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يفرح إلا بما يحبه ويرضاه، ولا يكره إلا ما يبغضه الرب ويكرهه، ولا يوالي إلا من والاه الله، ولا يعادي إلا من عاداه الله، ولا يحب إلا الله، ولا يبغض شيئاً إلا لله، ولا يعطي إلا لله، ولا يمنع إلا لله؛ فكلما قوي إخلاص دينه لله كملت عبوديته، واستغناؤه عن المخلوقات»[٢].

هذا وسيأتي مزيد بسط لهذا المعنى.

---

(١) العبودية ص١١٠.

(٢) العبودية ص١١٤.

ويجعل همته ربه ـ تعالى ـ.(١)

١- قوله: «ويجعل همته ربه ـ تعالى ـ»: هذا الكلام معطوف على الكلام السابق في قوله: «بحيث يقطع...».

وقوله: «ويجعل همته ربه...»: الهمة: مأخوذة من الهم، والهم أصل صحيح.

والهمة، واحدة الهمم.

قال ابن منظور: «وهم بالشيء يهم هَمّاً: نواه، وأراده، وعزم عليه»[١].

وقال ابن فارس: «والهم ما هممت به، وكذلك الهمة»[٢].

وقال ابن منظور: «الهَمَّة، والهِمَّة: ما همَّ به من أمر ليفعله»[٣].

وقال ابن القيم: «والهِمة فِعْلَة من الهم، وهو مبدأ الإرادة، ولكن خصوها بنهاية الإرادة، فالهم مبدؤها، والهمة نهايتها»[٤].

ومعنى الكلام السابق وهو قول المؤلف: «ويجعل همته ربه..»: أي أنه على العبد أن يجمع قلبه، وإرادته، ونيته على ربه ـ تبارك وتعالى ـ بحيث يكون رضا ربه أكبر همه، وغاية قصده. =

(١) لسان العرب ١٢/ ٦٢٠.

(٢) معجم مقاييس اللغة ٦/ ١٣.

(٣) اللسان ١٢/ ٦٢١.

(٤) مدارج ٣/ ٥.

. . . .

= وذلك بصدق الإقبال عليه، وتتبع مراضيه، والبعد عن مساخطه، والاستعداد للقائه.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «الهمة العَليَّة من استعد صاحبها للقاء الحبيب»[1].

هذا وسيأتي مزيد بيان لهذا المعنى في الصفحات التالية.

---

(١) الفوائد ص١٠٤.

وذلك[١] بملازمة[٢] الدعاء[٣] له في كل مطلوب[٤]؛ من فاقـة[٥]، وحاجة[٦]، ومخافة[٧]، وغير ذلك[٨].

١- قوله: «**وذلك**» هذا شروع بتفسير قوله: «**ويجعل همتـه...**» في الكلام السابق.

٢- قوله: «**بملازمة**»: الملازمة، واللزوم، واللَّزْم، واللِزام بمعنى واحد، وهو أن يلزم الرجل الشيء ويلازمه: أي ألا يفارقه[١].

٣- قوله: «**بملازمة الدعاء له**»: أي أن يلازم دعاء الله، وسؤاله، والافتقار إليه، وألا يفارق ذلك.

قال الخطابي ـ رحمه الله ـ: «ومعنى الدعاء: استدعـاء العبد ربه ـ عز وجل ـ العناية، واستمداده إياه المعونة.

وحقيقته: إظهار الافتقار إليه، والتبرؤ من الحول، والقوة.

وهو سِمَةُ العبودية، واستشعار الذلة البشرية، وفيه معنى الثناء على الله ـ عز وجل ـ وإضافة الجود، والكرم إليه»[٢].

وعرف ابن القيم ـ رحمه الله ـ الدعاء بقوله: «طلب ما ينفع الداعي، وطلب كشف ما يضره»[٣].

٤- قوله: «**في كل مطلوب**»: أي أن يلازم دعاء الله، وسؤاله في=

---

(١) انظر لسان العرب ١٢/ ٥٤١.

(٢) شأن الدعاء للخطابي ص٤.

(٣) بدائع الفوائد ٣/ ٢.

. . . .

= تحقيق كل ما يريده من خير ديني أو دنيوي، سواء قل أم كثر، دقَّ أم جل.

٥- قوله: «**من فاقة**»: هذا تفسير للمطلوب، وقوله: «**من**»: بيانية لبيان جنس المطلوب.

وقوله: «**فاقة**»: الفاقة: الحاجة والفقر[(١)].

٦- قوله: «**وحاجة**»: الحاجة إلى الشيء: الفقر إليه مع محبته، قال ـ تعالى ـ: ﴿**إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا**﴾ [يوسف: ٦٨][(٢)].

٧- قوله: «**ومخافة**» المخافة، والخوف: هو كل ما يخافه الإنسان، قال الراغب: «الخوف: توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة»[(٣)].

وقيل: الخوف غم يلحق النفس؛ لتوقع مكروه.

وقيل: هو هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره.

٨- قوله: «**وغير ذلك**»: أي من الأمور الأخرى.

ومعنى كلام المؤلف ـ رحمه الله ـ: أن على الإنسان أن يجعل همه ربه، وذلك بأن لا يدع دعاء ربه، ولا يترك سؤاله ـ عز وجل ـ والافتقار إليه في أي أمر من الأمور سواء مما يرجوه، أو مما يخافه؛ =

---

(١) انظر لسان العرب ٣١٩/١٠.

(٢) انظر معجم مفردات ص١٣٤.

(٣) ص ١٣٤.

. . . .

= وذلك لأن الله يحب الدعاء ويحب المُلِحِّين فيه، بل إنه - عز وجل - يغضب إذا لم يسأل.

قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**»(١).

ولقد أحسن من قال:

لا تسألن بنيَّ آدمَ حاجةً وسلِ الذي أبوابُه لا تُحْجَبُ
اللهُ يَغْضَبُ إن تركتَ سؤالَه وبنيُّ آدم حين يُسأل يَغْضَبُ

هذا وسيأتي مزيد بيان عن الدعاء من مواضع آتية.

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٤٤٢، والترمذي (٣٣٧٣)، وابن ماجه (٣٨٢٦)، وصححه الحاكم ١/ ٤٩١، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٥١٢).

والعمل له بكل محبوب[1]...

١- هذا الكلام معطوف على قولـه: «**وذلك بملازمة الدعاء...**» ومعنى قوله: «**والعمل له بكل محبوب**»: أي التقرب إليه ـ عز وجل ـ بكل قربة مشروعة، سواء كانت واجبة أو مستحبة.

ومَنْ(١) أحكم(٢) هذا(٣) فلا يمكن(٤) أن يوصف(٥) ما يُعْقِبه(٦) ذلك.

=

١- قوله: «من»: من هنا شرطية.

٢- قوله: «أحكم»: أي أتقن الشيء، وأتى به على وجهه.

٣- قوله: «هذا» يعود الكلام على ما مضى من الإخلاص لله، وقطع التعلق بالمخلوقين، وجمع الهمة على الله، والتقرب إليه ـ عز وجل ـ ونحو ذلك مما مضى ذكره.

٤- قوله: «فلا يمكن»: الفاء رابطة لجواب الشرط.

وقوله: «فلا يمكن» أي لا يُتَصور، ولايُستطاع، ولا يُقْدَر.

٥- قوله: «أن يوصف» أي أن يذكر على حقيقته وصفته التي يكون عليها.

٦- قوله: «ما يعقبه ذلك»: أي ما يتركه، وما يورِّثه ذلك العمل من أثر حسن.

ومعنى الفقرة السابقة: أن من أحسن عبادة ربه، وجاء بها تماماً على الوجه الشرعي المطلوب، وأتقن هذا الأمر إخلاصاً لله، وحباً له، ورجاء لثوابه، وخوفاً من عقابه ـ فلا يتصور أن يوصف ما يورثه ذلك من المسرات، والأفراح، واللذة، والسعادة التي لا تخطر بالبال، ولا يمكن وصف كنهها وحقيقتها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «من أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية»(١).

=

(١) مدارج السالكين ١/ ٤٢٩.

. . . .

= وقال ابن حزم ـ رحمه الله ـ: «وليس في العالم مذ كان إلى أن يتناهى ـ أحد يستحسن الهم، ولا يريد طرده عن نفسه؛ فلما استقر في نفسي هذا العلم الرفيع، وانكشف لي هذا السر العجيب، وأنار الله ـ تعالى ـ لفكري هذا الكنز العظيم ـ بحثت عن سبيل موصلة على الحقيقة إلى طرد الهم الذي هو المطلوب للنفس الذي اتفق عليه جميع أنواع الإنسان ـ الجاهل منهم والعالم، والصالح، والطالح ـ على السعي له، فلم أجدْها إلا في التوجه إلى الله ـ عز وجل ـ بالعمل للآخرة».

إلى أن قال: «ووجدت العمل للآخرة ـ سالماً من كل عيب، خالياً من كل كدر ـ موصلاً إلى طرد الهم على الحقيقة، ووجدت العامل للآخرة إن امتحن بمكروه في تلك السبيل لم يهتم، بل يسر؛ إذ رجاؤه في عاقبة ما ينال به عونٌ له على ما يطلب، وزايدٌ في الغرض الذي إياه يقصد، ووجدته إن عاقه عما هو بسبيله عائق لم يهتم؛ إذ ليس مؤاخذاً بذلك؛ فهو غير مؤثر فيما يطلب.

ورأيته إن قصد بالأذى سُرَّ، وإن نكبتْهُ نكبةٌ سُرَّ، وإن تعب فيما سلك فيه سُرَّ؛ فهو في سرور أبداً، وغيره بخلاف ذلك أبداً؛ فاعلم أنه مطلوب واحد، وهو طرد الهم، وليس إليه إلا طريق واحد، وهو العمل لله ـ تعالى ـ فما عدا ذلك فضلال وسُخف»[1]. =

---

(١) الأخلاق والسير ص١٤-١٦.

. . . .

= وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في معرض حديث له عما يجده أهل الظلم والفجور في نفوسهم من الخوف، والعذاب، وما يجده أهل الإيمان في قلوبهم من الطمأنينة وانشراح الصدر وما جرى مجرى ذلك، قال: «ولهذا تجد القوم من الظالمين أعظم الناس فجوراً، وفساداً، وطلباً لما يروِّحون به أنفسهم من مسموع، ومنظور، ومشموم، ومأكول، ومشروب.

ومع هذا فلا تطمئن قلوبهم بشيء من ذلك، هذا فيما ينالونه من اللذة.

وأما ما يخافونه من الأعداء فهم أعظم الناس خوفاً، ولا عيشة لخائف.

وأما العاجز منهم فهو في عذاب عظيم، ولا يزال في أسف على ما فاته، وعلى ما أصابه.

وأما المؤمن فهو ـ مع مقدرته ـ له من الإرادة الصالحة، والعلوم النافعة ما يوجب طمأنينة قلبه، وانشراح صدره بما يفعله من الأعمال الصالحة.

وله من الطمأنينة، وقرة العين ما لا يمكن وصفه.

وهو ـ مع عجزه أيضاً ـ له من أنواع الإرادات الصالحة، والعلوم النافعة التي يتنعم بها ما لا يمكن وصفه.

وكل هذا محسوس مجرب، وإنما يقع غَلَطُ أكثرِ الناس أنه قد أحس=

. . . .

= بظاهر من لذات أهل الفجور، وذاقها، ولم يذُقْ لذاتِ أهل البر، ولم يخبرْها»[١].

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ مبيناً عظم حاجة الإنسان إلى إقباله على ربه، وعبادته له، وأن ذلك هو سبيل السعادة، والراحة، قال: «ففي القلب شعثٌ لا يَلُمُّه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشةٌ لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته، وصِدْقِ معاملته، وفيه قلقٌ لا يسكنه إلا الاجتماع عليه، والفرار منه إليه، وفيه نيرانُ حسراتٍ لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه، وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه، وفيه طلب شديد لا يقف دون أن يكون هو وحده مطلوبَه، وفيه فاقةٌ لا يسدها إلا محبته، والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له.

ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تسدَّ تلك الفاقة منه أبداً»[٢].

«نماذج وأمثلة لأحوال أهل الإيمان»

١ - هذا الإمام العادل الزاهد عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ يقول: «أصبحت ومالي سرور إلا في مواضع القضاء والقدر»[٣]. =

---

(١) جامع الرسائل ٢/ ٣٦٢-٣٦٣.

(٢) مدارج السالكين ٣/ ١٥٦.

(٣) سيرة عمر بن عبدالعزيز لابن عبدالحكم ص٩٧.

. . . .

= ٢- وهذا الزاهد العابد إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله ـ يقول: «نحن ـ والله ـ الملوك الأغنياء، نحن الذين قد تَعجَّلنا الراحة في الدنيا، لا نبالي على أي حال أصبحنا وأمسينا إذا أطعنا الله ـ عز وجل ـ»[١].

٣- وهذا مالك بن دينار ـ رحمه الله ـ يقول: «ما تنعَّم المتنعمون بمثل ذكر الله»[٢].

٤- وهذا أحد العباد يقول عن حاله: «إنه ليمر بالقلب أوقات يهتز فيها طرباً بأنسه بالله، وحبِّه له»[٣].

٥- وهذا آخر يقول: «إنه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب»[٤].

٦- وقال آخر: «مساكين أهل الغفلة؛ خرجوا من الدنيا، وما ذاقوا أطيب ما فيها»[٥].

٧- وقال آخر: «لو علم الملوك، وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف»[٦]. =

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم ٧/ ٣٧٠.
(٢) حلية الأولياء ٢/٣٥٨.
(٣) إغاثة اللهفان لابن القيم ص٥٦٧.
(٤) إغاثة اللهفان ص٥٦٧.
(٥) إغاثة اللهفان ص٥٦٧.
(٦) إغاثة اللهفان ٥٧٦.

. . . .

= ٨- بل هذا شيخ الإسلام ابن تيمية نفسه نموذج لما يجده المؤمن في قلبه من الأنس بالله ـ عز وجل ـ مهما كانت حاله.

يقول ـ رحمه الله ـ: «إن في الدنيا جنةً من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة»[(١)].

ويقول: «الإنسان يجد في قلبه بذكر الله، وذكر محامده، وآلائه، وعبادته ـ ما لا يجده بشيء آخر»[(٢)].

ويقول ـ رحمه الله ـ لما ضويق، وأودع غياهب السجن: «ما يصنع بي أعدائي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، أين رُحْتُ فهي معي لا تفارقني؛ أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة»[(٣)].

ويقول ابن القيم متحدثاً عن شيخه ابن تيمية ـ رحمهما الله ـ: «وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بذلت ملء هذه القلعة ذهباً ما عدل ذلك عندي شكر هذه النعمة، أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا إليّ فيه من الخير، ونحو هذا.

وكان يقول في سجوده وهو محبوس: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك، ما شاء الله. =

(١) الوابل الصيب ص٦٩.

(٢) منهاج السنة النبوية ٥/ ٣٨٩.

(٣) ذل طبقات الحنابلة لابن رجب ٢/ ٤٠٢، وانظر الوابل الصيب ص٦٩.

. . . .

= وقال لي مرة: المحبوس من حُبِس قلبه عن ربه - تعالى - والمأسور من أسره هواه.

ولما دخل القلعة، وصار داخل سورها نظر إليه، وقال: فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب».

ويواصل ابن القيم حديثه عن ابن تيمية فيقول: «وعلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرفاهية، والنعيم، بل ضدها.

ومع ما كان فيه من الحبس، والتهديد، والإرهاق.

وهو - مع ذلك - من أطيب الناس عيشاً، وأشرحهم صدراً، وأقواهم قلباً، وأسرِّهم نفساً تلوح نضرة النعيم على وجهه.

وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض - أتيناه؛ فما هو إلا أن نراه، ونسمع كلامه؛ فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحاً، وقوةً، ويقيناً، وطمأنينة؛ فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من رَوْحها، ونسيمها، وطيبها - ما استفرغ قواهم لطلبها، والمسابقة إليها»[1].

---

(١) الوابل الصيب ص٦٩-٧٠.

وأما ما سألتَ عنه[١] من أفضل الأعمال بعد الفرائض[٢]

١- قوله: «وأما ما سألت عنه»: المعنيُّ بذلك هو السائل أبو القاسم المغربي؛ لأنه سأل عن أفضل الأعمال الصالحة بعد الواجبات.

٢- قوله: «من أفضل الأعمال بعد الفرائض»: أي أفضل القربات المستحبة بعد الواجبات المفروضة.

وهذا شروع في الحديث عن تفاضل الأعمال الصالحة المندوبة المستحبة، كنوافل العبادات ونحوها.

أما الفرائض فهي واجبة، ومطلوبة من كل أحد، ويزداد أجرها، ويعظم ويتضاعف بحسب تكميلها، وإيقاعها على أحسن الوجوه.

وهي معروفة محددة بالنص عليها، لا يعذر أحد بتركها إلا لعذر شرعي، كالصلاة، والزكاة، وصيام رمضان، وحج بيت الله الحرام، ونحو ذلك من فعل الواجبات، وترك المحرمات.

والفرائض هي أحب الأعمال إلى الله ـ عز وجل ـ.

جاء في صحيح البخاري (٦٥٠٢) عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «إن الله ـ تعالى ـ قال: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه». =

. . . .

= قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ في شرح هذا الحديث: «وقوله: «**وما تقرب إليَّ عبدي...**» الحديث: لما ذكر أن معاداة أوليائه محاربةٌ له ذكر بعد ذلك وصف أوليائه الذين تحرم معاداتهم، وتجب موالاتهم؛ فذكر ما يتقرب به إليه.

وأصل الولاية: القرب، وأصل العداوة: البعد؛ فأولياء الله هم الذين يتقربون إليه بما يقربهم منه، وأعداؤه الذين أبعدهم عنه بأعمالهم المتقتضية لطردهم، وإبعادهم، فَقَسم أولياءه المقربين إلى قسمين:

أحدهما: من تقرب إليه بأداء الفرائض، ويشمل ذلك فعل الواجبات، وترك المحرمات؛ لأن ذلك كله من فرائض الله التي افترضها على عباده.

والثاني: من تقرب إليه بعد الفرائض بالنوافل؛ فظهر بذلك أنه لا طريق يوصل إلى التقرب إلى الله ـ تعالى ـ وولايته، ومحبته سوى طاعته التي شرعها على لسان رسوله؛ فمن ادعى ولاية الله، والتقرب إليه، ومحبته بغير هذه الطريق تبين أنه كاذب في دعواه»(١).

إلى أن قال ـ رحمه الله ـ: «فلذلك ذكر في هذا الحديث أن أولياء الله على درجتين:

أحدهما: المتقربون إليه بأداء الفرائض، وهذه درجة المقتصدين أصحاب اليمين. =

(١) جامع العلوم والحكم ٢/ ٣٣٥-٣٣٦

. . . .

= والدرجة الثانية: درجة السابقين المقربين.

وهم الذين تقربوا إلى الله بعد الفرائض بالاجتهاد في نوافل الطاعات، والانكفاف عن دقائق المكروهات بالورع، وذلك يوجب للعبد محبة الله»[١].

(١) جامع العلوم ٢/ ٣٣٦-٣٣٧.

فإنه يختلف باختلاف الناس فيما يقدرون عليه، وما يناسب أوقاتهم فلا يمكن فيه جواب جامع مفصل لكل أحد.(١)

=

---

١ - يعني أن أفضل الأعمال بعد الفرائض يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال، ولم يفصِّل شيخ الإسلام الحديث في هذه المسألة؛ لأن المقام لا يحتمل ذلك، ولكن ذكر هذه المسألة بشيء من التفصيل في مواضع أخرى من كتبه، ومن ذلك ما ذكره في مجموع الفتاوى ١٠/ ٤٢٧-٤٢٩ عندما تحدث عن أفضل الأعمال وأن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، والأحوال وأجناس العبادات، ونحو ذلك؛ حيث قال: «وقد تقدم أن الأفضل يتنوع تارة بحسب أجناس العبادات، كما أن جنس الصلاة أفضل من جنس القراءة، وجنس القراءة أفضل من جنس الذكر، وجنس الذكر أفضل من جنس الدعاء.

وتارة يختلف باختلاف الأوقات؛ كما أن القراءة والذكر والدعاء بعد الفجر والعصر هو المشروع دون الصلاة.

وتارة باختلاف عمل الإنسان الظاهر؛ كما أن الذكر والدعاء في الركوع والسجود هو المشروع دون القراءة، وكذلك الذكر والدعاء في الطواف مشروع بالاتفاق، وأما القراءة في الطواف ففيها نزاع معروف.

وتارة باختلاف الأمكنة كما أن المشروع بعرفة، والمزدلفة، وعند الجمار، وعند الصفا والمروة ـ هو الذكر، والدعاء دون الصلاة ونحوها.

والطواف بالبيت للوارد أفضل من الصلاة، والصلاة للمقيمين بمكة أفضل.

=

. . . .

= وتارة باختلاف مرتبة جنس العبادة؛ فالجهاد للرجال أفضل من الحج، وأما النساء فجهادهن الحج.

والمرأة المتزوجة طاعتها لزوجها أفضل من طاعتها لأبويها، بخلاف الأيِّمة؛ فإنها مأمورة بطاعة أبويها.

وتارة يختلف باختلاف حال قدرة العبد وعجزه؛ فما يَقْدِر عليه من العبادات أفضل في حقه مما يعجز عنه، وإن كان جنس المعجوز عنه أفضل.

وهذا باب واسع يغلو فيه كثير من الناس، ويتبعون أهواءهم؛ فإن من الناس من يرى أن العمل إذا كان أفضل في حقه لمناسبته له، ولكونه أنفع لقلبه، وأطوع لربه ـ يريد أن يجعله أفضل لجميع الناس، ويأمرهم بمثل ذلك.

والله بعث محمداً بالكتاب والحكمة، وجعله رحمة للعباد، وهدياً لهم يأمر كل إنسان بما هو أصلح له؛ فعلى المسلم أن يكون ناصحاً للمسلمين، يقصد لكل إنسان ما هو أصلح.

وبهذا تبين لك أن من الناس من يكون تطوعه بالعلم أفضل له، ومنهم من يكون تطوعه بالجهاد أفضل له، ومنهم من يكون تطوعه بالعبادات البدنية ـ كالصلاة والصيام ـ أفضل له.

والأفضل مطلقاً ما كان أشبه بحال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ باطناً وظاهراً؛ فإن خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ. =

. . . .

= والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم».

وقال ـ رحمه الله ـ قبل ذلك ١٠/ ٤٢٥-٤٢٦ حين سئل: هل الأفضل للسالك: العزلة أو الخلطة؟

فأجاب: «فهذه المسألة وإن كان الناس يتنازعون فيها إما نزاعاً كلياً وإما حالياً؛ فحقيقة الأمر أن الخلطة تارة تكون واجبة، أو مستحبة، والشخص الواحد قد يكون مأموراً بالمخالطة تارة، وبالانفراد تارة.

وجماع ذلك أن المخالطة إن كان فيها تعاون على البر والتقوى فهي مأمور بها، وإن كان فيها تعاون على الإثم والعدوان فهي منهيٌّ عنها؛ فالاختلاط بالمسلمين في جنس العبادات كالصلوات الخمس، والجمعة، والعيدين، وصلاة الكسوف، والاستسقاء، ونحو ذلك هو مما أمر الله به ورسوله.

وكذلك الاختلاط بهم في الحج، وفي غزو الكفار، والخوارج المارقين وإن كانوا أئمة ذلك فجاراً، وإن كان في تلك الجماعات فجارٌ.

وكذلك الاجتماع الذي يزداد بِه العبد إيماناً، إما لانتفاعه به، وإما لنفعه له، ونحو ذلك.

ولابد للعبد من أوقات ينفرد بها بنفسه في دعائه، وذكره، وصلاته، وتفكُّره، ومحاسبة نفسه، وإصلاح قلبه، وما يختص به من الأمور التي لا يشركه فيها غيره؛ فهذه يحتاج فيها إلى انفراده بنفسه، إما في بيته=

. . . .

= كما قال طاووس: نعم صومعةُ الرجل بيته، يكفُّ فيها بصره ولسانه، وإما في غير بيته.

فاختيار المخالطة مطلقاً خطأ، واختيار الانفراد مطلقاً خطأ.

وأما مقدار ما يحتاج إليه كل إنسان من هذا وهذا، وما هو الأصلح له في كل حال ـ فهذا يحتاج إلى نظر خاص كما تقدم» ا.هـ

وبهذا البيان الجلي من كلام شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ يتبين لنا أن تفضيل بعض الأعمال على بعض يختلف من حال إلى حال، ومن شخص إلى شخص، ومن وقت إلى وقت.

وعلى هذا فإنه لا ينكر على من فُتح عليه بابٌ من أبواب الخير دون أن يفتح عليه في غيره؛ فكل ميسر لما خلق له، وقد علم كل أناس مشربهم.

والإنسان بحاجة إلى ما يقربه إلى ربه، والأمة بحاجة إلى كل جهدٍ مِنْ شأنه أن يرفع راية الإسلام، ويحبب الناس فيه؛ فلا غرو، ولا غضاضة ـ إذاً ـ أن تتنوع الأعمال ما دامت على مقتضى الشرع؛ فهذا يكب على العلم والبحث والتأليف، وذاك يقوم بتعليم الناس عبر الدروس، وهذا يسد ثغرة الجهاد، وذاك يقوم بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا يقوم على رعاية الأرامل والأيتام، ويتعاون مع جمعيات البر المعنية بهذا الشأن، وذاك يقوم بتربية الشباب في محاضن التربية والتعليم، وهذا يقوم بتعليم الناس كتاب الله، وتحفيظهم إياه، وذاك=

. . . .

= يعنى بشؤون المرأة، وما يحاك حولها، وهذا يهتم بعمارة المساجد، ودلالة المحسنين على ذلك، وذاك يسعى في تنظيم الدروس والمحاضرات والدورات العلمية، وتسهيل مهام أهل العلم في ذلك الشأن، وهذا يعنى بالجاليات التي تفد إلى بلاد المسلمين يعلمهم أمور دينهم إن كانوا مسلمين، ويدعوهم إلى الإسلام إن كانوا غير مسلمين، وذاك يعنى بالمسلمين في بقاع الأرض؛ حيث يسعى في تعليمهم، وبيان قضاياهم، ويحرص على رفع الظلم عنهم، وذاك يسعى سعيه في الإصلاح بين الناس، وهذا يقوم بشؤون الموتى من تغسيلهم، ودفنهم ونحو ذلك، وذاك منقطع للعبادة، والذكر، والتلاوة، وعمارة بيوت الله، وهذا مفتوح عليه باب الصيام، وذاك مفتوح عليه باب الصلاة، وهذا مفتوح عليه باب الصدقة، وذاك الفذُّ الجامع لأكثر تلك الخصال وهكذا. . .

هذا وقد فصل ابن القيم ـ رحمه الله ـ القول في هذه المسألة في كتابه مدارج السالكين لما تكلم على أفضل العبادة، وأنفعها، فأتى بكلام نفيس عظيم قريب من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية السابق.

قال ـ رحمه الله ـ في المدارج ١/ ١٠٦: «ثم أهل مقام ﴿إياك نعبد﴾ لهم في أفضل العبادة وأنفعها، وأحقها بالإيثار التخصيص أربع طرق؛ فهم في ذلك أربعة أصناف».

ثم شرع في ذكر تلك الأصناف فقال ١/ ١٠٦: «الصنف الأول: عندهم أنفع العبادات، وأفضلها أشقها على النفوس، وأصعبها. =

. . . .

= قالوا: لأنه أبعد الأشياء عن هواها، وهو حقيقة التعبد».

ثم شرع في بسط حججهم، ثم انتقل إلى الصنف الثاني فقال ١/ ١٠٧: «الصنف الثاني: قالوا: أفضل العبادات التجرد، والزهد في الدنيا، والتقلل منها غاية الإمكان، واطِّراح الاهتمام بها، وعدم الاكتراث بكل ما هو منها».

ثم شرع في شرح قولهم، ثم انتقل إلى الصنف الثالث فقال ١/ ١٠٧-١٠٨: «الصنف الثالث: رأو أن أنفع العبادات ما كان فيه نفع متعدٍّ؛ فرأوه أفضل من ذي النفع القاصر، فرأو خدمة ا لفقراء، والاشتغال بمصالح الناس، وقضاء حوائجهم، ومساعدتهم بالمال، والجاه، والنفع، فتصدوا له، وعملوا عليه».

ثم شرع في شرح رأي أولئك، وانتقل بعد ذلك إلى الصنف الرابع، وبسط القول فيه أكثر مما قبله، وكأنه ـ رحمه الله ـ قد ارتضى ذلك الرأي، فإليك كلامه في ذلك الصنف بتمامه، يقول ـ رحمه الله ـ في المدارج ١/ ١٠٩-١١١: «الصنف الرابع قالوا: إن أفضل العبادة: العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضي ذلك الوقت، ووظيفته؛ فأفضل العبادات في وقت الجهاد الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد من صلاة الليل، وصيام النهار، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض كما في حال الأمن.

والأفضل في وقت حضور الضيف ـ مثلاً ـ القيام بحقه، والاشتغال=

. . . .

= به عن الورد المستحب، وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل.

والأفضل في أوقات السحر: الاشتغال بالصلاة والقرآن، والدعاء والذكر والاستغفار.

والأفضل في وقت استرشاد الطالب، وتعليم الجاهل: الإقبال على تعليمه، والاشتغال به.

والأفضل في أوقات الأذان: ترك ما هو فيه من ورده، والاشتغال بإجابة المؤذن.

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس: الجد، والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أول الوقت، والخروج إلى الجامع، وإن بَعُد كان أفضل.

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه، أو البدن، أو المال: الاشتغال بمساعدته، وإغاثة لهفته، وإيثار ذلك على أورادك وخَلْوَتك.

والأفضل في وقت قراءة القرآن جمعيةُ القلب، والهمةِ على تدبره وتفهمه، حتى كأن الله ـ تعالى ـ يخاطبك به؛ فتجمع قلبك على فهمه وتدبره، والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك.

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة: الاجتهاد في التضرع، والدعاء، والذكر دون الصوم المُضعفِ عن ذلك. =

. . . .

= والأفضل في أيام عشر ذي الحجة: الإكثار من التعبد، لاسيما التكبير والتهليل والتحميد؛ فهو أفضل من الجهاد غير المتعين.

والأفضل في العشر الأخير من رمضان: لزوم المسجد فيه، والخلوة، والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلمَ، وإقرائهم القرآنَ عند كثير من العلماء.

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم، أو موته: عيادته، وحضور جنازته، وتشييعه، وتقديم ذلك على خلوتك وجَمْعِيَّتِكَ.

والأفضل في وقت نزول النوازل، وأذاة الناس لك: أداءُ واجبِ الصبر مع خلطتك بهم، دون الهرب منهم؛ فإن المؤمن الذي يخالط الناس؛ ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم، ولا يؤذونه.

والأفضل خُلْطَتُهم في الخير؛ فهي خير من اعتزالهم فيه، واعتزالهم في الشر؛ فهو أفضل من خلطتهم فيه.

فإن عَلِم أنه إذا خالطهم أزاله أو قَلَّله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم.

فالأفضل في كل وقت وحال: إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال، والاشتغال بواجب ذلك الوقت، ووظيفته، ومقتضاه.

وهؤلاء هم أهل التعبُّد المطلق، والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد؛ فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه=

. . . .

= كأنه قد نقص، وترك عبادته؛ فهو يعبد الله على وجه واحد.

وصاحبُ التعبد المطلق ليس له غرض في تعبُّدٍ بعينه يُؤثره على غيره، بل غرضه تتبع مرضاة الله ـ تعالى ـ أين كانت؛ فمدارُ تعبُّدِه عليها؛ فهو لا يزال متنقلاً في منازل العبودية، كلما رفعت له منزلةٌ عَمِلَ على سيره إليها، واشتغل بها حتى تلوح له منزلةٌ أخرى؛ فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره؛ فإن رأيت العلماء رأيته معهم، وإن رأيت العباد رأيته معهم، وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم، وإن رأيت أرباب الجَمْعِيَّة وعكوف القلب على الله رأيته معهم؛ فهذا هو العبد المطلق، الذي لم تملكه الرسوم، ولم تقيِّده القيود، ولم يكن عمله على مراد نفسه، وما فيه لذتها، وراحتها من العبادات، بل هو على مراد ربه، ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه؛ فهذا هو المتحقق بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حقاً، القائم بهما صدقاً، مَلْبَسُه ما تهيأ، ومأكلُه ما تيسر، واشتغاله بما أمر الله به في كل وقت بوقته، ومجلسه حيث انتهى به المكان، ووجده خالياً، لا تملكه إشارة، ولا يتعبده قيد، ولا يستولي عليه رسم، حُرٌّ مجرد، دائرٌ مع الأمر حيث دار، يدين بدين الآمر أنى توجهت ركائبه، ويدور معه حيث استقلت مضاربه، يأنس به كلُّ محقٍّ، ويستوحش منه كل مبطل، كالغيث حيث وقع نفع، وكالنخلة لا يسقط ورقها، وكلُّها منفعة حتى شوكُها، وهو موضع الغلظة

. . . .

= منه على المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتهكت محارم الله؛ فهو لله، وبالله ومع الله، قد صحب الله بلا خلق، وصحب الناس بلا نفس، بل إذا كان مع الله عزل الخلائق عن البين، وتخلى عنهم، وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها، فواهـاً له! ما أغْرَبَه بين الناس! وما أشدَّ وحشته منهم! وما أعظم أنسه بالله وفرحه به، وطمأنينته وسكونه إليه!! والله المستعان. وعليه التكلان» ا.هـ

هذا وسيأتي مزيد بسط لهذه المسألة.

لكن[١] مما هو كالإجماع[٢] بين العلماء بالله وأمره[٣] أن ملازمة ذكر الله دائماً هو أفضل ما شغل العبدُ به نفسه في الجملة[٤]؛

١- قوله: «**لكن**» هذا استدراك، أو عطف على ما مضى من الحديث عن أفضل الأعمال، وأرجح المكاسب.

٢- قوله: «**كالإجماع**»: أي أشبه ما يكون بالإجماع، أو قريب من أن يكون إجماعاً.

و«**الإجماع**»: مأخوذ من جمع، فهو مصدر الفعل أجمع، وأصل المادة جمع.

قال ابن فارس ـ رحمه الله ـ: «الجيم، والميم، والعين أصل واحد يدل على تضام الشيء، يقال: جمعت الشيء جمعاً».

وقال: «وأجمعت على الأمر إجماعاً وأجمعته»[١].

وقال الشوكاني ـ رحمه الله ـ في إرشاد الفحول ١/ ٢٨٥: «قال في المحصول: الإجماع يقال بالاشتراك على معنيين: أحدهما العزم.. وثانيهما: الاتفاق».

وقال: «وقال القاضي: العزم يرجع إلى الاتفاق؛ لأن من اتفق على شيء فقد عزم عليه» ا.هـ

هذا معنى الإجماع في اللغة.

«وأما في الاصطلاح: فهو اتفاق مجتهدي أمة محمد ـ صلى الله=

---

(١) معجم مقاييس اللغة ١/ ٤٧٩-٤٨٠.

. . . .

= عليه وآله وسلم ـ بعد وفاته في عصر من الأعصار على أمر من الأمور»[1].

٣- قوله: **«بين العلماء بالله وأمره»**: العلماء بالله: هم العلماء بعظمة الله، ووقاره، وما يليق به ـ عز وجل ـ.

و**«أمره»**: أي العلماء بما أمر الله به، وبما نهى عنه في كتابه، وعلى لسان رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

فمن كان كذلك فهو جامع بين العلم بالله، وأمره؛ فهو معظم لله، معظم لأمر الله، وتعظيم الأمر تعظيم للآمر.

وهناك من هو عالم بالله، لكنه ليس عالماً بأمر الله، وهناك من هو عالم بأمر الله، لكنه ليس عالماً بالله.

والكمال في هذا أن يكون الإنسان عالماً بالله، وبأمره ـ عز وجل ـ.

٤- قوله: **«أن ملازمة ذكر الله دائماً هو أفضل ما شغل العبد به نفسه في الجملة»**: أي أن الإكثار من ذكر الله، وتركَ مفارقته، واللهجَ به على كل حال هو خير ما يفعله العبد، ويشغل به نفسه على وجه العموم.

وقوله **«في الجملة»**: أي على وجه العموم، والإطلاق، دون تفصيل، أو تخصيص، أو تقييد، لأنه قد تعرض أحوال يكون فيها بعض الأعمال أفضل من بعض، بل قد يعرض للمفضول ما يجعله أولى من الفاضل.

وذلك يختلف باختلاف الأحوال، والأشخاص، وقد مر تفصيل ذلك عند الحديث عن أفضل الأعمال بعد الفرائض.

(١) إرشاد الفحول ١/٢٨٦.

وعلى ذلك[١] دل حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم[٢]: «سبق المُفَرِّدون»

قالوا: يا رسول الله! ومن المفردون؟

قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات».

وفيما رواه أبو داود[٣] عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب، والوَرِق، ومن أن تلقوا عدوّكم، فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: ذكر الله».

١- قوله: «وعلى ذلك»: أي على فضل ملازمة الذكر.

٢- في الصحيح (٢٦٧٦) عن أبي هريرة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مر على جبل يقال له: جُمْدان، فقال: «سيروا هذا جمدان قد سبق...»[١] الحديث.

ورواه أحمد ٢/ ٣٢٣، والترمذي (٣٥٩٦)، وابن حبان (٨٥٨).

٣- لم أجده عند أبي داود، والحديث رواه أحمد ٥/ ١٩٥ , و٦/ ٤٤٧، والترمذي (٣٣٧٧)، وابن ماجه (٣٧٩٠)، وصححه الحاكم ١/ ٤٩٦، ووافقه الذهبي.

والدلائل[١] القرآنية[٢]، والإيمانية[٣] بصراً[٤]، وخبراً[٥]، ونظراً[٦] على ذلك[٧] كثيرة[٨].

١- قوله: «**الدلائل**»: جمع دليل، والدليل ما يستدل به، ويتوصل إلى معرفة الشيء[١].

٢- قوله: «**القرآنية**»: أي من القرآن الكريم.

٣- قوله: «**الإيمانية**»: أي الأدلة الإيمانية على فضل الذكر من الأحوال، والمقامات التي تحصل بسببه، كالقوة، والأنس، ونحو ذلك مما سيرد ذكره.

٤- قوله: «**بصراً**»: أي ما يشاهد ويبصر بالعيان.

٥- قوله: «**وخبراً**»: أي ما يسمع من أخبار أهل الذكر، وما يعلم من أحوال القائمين به.

٦- قوله: «**ونظراً**»: أي ما يعقل من ذلك، ويدرك بالنظر، والتأمل، والتجربة، والحال.

٧- قوله: «**على ذلك**»: أي على فضل الذكر، وعموم نفعه.

٨- قوله: «**كثيرة**»: أي متضافرة، متظاهر، متعددة، متنوعة، بل لا تكاد تحصى كثرة، وقد مر بعضها.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الأحزاب: ٤١, ٤٢].

وقال: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]. =

---

(١) معجم مفردات ص١٧٣، ولسان العرب ١١/٢٤٨.

. . . .

= وقال: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].
وقال: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١].

«من فوائد الذكر»:

هذه نبذة مختصرة عن فوائد الذكر دون تفصيل أو ذكر للأدلة، ومن خلال ذلك يتبين عظم شأن الذكر، ودلائل فضله.

وإذا أردت البسط، والتفصيل، وذكر الأدلة فارجع إلى الكتب التي عنيت بهذا الشأن، وعلى رأسها كتاب «الوابل الصيب» لابن القيم من ص ٦١- إلى آخر الكتاب.

فمن فوائد الذكر على سبيل الإجمال مايلي:

١- أنه يطرد الشيطان.

٢- يرضي الرحمن.

٣- يزيل الهم والغم.

٤- يجلب البسط والسرور.

٥- ينور الوجه.

٦- يجلب الرزق.

٧- يورث محبة الله للعبد.

٨- يورث محبة العبد لله، ومراقبته ـ عز وجل ـ ومعرفته، والرجوع=

. . . .

= إليه، والقرب منه.

٩- يورث ذكر الله للذاكر.

١٠- يحيي القلب.

١١- يزيل الوحشة بين العبد وربه.

١٢- يحط السيئات.

١٣- ينفع صاحبه عند الشدائد.

١٤- أنه سبب لتنزل السكينة، وغشيان الرحمة، وحفوف الملائكة.

١٥- أن فيه شغلاً عن الغيبة والنميمة، والفحش من القول.

١٦- أن يؤمِّن من الحسرة يوم القيامة.

١٧-أنه مع البكاء من خشية الله سبب لإظلال الله للعبد يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله.

١٨- الذكر أمان من نسيان الله.

١٩- أنه أمان من النفاق.

٢٠- أنه أيسر العبادات، وأقلها مشقة، ومع ذلك فهو يعدل عتق الرقاب، ويرتب عليه من الجزاء مالا يرتب على غيره.

٢١- أنه غراس الجنة.

٢٢- أنه يغني القلب، ويسد حاجته.

٢٣- يجمع على القلب ما تفرق من إراداته وعزومه.

٢٤- ويفرق عليه ما اجتمع من الهموم، والغموم، والأحزان، والأنكاد، =

. . . .

= والحسرات.
٢٥- ويفرق عليه ـ أيضاً ـ ما اجتمع على حربه من شياطين الإنس والجن.
٢٦- يقرب من الآخرة، ويباعد من الدنيا.
٢٧- يعطي الذاكر قوة، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في الوابل ص١٠٦:
«إن الذكر يعطي الذاكر قوة، حتى إنه ليفعل مع الذكر ما لا يظن فعله بدونه.
وقد شاهدت من قوة شيخ الإسلام ابن تيمية في سننه، وكلامه، وإقدامه أمراً عجيباً؛ فكان يكتب في اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخ في جمعة وأكثر، وقد شاهد العكسر من قوّته في الحرب أمراً عظيماً» ا.هـ.
٢٨- الذكر رأس الشكر؛ فما شكر الله من لم يذكره.
٢٩- أن أكرم الخلق على الله من لا يزال لسانه رطباً من ذكر الله.
٣٠- الذكر يذيب قسوة القلب.
٣١- يوجب صلاة الله وملائكته.
٣٢- جميع الأعمال ما شرعت إلا لإقامة ذكر الله.
٣٣- الله ـ عز وجل ـ يباهي بالذاكرين ملائكته.
٣٤- الذكر يسهل الصعاب، ويخفف المشاق، وييسر الأمور.
٣٥- يجلب بركة الوقت. =

. . . .

= ٣٦- للذكر تأثير عجيب في حصول الأمن؛ فليس للخائف الذي اشتد خوفه أنفع من الذكر.

٣٧- الذكر سبب للنصر على الأعداء.

٣٨- الجبال، والقفار، تباهي، وتبشر بمن يذكر الله عليها.

٣٩- دوام الذكر في الطريق، والبيت، والحضر، والسفر، والبقاع - تكثير لشهود العبد يوم القيامة.

٤٠- للذكر من بين الأعمال لذةٌ لا يَعْدِلها لذة.

٤١- وبالجملة فإن ثمرات الذكر وفوائده تحصل بكثرته، وباستحضار ما يقال فيه، وبالمداومة على الأذكار المطلقة والمقيدة، وبالحذر من الابتداع، ومخالفة المشروع.

وأقل ذلك[١] أن يلازم[٢] العبد الأذكار المأثورة[٣] عن معلم الخير[٤]، وإمام المتقين[٥] ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

١- قوله: «**وأقل ذلك**»: أي أقل أحوال العبد مع الذكر.

٢- قوله: «**أن يلازم العبد**»: أي أن يحافظ عليها، وألا يفارقها.

٣- قوله: «**الأذكار المأثورة**»: أي التي رويت عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونُقِلَتْ الناس عنه خلفاً عن سلف.

٤- قوله: «**عن معلم الخير**»: أي الذي يعلم الناس ما فيه صلاح دينهم ودنياهم.

٥- قوله: «**وإمام المتقين**»: أي قائدهم، ودليلهم، وهو النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

كالأذكار المؤقتة في أول النهار، وآخره، وعند أخذ المضجع، وعند الاستيقاظ من المنام، وأدبار الصلوات(١).

١- قوله: «**كالأذكار المؤقتة...**» إلى قوله: «**وأدبار الصلوات**»: أي كالأذكار الشرعية الواردة المقدرة المختصة بوقت محدود، بحيث لا تقال إلا على تلك الصفة، وفي ذلك الوقت المحدد.

كأذكار طرفي النهار حيث يشرع الذكر بعد صلاة الفجر إلى طلوع الشمس، وبعد العصر إلى غروب الشمس؛ فهذان الوقتان هما أفضل أوقات النهار للذكر، كما أمر ـ تعالى ـ في مواضع منها قوله: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الأحزاب: ٤٢] وقوله: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الإنسان: ٢٥]، وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥].

وكذلك الذكر عقيب الصلوات المفروضات، والذكر عند المنام، والاستيقاظ منه، فهذه من الأذكار المؤقتة التي يتأكد فيها الذكر(١).

---

(١) انظر جامع العلوم ٢/ ٢٢٥.

والأذكار المقيدة[١] مثل ما يقال عند الأكل والشرب، واللباس، والجماع، ودخول المنزل، والمسجد، والخلاء، والخروج من ذلك، وعند المطر، والرعد، إلى غير ذلك[٢].

وقد صنفت[٣] له الكتب المسماة بعمل اليوم والليلة[٤][٥].

١- قوله: «**والأذكار المقيدة**»: المقيدة ضد المطلقة، أي الأذكار المقيدة بعمل من الأعمال، وبمحالٍّ مخصوصة، حيث تقال قبل العمل أو بعده، أو قبله وبعده كالأذكار التي ذكرها المؤلف.

٢- قوله: «**إلى غير ذلك**»: أي من الأذكار المقيدة كالتسمية على ما يذبح من نسك وغيره، وكحمد الله على العطاس، وعند رؤية أهل البلاء في الدين أو الدنيا، وعند تجدد النعم، واندفاع النقم.

وكذلك الذكر عند نزول الكرب، وحدوث المصائب، وعند الخروج للسفر، وعند نزول المنازل في السفر، وعند الرجوع من السفر، وعند هيجان الريح.

وكذلك الذكر عند ركوب الدابة، ودخول المقابر، وعند رؤية الهلال.

إلى غير ذلك من الأذكار التي يطول ذكرُها، والتفصيلُ فيها.

٣- قوله: «**وقد صنفت له**» أي للذكر من الكتب المؤلفة.

٤- ككتاب «**عمل اليوم والليلة**» للنسائي، و«**عمل اليوم والليلة**» لابن السني، و«**الأذكار**» للنووي، و«**الكلم الطيب**» لابن تيمية، و«**الوابل الصيب**» لابن القيم، وغيرها من الكتب.

٥- في مجموعة الرسائل: «**بعمل يوم وليلة**».

ثم ملازمة الذكر مطلقاً[(١)]، وأفضله[(٢)]: «لا إله إلا الله»[(٣)].

١- قوله: «**ثم ملازمة الذكر مطلقاً**» أي المداومة على ذكر الله، والإكثار منه، والمحافظة عليه في كل وقت، وعلى أي حال؛ فتلك وصية الله ـ عز وجل ـ ووصية رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

قال ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١].

وقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله ـ عز وجل ـ**»[(١)].

٢- قوله: «**وأفضله**»: أي وأفضل الذكر.

٣- قوله: «**لا إله إلا الله**»: أي قول: «**لا إله إلا الله**»، ومعناها: لا معبود حق إلا الله.

فهذه الكلمة خير الكلام، وأفضل الذكر، وهي كلمة الإخلاص، وكلمة التوحيد، وهي العهد، والحسنى، والحسنة، وكلمة التقوى، وكلمة السواء، والقول الثابت، والكلمة الطيبة، وهي أول واجب على المكلف، وآخر واجب عليه، وهي أفضل الحسنات، وأثقل شيء في الميزان، وهي التي تطيش بسجلات الذنوب إلى غير ذلك من فضائلها وأسمائها.

والأدلة على ذلك متضافرة متوافرة، منها قوله ـ عليه الصلاة=

---

(١) رواه أحمد ٤/ ١٨٨ و ١٩٠، والترمذي (٣٣٧٥) وابن ماجه (٣٧٩٣)، وصححه الحاكم ١/ ٤٩٥، ووافقه الذهبي.

. . . .

= والسلام ـ: «**خير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير**»[١].

وإذا أردت المزيد عن فضائل تلك الكلمة فانظر رسائل في العقيدة للكاتب ص٥٧-٧٢.

---

(١) رواه مالك في الموطأ ١/ ٤٢٢، وقال الألباني: «إسناده مرسل صحيح، وقد وصله ابن عدي، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة مرفوعاً»، انظر الصحيحة (١٥٠٣).

وقد تعرض أحوال[١] يكون بقية الذكر مثل «سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر[٢]، ولا حول ولا قوة إلا بالله[٣]» أفضل منه.

---

١ - قوله: **«وقد تعرض أحوال يكون بقية الذكر مثل... أفضل منه»**: أي أن هناك أحوالاً يُفضَّل فيها التسبيح، والتحميد، والتكبير، والحوقلة على التهليل؛ ذلك أن الشيء يكون له فضيلة في نفسه، ويكون له فضيلة عارضة، وهذا عام في كثير من الأعمال، وقد مر شيء من ذلك عند الحديث عن أفضل الأعمال بعد الفرائض.

وإليك هذا الفصل النفيس الذي عقده ابن القيم في كتابه الوابل الصيب ص١٢٢-١٢٤ حول هذا المعنى.

قال ـ رحمه الله ـ: «الفصل الثالث: قراءة القرآن أفضل من الذكر، والذكر أفضل من الدعاء.

هذا من حيث النظر لكل منهما مجرداً، وقد يعرض للمفضول ما يجعله أولى من الفاضل، بل يعيِّنُه؛ فلا يجوز أن يُعْدَلَ عنه إلى الفاضل. وهذا كالتسبيح في الركوع والسجود؛ فإنه أفضل من قراءة القرآن فيهما، بل القراءة فيهما منهيٌّ عنها تحريم أو كراهة.

وكذلك التسميع، والتحميد في محلهما أفضل من القراءة، وكذلك التشهد، وكذلك **«رب اغفر لي، وارحمني، واهدني، وعافني، وارحمني»** بين السجدتين أفضل من القراءة.

وكذلك الذكر عقيب السلام من الصلاة ـ ذكر التهليل، والتسبيح، والتكبير، والتحميد ـ أفضل من الاشتغال بالقراءة، وكذلك إجابة المؤذن، =

. . . .

= والقول كما يقول أفضل من القراءة، وإن كان فضل القرآن على كل كلام كفضل الله ـ تعالى ـ على خلقه، لكن لكل مقام مقال متى فات مقاله فيه، وعُدِل عنه إلى غيره اختلت الحكمة، وفقدت المصلحة المطلوبة منه.

وهكذا الأذكارُ المقيدةُ بمحالٍّ مخصوصة أفضلُ من القراءة المطلقة، والقراءةُ المطلقةُ أفضلُ من الأذكار المطلقة، اللهم إلا أن يعرض للعبد ما يجعل الذكر، والدعاء أنفع له من قراءة القرآن.

مثاله: أن يتفكر في ذنوبه؛ فيحدث ذلك له توبة من استغفار، أو يعرض له ما يخاف أذاه من شياطين الإنس والجن؛ فَيَعْدِلَ إلى الأذكار والدعوات التي تُحَصِّنه وتحفظه.

وكذلك ـ أيضاً ـ قد يعرض للعبد حاجة ضرورية إذا اشتغل عن سؤالها، أو ذكرٌ لم يحضر قلبه فيها، وإذا أقبل على سؤالها، والدعاء إليها اجتمع قلبه كله على الله ـ تعالى ـ وأحدث له تضرعاً، وخشوعاً، وابتهالاً؛ فهذا يكون اشتغاله بالدعاء، والحالة هذه أنفع، وإن كان كلٌّ من القراءة والذكر أفضل وأعظم أجراً.

وهذا باب نافع يحتاج إلى فِقْهِ نَفْسٍ، وفرقانٍ بين فضيلة الشيء في نفسه، وبين فضيلته العارضة؛ فيعطى كل ذي حقٍّ حقَّه، ويوضع كل شيء موضعه؛ فللْعين موضع، وللرِّجْل موضع، وللماء موضع، وللَّحم موضع.

وحفظ المراتب هو من تمام الحكمة التي هي نظام الأمر والنهي، والله ـ تعالى ـ الموفق» ا. هـ =

. . . .

= إلى أن قال ـ رحمه الله ـ: «وقلت لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ تعالى ـ يوماً: سئل بعض أهل العلم: أيما أنفع للعبد: التسبيح أو الاستغفار؟

فقال: إذا كان الثوب نقيّاً فالبخور، وماء الورد أنفع، وإن كان دَنِساً فالصابون والماء الحارُّ أنفع له.

فقال لي ـ رحمه الله تعالى ـ: فكيف والثياب لا تزال دَنِسة؟

ومن هذا الباب أن سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن.

ومع هذا فلا تقوم مقام آيات المواريث، والطلاق، والخلع، والعُدَد، ونحوها.

بل هذه الآيات في وقتها عند الحاجة أنفع من تلاوة سورة الإخلاص.

ولما كانت الصلاة مشتملة على القراءة والذكر والدعاء وهي جامعة لأجزاء العبودية على أتم الوجوه ـ كانت أفضل من كلٍّ من القراءة والذكر والدعاء بمفرده؛ لجمعها ذلك كلَّه مع عبودية سائر الأعضاء؛ فهذا أصل نافع جداً يفتح للعبد باب معرفة مراتب الأعمال، وتنزيلها منازلها؛ لئلا يشتغل بمفضولها عن فاضلها؛ فيربح إبليس الفضل الذي بينهما، أو ينظر إلى فاضلها، فيشتغل به عن مفضولها إن كان ذلك وقته؛ فتفوته مصلحته بالكلية؛ لظنه أن اشتغاله بالفاضل أكثر ثواباً، وأعظم أجراً.

وهذا يحتاج إلى معرفة بمراتب الأعمال، وتفاوتها، ومقاصدها، وفقهٍ في إعطاء كل عمل منها حقَّه، وتنزله في مرتبته، وتفويته لما هو=

. . . .

=أهم منه، أو تفويت ما هو أولى منه، وأفضل لإمكان تداركه، والعود إليه.

وهذا المفضول لا يمكن تداركه؛ فالاشتغال به أولى، وهذا كترك القراءة لرد السلام، وتشميت العاطس ـ وإن كان القرآن أفضل ـ لأنه يمكنه الاشتغال بهذا المفضول، والعود إلى الفاضل، بخلاف ما إذا اشتغل بالقراءة فاتته مصلحةُ ردِّ السلام، وتشميت العاطس، وهكذا سائر الأعمال إذا تزاحمت، والله ـ تعالى ـ الموفق» ا.هـ

٢- قوله: «**مثل سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر**»: هذه الكلمات مع «**لا إله إلا الله**» أفضل الكلام بعد القرآن، وهن من القرآن.

وقد جاء في فضلها أحاديث كثيرة، ومنها ما رواه مسلم في صحيحه (٢٦٩٥) عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس**».

ومعنى قوله: «**سبحان الله**»: أي أنزه الله وأقدسه، فالتسبيح هو التنزيه والتقديس.

ومن معاني التسبيح: الذكر والصلاة، يقال: فلان يسبح الله: أي يذكره بأسمائه.

وهو يسبح: أي يصلي السُّبحة فريضة كانت أو نافلة. =

. . . .

= ويسبح على راحلته: أي يصلي النافلة[١].

٣- قوله: «**لا حول ولا قوة إلا بالله**»: معناها: لا تحول للعبد من حال إلى حال، ولا قوة له على ذلك إلا بالله[٢].

وهذه كلمة عظيمة، وجاء في فضلها أحاديث كثيرة، منها ما جاء في صحيح البخاري (٦٤٠٩) ومسلم (٢٧٠٢) عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**يا أبا موسى أو يا عبدالله بن قيس: ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة**»!

قلت: بلى.

قال: «**لا حول ولا قوة إلا بالله**».

وفي سنن الترمذي (٣٤٦٠) عن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**ما على الأرض أحد يقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله ـ إلا كُفِّرت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر**» قاله الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ مبيناً فضل هذه الكلمة: «لا حول ولا قوة إلا بالله: تحمل بها الأثقال، وتكابد الأهوال، وينال رفيع الأحوال»[٣].

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في الوابل الصيب ص١٠٦-١٠٧ :=

---

(١) انظر المصباح المنير للفيومي ص١٣٨.

(٢) انظر جامع العلوم ١/ ٤٨٢.

(٣) مجموع الفتاوى ١٠/ ١٣٧.

. . . .

= «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ يذكر أثراً في هذا الباب، ويقول: إن الملائكة لما أُمروا بحمل العرش قالوا: يا ربنا كيف نحمل عرشك، وعليه عظمتك وجلالك، فقال: قولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله؛ فلما قالوا حملوه.

حتى رأيت أن أبي الدنيا قد ذكر هذا الأثر بعينهعن الليث بن سعد عن معاوية بن صالح، قال: حدثنا مشيختنا أنه بلغهم أن أول ما خلق الله ـ عز وجل ـ حين كان عرشه على الماء ـ حملةَ عرشِهِ قالوا: ربَّنا! لمَ خلقتنا؟

قال: خلقتكم لحمل عرشي.

قالوا: ربنا! ومن يقوى على حمل عرشك، وعليه عظمتك، وجلالك، ووقارك؟

قال: لذلك خلقتكم، فأعادوا عليه ذلك مراراً، فقال لهم: قولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله، فحملوه».

قال ابن القيم ـ أيضاً ـ: «وهذه الكلمة لها تأثير عجيب في معاناة الأشغال الصعبة، وتَحَمُّل المشاق، والدخول على الملوك ومن يُخاف، وركوب الأهوال، ولها ـ أيضاً ـ تأثير في دفع الفقر».

قال: «وكان حبيب بن مسلمة يستحب إذا لقي عدوّاً، أو ناهض حصناً، قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله، وأنه ناهض يوماً حصناً للروم=

. . . .

=فانهزم، فقالها المسلمون، وكبروا فانهدم الحصن»[١].

«أذكار أخرى مطلقة»

ومن الأذكار المطلقة العظيمة غير ما ذكر: **«سبحان الله وبحمده»**.

ومنها: **«سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»** حيث جاء في فضلها أحاديث كثيرة منها ما جاء في صحيح البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩١) عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: **«من قال: سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حُطَّت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر»**.

وجاء فيهما ـ أيضاً ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: **«كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتنا في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»**[٢].

ومن الأذكار العظيمة ـ أيضاً ـ الاستغفار، والصلاة على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمقام لا يتسع للتفصيل.

«طبقات الناس في الذكر»

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «فإن الناس في الذكر أربع طبقات: =

---

(١) الوابل ص١٠٧.

(٢) البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤).

. . . .

= إحداها: الذكر بالقلب واللسان، وهو المأمور به.

الثاني: الذكر بالقلب فقط؛ فإن كان مع عجز اللسان فحسن، وإن كان مع قدرته فتركٌ للأفضل.

الثالث: الذكر باللسان فقط، وهو كون لسانه رطباً بذكر الله.

وفيه حكاية الذي لم تجد الملائكة فيه خيراً إلا حركة لسانه بذكر الله.

ويقول الله ـ تعالى ـ: «**أنا مع عبدي ما ذكرني، وتحركت بي شفتاه**».

الرابع: عدم الأمرين، وهو حال الأخسرين»[1].

---

(١) مجموع الفتاوى ١٠/٥٦٦.

ثم يُعْلَم[١] أنَّ كلَّ ما تكلم به اللسان[٢]، وتصوره القلب[٣] مما يقرب إلى الله[٤] من تَعُلُّم علم، وتعليمه، وأمرٍ بمعروف، ونهي عن منكرٍ[٥] ـ فهو من ذكر الله[٦].

ولهذا من اشتغل بطلب العلم النافع[٧] بعد أداء الفرائض[٨]، أو جلس مجلساً يتفقَّه، أو يُفقِّه فيه الفقه[٩] الذي سماه الله ورسوله فقهاً ـ فهذا ـ أيضاً ـ من أفضل ذكر الله.

وعلى ذلك[١٠] إذا تدبرت[١١] لم تجد بين الأولين[١٢] في كلماتهم في أفضل الأعمال كبيرَ اختلاف[١٣].

١- قوله: «ثم يعلم»: هذا شروع في الحديث عن عموم مفهوم الذكر، وأنه ليس مقتصراً على الإتيان بالأذكار المأثورة المقيدة، والمطلقة، بل إن مفهومه أعم، ودائرته أوسع.

٢- قوله: «أن كلَّ ما تكلم به اللسان»: أي ما نطق به من قربة.

٣- قوله: «وتصوره القلب»: أي ما قام بالقلب من نية، واعتقاد، وخشية، ومحبة، ورجاءٍ، ونحو ذلك من أعمال القلوب.

٤- قوله: «مما يقرب إلى الله»: أي من الأعمال الصالحة المشروعة.

٥- قوله: «من تعلُّم علمٍ، وتعليمه، وأمرٍ بمعروف ونهي عن منكر»: ذكر هذين الأمرين على سبيل المثال لا للحصر.

٦- قوله: «فهو من ذكر الله»: أي داخل في عموم مفهوم الذكر؛ لأن الإنسان حال قيامه بهذه الأعمال وما شاكلها ذاكر لله، قائم بقلبه=

. . . .

= حبُّه ـ عز وجل ـ وخشيته، ورجاؤه، والتقرب إليه.

ومن هنا دخلت في عموم مفهوم الذكر.

٧- قوله: «**ولهذا من اشتغل بطلب العلم النافـع**»: أي من قام بطلبه العلم الموروث عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأجهد نفسه، وبذل جهده في ذلك السبيل قراءة، وبحثاً، وحفظاً، وكتابة، وحضوراً لمجالس العلم ونحو ذلك ـ فهو ذاكر لله خصوصاً إذا صحت النية.

٨- قوله: «**بعد أداء الفرائض**»: لأن الاشتغال بطلب العلم نافلة في الأصل، ولا تقبل النوافل إلا بعد الإتيان بالفرائض.

٩- قوله: «**أو جلس مجلساً يتفقه أو يفقِّه فيه الفقه...**»: أي كذلك يدخل في مفهوم الذكر ـ بل هو من أفضل الذكر ـ كل من جلس مجلساً يتعلم فيه العلم، أو يعلم فيه العلم كتابة، أو إلقاءً، أو سماعاً، أو تأليفاً، أو تقريراً، أو ما جرى مجرى ذلك، فهذا كله داخل في ذكر الله.

ويلاحظ أن شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ مثَّل بهذين المثالين، وهما العلم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وذلك لعظم شأنهما، وأنهما من أعظم الأعمال وأعمهما نفعاً، وألصقهما بذكر الله، وأدلّهما عليه.

وإلا فإن عموم مفهوم الذكر واسع جداً؛ فيدخل فيه الصلاة، وتلاوة القرآن، والصدقة، وإصلاح ذات البين، والسلام، وردُّه، ومخاطبة الناس بالحسنى إلى غير ذلك. =

. . . .

= ١٠- قوله: «**وعلى ذلك**»: أي وبناء على ما مضى ذكـره من عموم مفهوم الذكر.

١١- قوله: «**إذا تدبرت**»: أي إذا تأملت، ودققت النظر.

١٢- قوله: «**بين الأولين**»: أي السلف الصالح.

١٣- قوله: «**في كلماتهم في أفضل الأعمال كبير اختلاف**»: أي لم تجد في أقوالهم حول تحديد أفضل الأعمال بعد الفرائض فروقـاً جلية، واضحة.

وإنما هي أقوال متقاربة، قد تكون من باب اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد، ومن باب النظر إلى اختلاف الأحوال، والأشخاص كما مر في الفقرات الماضية.

وما اشتبه أمره على العبد(١) فعليه بالاستخارة المشروعة(٢)؛ فما ندم من استخار الله ـ تعالى ـ.

١- قوله: «**وما اشتبه أمره على العبد**»: هذا شروع في وصية نافعة تفيد الإنسان في معاشه، ألا وهي أخذه بالاستخارة عند اشتباه الأمور عليه.

وقوله: «**وما اشتبه أمره على العبد**»: أي ما ألبس وأشكل عليه في أي شأن من شؤونه؛ فصار متردداً فيه، ولم يستبن له وجه الخيرة فيه.

٢- قوله: «**فعليه بالاستخارة المشروعة**»: أي فليأخذ بالاستخارة الشرعية؛ ففيها الخير، والبركة، والسلامة من الندامة؛ فهي تفتح للإنسان الأبواب، وتزيل عنه الحيرة والتردد والاضطراب.

ولهذا كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعلم أصحابه صلاة الاستخارة؛ فعن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كالسورة من القرآن: «**إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم يقول: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم؛ فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خيرٌ لي في ديني، ومعاشي، وعاقبة أمري ـ أو قال: في عاجل أمري وآجله ـ فاقْدُرْه لي.**

وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرٌّ لي في ديني، ومعاشي، وعاقبة أمري ـ أو قال: في عاجل أمري وآجله ـ فاصرفه عني، واصرفني عنه، واقْدُرْ لي الخير حيث كان، ثم رضِّني به، ويسمي حاجته»(١).

(١) رواه البخاري (٦٣٨٢).

. . . .

= قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ في الفتح ١١/ ١٨٧ : «الاستخارة هي استفعال من الخير، أو من الخِيَرة بكسر أوله، وفتح ثانيه بوزن العِنَبة ـ اسم من قولك: خار الله له.

واستخار الله: طلب منه الخيرة، وخار الله له: أعطاه ما هو خير له.

والمراد طلب خير الأمرين لمن احتاج إلى أحدهما» ا.هـ

قال النووي ـ رحمه الله ـ في الأذكار ص ١١٠-١١١ : «قال العلماء: تستحب الاستخارة بالصلاة والدعاء المذكور، وتكون الصلاة ركعتين من النافلة.

والظاهر أنها تحصل بركعتين من السنن الرواتب، وبتحية المسجد، وغيرها من النوافل.

ويقرأ في الأولى بعد الفاتحة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُون﴾، وفي الثانية: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

ولو تعذَّرت عليه الصلاة استخار بالدعاء» ا.هـ

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ في الفتح ١١/ ١٨٩ : «وأفاد النووي أنه يقرأ في الركعتين: الكافرون، والإخلاص.

قال شيخنا في شرح الترمذي: لم أقف على دليل ذلك، ولعله ألحقهما بركعتي الفجر، والركعتين بعد المغرب.

قال: ولهما مناسبة بالحال؛ لما فيهما من الإخلاص والتوحيد،=

. . . .

= والمستخير محتاج لذلك» ا.هـ

وقال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «قال ابن أبي جمرة: الحكمة من تقديم الصلاة على الدعاء أن المراد بالاستخارة حصول الجمع بين خيري الدنيا والآخرة؛ فيحتاج إلى قرع باب الملك، ولا شيء لذلك أنجع ولا أنجح من الصلاة؛ لما فيها من تعظيم الله، والثناء عليه، والافتقار إليه مآلاً، وحالاً» ا.هـ

قال النووي ـ رحمه الله ـ في الأذكار ص١١١: «ثم إن الاستخارة مستحبة في جميع الأمور كما صرح به نص الحديث الصحيح.

وإذا استخار مضى بعدها لما ينشرح له صدره، والله أعلم».

وليُكثِر من ذلك[١]، ومن الدعاء[٢]؛ فإنه مفتاح كل خير[٣].

= ١- قوله: «**وليكثر من ذلك**»: أي من الاستخارة؛ فالضمير في قوله (ذلك) يعود إليها.

٢- قوله: «**ومن الدعاء**»: أي فليكثر من الدعاء؛ لأن الله ـ عز وجل ـ أمر بذلك كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وقوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

بل إن الإكثار من الدعاء، والإلحاح فيه مطلوب مرغَّبٌ فيه، فعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**ما من مسلم يدعو ليس بإثم ولا قطيعة رحم ـ إلا أعطاه الله إحدى ثلاث: إما أن يعجِّل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها**».

قالوا: إذاً نكثر.

قال: «**الله أكثر**»[١].

٣- قوله: «**فإنه مفتاح كل خير**» لأنه ـ أي الدعاء ـ يتضمن التوحيد، =

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧١٠) وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٥٤٧).

. . . .

= والتوحيد منبع كل خير، ولأنه لجوء إلى الله، والله ـ عز وجل ـ بيده ملكوت كل شيء، ولأن بركات الدعاء وفضائله لا تكاد تحصى، ومنها على سبيل الإجمال ما يلي:

«من بركات الدعاء وفضائله»

١- الدعاء عبادة. ٢- الدعاء أكرم شيء على الله.

٣- الدعاء محبوب لله. ٤- الدعاء سبب لانشراح الصدر.

٥- الدعاء سبب لدفع غضب الله.

٦- الدعاء دليل على التوكل على الله.

٧- الدعاء دليل على الإيمان بالله، والاعتراف له بالربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات.

٨- الدعاء سبب لكبر النفس، والتحرر من رق الخلق.

٩- الدعاء سبب لدفع البلاء قبل نزوله، ورفعه بعد نزوله.

١٠- ثمرة الدعاء مضمونة بإذن الله .

١١- الدعاء يفتح باب المناجاة ولذائذها.

١٢- الدعاء مفزع المظلومين، وملجأ المستضعفين.

ولقد أحسن من قال:

وإني لأدعو الله والأمـر ضـيِّقٌ عـلـيَّ فما ينفك أن يـتـفـرجـا
وربَّ فتىً ضاقت عليه وجـوهُهُ أصاب له في دعوة الله مخرجا

ولا يعجل[١]، فيقول: قد دعوتُ، فلم يستجب لي[٢]، وليتحرَّ الأوقات[٣] الفاضلة: كآخر الليل[٤]، وأدبار الصلوات[٥]، وعند الآذان[٦]، ووقت نزول المطر[٧]، ونحو ذلك[٨].

١- قوله: «**ولا يعجل**»: هذا إشارة إلى أدب من آداب الدعاء، وسبب من أسباب إجابته، وهو ترك العجلة.

٢- قوله: «**قد دعوت فلم يستجب لي**»: هذا إشارة إلى حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «**ما من مؤمن ينصب وجهه إلى الله يسأله مسألة إلا أعطاه إياها إما عجَّلها له في الدنيا، وإما ذخرها له في الآخرة، ما لم يعجل**».

قالوا: يا رسول الله! وما عَجَلَتُه؟

قال: «**يقول دعوت، ودعوت، ولا أراه يستجاب لي**»[١].

٣- قوله: «**وليتحرَّ الأوقات الفاضلة...**»: هذا ذكر لسبب من أسباب إجابة الدعاء، وهو تحري الأوقات الفاضلة.

٤- قوله: «**كآخر الليل**»: لحديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «**ينزل ربنا إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلثُ الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفرَ له**»[٢]. =

---

(١) أخرجه أحمد ٢/٤٤٨، والبخاري في الأدب المفرد (٧١١)، والخطابي في شأن الدعاء (٩) وقال الألباني في صحيح الأدب المفرد (٥٤٨): «صحيح بما قبله».

(٢) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨).

. . . .

= ٥- قوله: «**وأدبار الصلوات**»: لحديث أبي أمامة الباهلي ـ رضي الله عنه ـ قال: قيل: يا رسول الله! أي الدعاء أسمع؟

قال: «**جوف الليل الآخر، ودبر الصلوات المكتوبات**»[(١)].

وأوصى ـ عليه الصلاة والسلام ـ معاذاً ـ رضي الله عنه ـ أن يقول في دبر كل صلاة: «**اللهم أعني على ذكرك وشكرك، وحسن عبادتك**»[(٢)].

هذا وقد اختُلف في قوله: «**دبر كل صلاة**» وقوله: «**دبر الصلوات المكتوبات**» هل هو قبل السلام، أو بعده؟

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في زاد المعاد ١/ ٣٠٥: «دبر الصلاة يحتمل قبل السلام وبعده، وكان شيخنا ـ يعني ابن تيمية ـ يرجح أن يكون قبل السلام، فراجعته فيه، فقال: دبر كل شيء منه، كدبر الحيوان» ا ـ هـ.

وقال شيخنا العلامة الشيخ محمد بن عثيمين ـ رحمه الله ـ: «الدبر هو آخر كل شيء منه، أو هو ما بعد آخره».

ورجح ـ رحمه الله ـ أن الدعاء يكون قبل السلام.

وقال: «ما ورد من الدعاء مقيَّداً بدبر فهو قبل السلام، وما ورد من الذكر مقيداً بدبر فهو بعد الصلاة ـ أي بعد السلام ـ لقوله ـ تعالى ـ:=

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٩٩)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٠٨)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن».

(٢) مضى تخريجه.

. . . .

= ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣] ا. هـ من إملاءاته - رحمه الله - في درس في كتاب زاد المعاد.

٦- قوله: «**وعند الأذان**»: لحديث سعد - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «**ثنتان لا تردان، أو قلما تردان: الدعاء عند النداء، وعند البأس حين يلحم بعضهم بعضاً**»(١).

ولحديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «**الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة؛ فادعوا**»(٢).

٧- قوله: «**ووقت نزول المطر**»: لحديث سهل بن سعد - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «**ثنتان ما تردان: الدعاء عند النداء، وتحت المطر**»(٣).

٨- قوله: «**ونحو ذلك**»: أي من الأوقات، والأحوال، والأوضاع التي هي مظانُّ إجابة الدعاء، ومنها على سبيل الإجمال: ليلة القدر، وساعة من الليل، والساعة التي في يوم الجمعة، وعند شرب ماء زمزم، وفي السجود، والدعاء يوم عرفة، ودعاء المسلم عقب الوضوء، وفي=

---

(١) رواه أبو داود (٢٥٤٠)، والدارمي (١٢٠٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٧٩).

(٢) رواه أبو داود (٥٢١)، والترمذي (٢١٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٠٨).

(٣) رواه أبو داود (٣٥٤٠)، والحاكم ٢/ ١١٤، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٧٨).

. . . .

= شهر رمضان، وعند اجتماع المسلمين في مجالس الذكر، وفي حالة إقبال القلب على الله، واشتداد الإخلاص، وعند رقة القلب، وعند الدعاء: بـ«**لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين**» وعند الدعاء حال المصيبة بـ: «**إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي، واخلف لي خيراً منها**»، وفي حال دعاء المسلم لأخيه بظهر الغيب، ودعاء الناس بعد وفاة الإنسان، ودعوة المضطر، والمظلوم، والمسافر، والوالد على ولده ولولده، ودعوة الولد الصالح لوالديه، والدعاء عند الصفا والمروة، وعند المشعر الحرام، وبعد رمي الجمرة الصغرى والوسطى، ودعاء الغازي، والحاج، والمعتمر، والدعاء عند المريض[1].

«مسألة في تأخر إجابة الدعاء»

من البلاء على المؤمن أن يدعو فلا يجاب، فيكرر الدعاء، وتطول المدة، فلا يرى أثراً للإجابة.

فعلى من وقعت له تلك الحال أن يستحضر أن هناك حكماً باهرة، وأسراراً بديعة لو تدبرها لما تضجر من تأخر الإجابة، ومن تلك الحكم والأسرار مايلي:

١ - **أن تأخر الإجابة من البلاء الذي يحتاج إلى صبر**: قال ـ تعالى ـ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]. =

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتاب الدعاء للكاتب.

. . . .

= فسرعة الإجابة من البلاء الذي يحتاج إلى شكر، وتأخرها من البلاء الذي يحتاج إلى صبر.

٢- قد يكون في تحقق المطلوب زيادة في الشر: فربما أجيب الداعي، فكان ذلك سبباً في زيادة إثم، أو تأخير عن مرتبة، أو كان ذلك حاملاً على الأشر والبطر، فكان التأخير، أو المنع أصلح.

وقد روي أن بعض السلف كان يسأل الله الغزو، فهتف به هاتف: «إنك إن غزوت أُسِرْتَ، وإن أسرت تنصرت»[1].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في مدارج السالكين ٢/ ٢١٥-٢١٦: «فقضاؤه لعبده المؤمن عطاء، وإن كان في صورة المنع، ونعمة وإن كان في صورة محنة، وبلاؤه عافية، وإن كان في صورة بلية.

ولكنْ لجهل العبد، وظلمه لا يَعُدُّ العطاء والنعمة والعافية إلا ما التَذَّ به في العاجل، وكان ملائماً لطبعه.

ولو رزق من المعرفة حظاً وافراً لعدَّ المنع نعمة، والبلاء رحمة، وتلذذ بالبلاء أكثر من لذته بالعافية، وتلذذ بالفقر أكثر من لذته بالغنى، وكان في حال القلة أعظم شكراً من حال الكثرة» ا.هـ

٣- أن اختيار الله للعبد خير من اختيار العبد لنفسه: فالله ـ عز وجل ـ له الحكمة البالغة، فلا يعطي إلا لحكمة، ولا يمنع إلا لحكمة، وهو أعلم بمصالح العباد منهم، وهو ـ أيضاً ـ أرحم بهم من أنفسهم. =

(١) صيد الخاطر ١/ ١٠٩ طبعة الطنطاوي.

. . . .

= قال سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ: «منعه عطاء، وذلك أنه لم يمنع عن بخل ولا عدم.

وإنما نظر في خير العبد؛ فمنعه اختياراً وحسن نظر.

٤- الدخول في زمرة المحبوبين لله: فالله ـ عز وجل ـ إذا أحب قوماً ابتلاهم، ومن الابتلاء تأخر الإجابة؛ وإذا رضوا فلهم الرضا، وإذا سخطوا فلهم السخط.

٥- تأخر الإجابة سبب لأن يتفقد العبد نفسه: فقد يكون تأخر الإجابة، أو امتناعها لآفة في الداعي، فربما كان في مطعومه شبهة، أو كان في قلبه وقت الدعاء غفلة، أو كان متلبساً بذنوب مانعة.

وتأخر الإجابة قد يبعث الداعي إلى تفقد نفسه، والنظر في حاله مع ربه، فيحصل له من جرّاء ذلك توبة وإنابة.

ولو عُجِّلت له دعوته لربما غفل عن نفسه، فظن أنه على خير وهدى، فأهلكه العجب، وفاتته هذه الفائدة.

٦- قد تكون الدعوة مستجابة دون علم الداعي: لأن الداعي إذا دعا الله ـ عز وجل ـ لم يخلُ من إحدى ثلاث كما مر في الأحاديث الماضية؛ فربما تكون دعوته ذُخرت له في الآخرة، وربما صُرف عنه من السوء مثل ما دعا به؛ فكيف يستبطئ الإجابة؟

ولماذا لا يحسن ظنه بربه ويقول: لعله استجيب لي من حيث لا أعلم؟ =

. . . .

= **٧- قد يكون الدعاء ضعيفاً فلا يقاوم البلاء.**

٨- التمتع بطول المناجاة: قال سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ: «لقد أنعم الله على عبد في حاجة أكثر من تضرعه إلى الله فيها»[١].

٩- حصول الاضطرار، والافتقار، والانكسار بين يدي الله ـ عز وجل ـ.

١٠- حصول انتظار الفرج، وتحري الخير: وذلك من أجل المطالب، وأشرف العبوديات.

١١- مجاهدة الشيطان، ومراغمتـه: وذلك بإحسان الظن بالله، وبمواصلة الدعاء.

هذه بعض الحكم المتلمسة من تأخر الدعاء على سبيل الإيجاز، وإذا أردت التفصيل فارجع إلى كتاب (الدعاء) للكاتب ص٩٣-١٠٧.

---

(١) عدة الصابرين لابن القيم ص١٦١.

وأما أرجح[١] المكاسب فالتوكل[٢] على الله،

= ١- قوله: «**أرجح المكاسب**»: يعني أعظم المغانم.

٢- قوله: «**التوكل على الله**»:

التوكل في اللغة: هو أن تعتمد على غيرك، وتجعله نائباً عنك كما قال الراغب.

وقال ـ أيضاً ـ: «والتوكل يقال على وجهين: يقال توكلت لفلان: توليت له، ويقال: وكَّلتُه، فتوكل لي، وتوكلت عليه بمعنى اعتمدته»[١].

والتوكل في الشرع: هو الثقة بالله، والاعتماد عليه، وتفويض الأمر إليه، واستمداد المعونة منه مع فعل الأسباب المشروعة، والمباحة.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في المدارج ١/ ٩٦: «والتوكل معنى يلتئم من أصلين: الثقة بالله، والاعتماد عليه، وهو حقيقة ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾» ا.هـ

«مسائل في التوكل»

أولاً: ما الذي يحقق التوكل: الذي يحقق التوكل ـ كما مر ـ هو القيام بالأسباب المشروعة أو المباحة؛ فمن عطلها لم يصح توكله؛ فلم يكن التوكل داعية إلى البطالة، أو الإقلال من العمل البتة؛ فمن لم يقم بها كان رجاؤه تمنياً، كما أن من عطلها يكون توكله عجزاً، وعجزه توكلاً[٢]. =

---

(١) معجم مفردات ص٥٦٩ .

(٢) انظر الفوائد ص١٣٠ .

. . . .

= **ثانياً: سر التوكل**: قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في الفوائد ص ١٣٠ :
«وسر التوكل وحقيقته هو اعتماد القلب على الله وحده؛ فلا يضره مباشرة الأسباب مع خلو القلب من الاعتماد عليها، والركون إليها، كما لا ينفعه قوله: توكلت على الله مع اعتماده على غيره، وركونه إليه، وثقته به؛ فتوكل اللسان شيء، وتوكل القلب شيء، كما أن توبة اللسان مع إصرار القلب شيء، وتوبة القلب وإن لم ينطق اللسان شيء؛ فقول العبد: توكلت على الله مع اعتماد قلبه على غيره ـ مثل قوله: تبت إلى الله، وهو مصرٌّ على معصيته، مرتكب لها» ا.هـ

ثالثاً: منزلة التوكل ومراتب الناس فيه: قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:
«ومنزلته أوسع المنازل، وأجمعها، ولا تزال معمورة بالنازلين؛ لِسعة مُتعلَّق التوكل وكثرة حوائج العالمين، وعموم التوكل، ووقوعه من المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، والطير والوحش والبهائم؛ فأهل السموات والأرض المكلفون وغيرهم في مقام التوكل، وإن تباين مُتَعَلَّقُ توكلهم؛ فأولياؤه وخاصته يتوكلون عليه في الإيمان، ونصرة دينه، وإعلاء كلمته، وجهاد أعدائه، وفي محابّه، وتنفيذ أوامره.

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في استقامته في نفسه، وحفظ حاله مع الله، فارغاً عن الناس.

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في معلوم يناله منه، من رزق، أو عافية، أو نصر على عدوٍّ، أو زوجة، أو ولد، ونحو ذلك. =

. . . .

= ودون هؤلاء من يتوكل عليه في حصول الإثم، والفواحش؛ فإن أصحاب هذه المطالب لا ينالونها غالباً إلا باستعانتهم بالله، وتوكلهم عليه، بل قد يكون توكلهم أقوى من توكل كثير من أصحاب الطاعات؛ ولهذا يُلقون أنفسهم في المتالف، والمهالك؛ معتمدين على الله أن يسلمهم، ويظفرهم بمطالبهم»(١).

رابعاً: أعظم التوكل وأفضله: قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في الفوائد ص١٢٩ : «فأعظمُ التوكلِ عليه: التوكلُ في الهدايةِ، وتجريدِ التوحيد، ومتابعة الرسول، وجهاد أهل الباطل؛ فهذا توكل الرُّسل، وخاصة أتباعهم» ا. هـ

وقال في مدارج السالكين ٢/ ١١٤ : «فأفضل التوكل: التوكل في الواجب ـ أعني واجب الحق، وواجب الخلق، وواجب النفس.

وأوسعه، وأنفعه التوكل في التأثير في الخارج في مصلحة دينية، أو في دفع مفسدة دينية.

وهو توكل الأنبياء في إقامة دين الله، ودفع فساد المفسدين في الأرض.

وهذا توكل ورثتهم، ثم الناس بعدُ في التوكل على حسب فهمهم. ومقاصدهم؛ فمن متوكل على الله في حصول المُلك، ومن متوكل في حصول رغيف» ا. هـ =

(١) مدارج السالكين ٢/ ١١٤ .

. . . .

= **خامساً: توكل المغبونين**: قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في مدارج السالكين ٢/ ١٢٥ : «وكثير من المتوكلين يكون مغبوناً في توكله، وقد توكل حقيقة التوكل وهو مغبون؛ كمن صرف توكله إلى حاجة جزئية استفرغ فيها قوة توكله، ويمكنه نيلُها بأيسر شيء وتفريغُ قلبه للتوكل في زيادة الإيمان والعلم، ونصرة الدين، والتأثير في العالم خيراً؛ فهذا توكل العاجز القاصر الهمة؛ كما يَصْرِف بعضُهم همته، وتوكله، ودعاءه إلى وجع يمكن مداواتُه بأدنى شيء، أو جوع يمكن زواله بنصف رغيف، أو نصف درهم، ويدع صرفه إلى نصرة الدين، وقمع المعتدين، وزيادة الإيمان، ومصالح المسلمين، والله أعلم» ا.هـ

سادساً: من صدق توكله نال مطلوبه: قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في مدارج السالكين ٢/ ١١٤ : «ومن صدق توكله على الله في حصول شيء ناله؛ فإن كان محبوباً له مرضياً كانت له فيه العاقبة المحمودة، وإن كان مسخوطاً مبغوضاً كان ما حصل له بتوكله مضرة عليه، وإن كان مباحاً حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ما توكل فيه إن لم يستعن به على طاعاته، والله أعلم» ا.هـ

والثقة بكفايته(١)،...

---

١ - قوله: «**والثقة بكفايته**»: الثقة مصدر الفعل وثق، تقول: وثقت به أثق ثقة: أي سكنت إليه، واعتمدت عليه؛ فالثقة هي السكون والاعتماد(١).

وقوله: «**بكفايته**»: الكفاية مصدر الفعل كفى، قال الراغب ص ٤٥٥: «الكفاية ما فيه سدُّ الخُلة، وبلوغ المراد».

وعلى هذا فالثقة بكفاية الله: هي السكون إليه، والاعتماد عليه في سد الخلة، وبلوغ المراد.

أو يقال: هي السكون إليه، والاعتماد عليه في جلب المحبوب، والنجاة من المرهوب.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في المدارج ٢/ ١٤٢-١٤٣: «ومن منازل ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ منزلة: «**الثقة بالله ـ تعالى ـ**».

وقال صاحب المنازل: «الثقة سواد عين التوكل، ونقطة دائرة التفويض، وسويداء قلب التسليم».

وصدَّر الباب بقوله ـ تعالى ـ لأم موسى: ﴿**فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي**﴾ [القصص: ٧].

فإن فِعْلَها هذا هو عين ثقتها بالله ـ تعالى ـ إذ لولا كمال ثقتها بربها لما ألقت بولدها، وفلذة كبدها في تيار الماء تتلاعب به أمواجه، وجِرْياتُه إلى حيث ينتهي، أو يقف.

=

---

(١) انظر معجم مفردات ص٥٤٨.

. . . .

= ومراده ـ يعني صاحب المنازل الهروي ـ أن «**الثقة**» خلاصة التوكل، ولُبُّه كما أن سواد العين: أشرف ما في العين.

وأشار بأنه «**نقطة دائرة التفويض**» إلى أن مدار التوكل عليه، وهو وسطه كحال النقطة من الدائرة؛ فإن النقطة هي المركز الذي عليه استدارة المحيط، ونسبةُ جهاتِ المحيط إليها نسبة واحدة، وكل جزء من أجزاء المحيط مقابل لها.

كذلك «**الثقة**» هي النقطة التي يدور عليها التفويض.

وكذلك قوله: «**سويداء قلب التسليم**» فإن القلب أشرف ما فيه سويداؤه، وهي المهجة التي تكون بها الحياة، وهي وسطه؛ فلو كان «التفويض» قلباً لكانت «**الثقة**» سويداءه، ولو كان عيناً لكانت سوادَها، ولو كان دائرة لكانت نُقطتَها» ا.هـ

وحسن الظن به[١]...

١- قوله: «**وحسن الظن به**»: الحسن ضد القبح، ونقيضه، والحسن نعت لما حَسُن، والحسن عبارة عن كل مبهج مرغوب فيه، وهو - أيضاً - ضد السوء[١].

وقوله: «**الظن**»: مصدر الفعل ظنَّ، قال الراغب ص٣٢٧: «الظن: اسم لما يحصل عن أمارة، ومتى قويت أدت إلى العلم، ومتى ضعفت جداً لم يتجاوز حد الوهم».

«مسائل في حسن الظن»

أولاً: معنى حسن الظن بالله: حسن الظن: هو الباعث على العمل، والذي يلزم منه تحري الإجابة عند الدعاء، والقبول عند التوبة، والمغفرة عند الاستغفار، والإثابة عند العمل.

قال القرطبي - رحمه الله -: «قيل معنى «**ظن عبدي بي**»: ظنُّ الإجابة عند الدعاء، وظن القبول عند التوبة، وظن المغفرة عند الاستغفار، وظن المجازاة عند فعل العبادة بشروطها؛ تمسكاً بصادق وعده»[٢].

وقال ابن القيم - رحمه الله - في الجواب الكافي ص٧٣: «ولا ريب أن حسن الظن إنما يكون مع الإحسان؛ فإن المحسن حَسَنُ الظن بربه أنه يجازيه على إحسانه، ولا يخلف وعده، ويقبل توبته. =

---

(١) انظر معجم مفردات ص١١٧ ولسان العرب ١٣/ ١١٦.

(٢) فتح الباري ١٣/ ٣٩٧.

. . . .

= وأما المسيء المصرُّ على الكبائر، والظلم، والمخالفات ـ فإن وحشة المعاصي، والظلم، والحرام تمنعه من حسن الظن بربه.

وهذا موجود في الشاهد؛ فإن العبد الآبق المسيء، الخارج عن طاعة سيده لا يحسن الظن به، ولا يجامع وحشةَ الإساءة إحسانُ الظن أبداً؛ فإن المسيء مستوحش بقدر إساءته، وأحسن الناس ظناً بربه أطوعهم له، كما قال الحسن البصري: إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل، وإن الفاجر أساء الظن بربه فأساء العمل» ا.هـ

ثانياً: ضابط حسن الظن بالله: قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في الجواب الكافي ص٧٦-٧٧: «وبالجملة فحسن الظن إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاة، وأما مع انعقاد أسباب الهلاك فلا يتأتَّى إحسان الظن.

فإن قيل: بل يتأتى ذلك، ويكون مستندُ حسنِ الظن سعةَ مغفرة الله، ورحمته، وعفوه، وجوده، وأن رحمته سبقت غضبه، وأنه لا تنفعه العقوبة، ولا يضره العفو ـ قيل: الأمر هكذا، والله فوق ذلك أجل، وأكرم، وأجود، وأرحم.

وإنما يضع ذلك في محله اللائق به؛ فإنه ـ سبحانه ـ موصوف بالحكمة، والعزة، والانتقام، وشدة البطش، وعقوبة من يستحق العقوبة؛ فلو كان معوَّل حسن الظن على مجرد صفاته، وأسمائه لاشترك في ذلك: البرُّ، والفاجرُ، والمؤمن، والكافر، ووليُّه، وعدوُّه؛ فما ينفع المجرمَ أسماؤه، وصفاته، وقد باء بسخطه، وغضبه، وتعرض للعنته، =

. . . .

=ووقع في محارمه، وانتهك حرماته؟!

بل حسن الظن ينفع من تاب، وندم، وأقلع، وبدّل السيئة بالحسنة، واستقبل بقية عمره بالخير والطاعة، ثم حسَّن الظن بعدها؛ فهذا هو حسن الظن، والأول غرور، والله المستعان» ا.هـ

ثالثاً: فضل حسن الظن بالله: قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة**»(١).

وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول قبل وفاته بثلاث: **لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه**»(٢).

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**يقـول الله ـ عز وجل ـ أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حيث يذكرني**»(٣).

قال الإمام الشوكاني ـ رحمه الله ـ في تحفة الذاكرين ص١٢ عند قوله ـ تعالى ـ في الحديث القدسي: «**أنا عند ظن عبدي**»: «فيه ترغيب من الله لعباده بتحسين ظنونهم، وأنه يعاملهم على حسبها؛ فمن ظن به خيراً أفاض عليه جزيل خيراته، وأسبل عليه جميل تفضُّلاته، ونثر عليه محاسن كراماته، وسوابغ عطياته. =

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٧٩)، وحسنه الألباني وصحيح الجامع (٢٤٥).
(٢) رواه مسلم (٢٨٧٧).
(٣) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥)

. . . .

= ومن لم يكن في ظنه هكذا لم يكن الله ـ تعالى ـ له هكذا.

وهذا معنى كونه ـ سبحانه وتعالى ـ عند ظن عبده؛ فعلى العبد أن يكون حسن الظن بربه في جميع حالاته، ويستعين على تحصيل ذلك باستحضاره ما ورد من الأدلة الدالة على سعة رحمة الله ـ سبحانه وتعالى» ا.هـ

وذلك أنه ينبغـي[١] للمهتم بأمر الـرزق[٢] أن يلجأ[٣] فيه إلى الله، ويدعوه[٤].

١- قوله: «وذلك أنه ينبغي...»: هذا الكلام معطوف على ما قبله من قوله: «وأما أرجح المكاسب فالتوكل...».

فإذا كان التوكل أرجح المكاسب فعلى المهتم بأمر رزقه أن يلجأ إلى ربه، ويسأله ذلك.

٢- قوله «بأمر الرزق»: أي بشأن الرزق، والـرزقُ يقال للعطاء الجاري تارة دنيوياً كان أم أخروياً، وللنصيب تارة، ولما يصل إلـى الجوف تارة[١].

٣- قوله: «أن يلجأ فيه إلى الله»: اللجأ هو الإسناد، أي أن يسند أمره فيه إلى الله؛ لأن الرزق عنده ـ عز وجل ـ ومنه.

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] وقال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

٤- قوله: «يدعوه»: أي يسأله الرزق مع أخذه بالأسباب.

قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ: «واعلم أن سؤال الله ـ تعالى ـ دون خلقه هو المتعين؛ لأن السؤال فيه إظهار الذل مع المسكنة، والحاجة، والافتقار، وفيه الاعتراف بقدرة المسؤول على دفع الضرر، ونيل المطلوب، =

---

(١) انظر معجم مفردات ص١٩٩.

. . . .

=وجلب المنافع، ودرء المضار، ولا يصلح الذل والافتقار إلا لله وحده؛ لأنه حقيقة العبادة.

وكان الإمام أحمد يدعو ويقول: اللهم كما صنت وجهي عن السجود لغيرك فَصُنْه عن المسألة لغيرك.

ولا يقدر على كشف الضر، وجلب النفع سواه».

إلى أن قال ـ رحمه الله ـ: «والله ـ سبحانه ـ يحب أن يُسأل، ويُرغَبَ إليه في الحوائج، ويُلَحَّ في سؤاله ودعائه، ويغضبُ على من لا يسأله، ويستدعي من عباده سؤاله، وهو قادر على إعطاء خلقه سُؤْلَهم من غير أن ينقص من ملكه شيء.

والمخلوق بخلاف ذلك كله: يكره أن يُسأل، ويحب أن لا يُسألَ؛ لعجزه، وفقره، وحاجته؛ ولهذا قال وهب بن منبِّه لرجل كان يأتي الملوك: ويحك تأتي من يغلق عنك بابه، ويظهر لك فقره، ويواري عنك غناه، وتدع من يفتح لك بابه بنصف الليل، ونصف النهار، ويظهر لك غناه، ويقول: ادعني أستجب لك؟!

وقال طاووس لعطاء: إياك أن تطلب حوائجك إلى من أغلق دونك بابه، ويجعل دونها حجَّابه، وعليك بمن بابه مفتوح إلى يوم القيامة، أمرك أن تدعوه، ووعدك بأن يجيبك»[1]. =

---

(١) جامع العلوم ١/ ٤٨١.

. . . .

= ولله در الشيخ المَكُّودي حيث يقول:

إذا عرضت لي في زمانيَ حاجةٌ ... وقد أشكلت فيها عليَّ المقاصدُ
وقفت بباب الله وقفة ضارعٍ ... وقلت: إلهي إنني لك قاصدُ
ولست تراني واقفاً عند بابِ مَنْ ... يقول فتاهُ: سيدي اليومَ راقدُ

ولله در القائل:

يا أمَّ عُقْبةَ إني أيما رجلٍ ... إذا النفوسُ ادَّرَعْنَ الرعبَ والرَّهبا
لا أمدح المرء أبغي من فضائله ... ولا أظل أداجيه إذا غضبا
ولا يراني على باب أراقبه ... أبغي الدخول إذا ما بابُه حجبا

وكان الشيخ عز الدين بن عبدالسلام ـ رحمه الله ـ إذا قرأ عليه الطالب، وانتهى، يقول: اقرأ من الباب الذي يليه ولو سطراً؛ فإني لا أحب الوقوف على الأبواب![1].

---

(١) انظر المطالع للغزولي ١/ ٢٩، وحكم وأخلاق عربية لمحمد المكي بن الحسين ص١٨١ و ٢٥٩.

كما قال ـ سبحانه ـ[١] فيما يأثر عنه نبيُّه[٢]:

١- قوله: «كما قال ـ سبحانه ـ» أي كما قال الله ـ عز وجل ـ في الحديث القدسي.

٢- قوله: «فيما يأثر عنه نبيُّه»: أي فيما يرويه عنه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

وهذا الحديث هو الحديث القدسي العظيم الذي رواه الصحابي الجليل أبو ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ والذي مطلعه: «**يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا...**» الحديث.

وقد روى هذا الحديث الإمام أحمد ٥/ ١٥٤ و ١٦٠، والإمام مسلم في صحيحه (٢٥٧٧)، والإمام الترمذي (٢٤٩٥).

وبهذا الحديث ختم الإمام النووي كتابه الأذكار، وقال ـ رحمه الله ـ: «فصل في آخر ما قصدته من هذا الكتاب، وقد رأيت أن أضم إليه أحاديث تَتِمُّ محاسن الكتاب بها ـ إن شاء الله ـ.

وهي الأحاديث التي عليها مدار الإسلام، وقد اختلف العلماء فيها اختلافاً منتشراً، وقد اجتمع مِنْ تداخل أقوالهم مع ما ضممته إليها ثلاثون حديثاً»[١].

ثم ساقها ـ رحمه الله ـ وختمها بحديث أبي ذرٍّ «يا عبادي» حيث قال: «الثلاثون، وبه اختتامها، وختام الكتاب، فنذكره بإسناد مُستظرف، ونسأل الله الكريم خاتمة الخير»[٢]. =

(١) الأذكار ص٣٦٢.

(٢) الأذكار ص٣٦٧.

. . . .

= ثم ساق سند الحديث، ومتنه، وقال بعد ذلك ص٣٦٨: «قال أبو مِسْهَر: قال سعيد بن عبدالعزيز: كان أبو إدريس ـ الخولاني ـ إذا حدَّث بهذا الحديث جثا على ركبتيه».

ثم قال النووي ـ رحمه الله ـ: «هذا حديث صحيح رويناه في صحيح مسلم وغيره، ورجال إسناده مني إلى أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ كلهم دمشقيون، ودخل أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ دمشق.

فاجتمع في هذا الحديث جمل من الفوائد: منها صحةُ إسناده، ومتنه، وعلوُّه، وتسلسله بالدمشقيين ـ رضي الله عنهم وبارك فيهم ـ. ومنها ما اشتمل عليه من البيان لقواعد عظيمة في أصول الدين وفروعه، والآداب، ولطائف القلوب، وغيرها، ولله الحمد.

روينا عن الإمام أبي عبدالله أحمد بن حنبل ـ رحمه الله تعالى ورضي عنه ـ قال: ليس لأهل الشام حديثٌ أشرفُ من هذا الحديث»[1].

هذا ولشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ شرح مفصل لهـذا الحديث في مجموع الفتاوى ١٨/ ١٣٦-٢٠٩.

---

(١) الأذكار ص٣٦٨.

«كلكم جائع[١] إلا من أطعمته[٢] فاستطعموني[٣] أطْعِمْكُم[٤].
يا عبادي[٥] كلكم عارٍ[٦] إلا من كسوته[٧] فاستكسوني[٨] أكْسُكُم»[٩].

١- قوله: «كلكم جائع»: الجوع: ألم ينال الإنسان والحيوان من جراء خلو المعدة من الطعام[١].

٢- قوله: «إلا من أطعمته»: أي كلكم لا يجد ما يسد جوعته من الطعام إلا من رزقته الطعام.

٣- قوله: «فاستطعموني»: الفاء إما أن تكون تعليلية، أو أن تكون مشعرة بشرط، والتقدير: إن كان الأمر كذلك فا. . .

وقوله: «فاستطعموني»: يعني اطلبوا الطعام مني.

٤- قوله: «أطعمكم»: هذا جواب الطلب مجزوم، وعلامة جزمه السكون.

٥- قوله: «يا عبادي»: هذا نداء للعباد كافة، والعبودية هنا مقصود بها العبودية العامة، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

فهي عبودية لربوبية، وليست كما في قولـه: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٦٣] ونحو ذلك.

٦- قوله: «عارٍ»: اسم فاعل من العري، يقال: عري من ثوبه يعرى فهو عارٍ وعُريان[٢].

=

---

(١) انظر معجم مفردات ص١٠١.

(٢) انظر معجم مفردات ص٣٤٤.

. . . .

= ٧- قوله: «كسوته»: من الكِساء، والكِسوة: وهي اللباس، قال ـ تعالى ـ: «أو كِسْوتهم»[1].

٨- قوله: «فاستكسوني»: أي اطلبوا الكسوة مني.

٩- قوله: «أكسكُم»: هذا جواب الطلب مجزوم، وعلامة جزمه حذف حرف العلة: الواو.

قال ابن رجب رحمه الله ـ في شرح هذا الحديث: «هذا يقتضي أن جميع الخلق مفتقرون إلى الله ـ تعالى ـ في جلب مصالحهم، ودفع مضارِّهم في أمور دينهم ودنياهم، وأن العباد لا يملكون لأنفسهم شيئاً من ذلك كله، وأن مَنْ لم يتفضل الله عليه بالهدى والرزق فإنه يحرمهُما في الدنيا، ومن لم يتفضل عليه بمغفرة ذنوبه أوثقته خطاياه»[2].

وقال ـ أيضاً ـ: «وفي الحديث دليل على أن الله يحب أن يسأله العباد جميع مصالح دينهم، ودنياهم من الطعام، والشراب، والكسوة، وغير ذلك كما يسألونه الهداية والمغفرة»[3].

---

(١) انظر معجم مفردات ص٤٤٨.

(٢) جامع العلوم ٢/ ٣٧-٣٨.

(٣) جامع العلوم ٢/ ٣٨-٣٩.

وفيما رواه الترمذي[١] عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «ليسأل أحدُكم ربَّه حاجته كلها، حتى شسع نعله[٢] إذا انقطع؛ فإنه إن لم ييسره لم يتيسر».

١- برقم (٣٦٠٤) طبعة بشار عواد، وهو ساقط من طبعة عبدالباقي، والطبراني في الدعاء (٢٥)، وصححه ابن حبان (٨٦٦)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي (٧٣٥) والضعيفة (١٣٦٢).

٢- قوله: «شسع نعله»: الشسع: أحد سيور النعل، وهو الذي يدخل بين الأصبعين، ويدخل طرفه في الثقب الذي في صدر النعل[١].

والمقصود من الحديث أن على الإنسان أن يتوجه إلى ربه في جميع حوائجه، وقوله: «حتى شسع نعله» إشارة إلى أن ما فوقه أولى وأحرى.

وجاء في أثر إسرائيلي أن موسى ـ عليه السلام ـ قال: «يا رب إنه لَتَعْرِض لي الحاجة من الدنيا، فأستحيي أن أسألك هي يا رب.

فقال الله ـ تعالى ـ: سلني حتى ملحَ عجينتك، وعلف شاتك»[٢].

قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ في جامع العلوم والحكم ٢/ ٣٩: «وكان بعض السلف يسأل الله في صلاته كل حوائجه، حتى ملح عجينته، وعلف شاته» ا.هـ

وقال بعد أن أورد الأثر الإسرائيلي الماضي: «فإن كل ما يحتاج=

---

(١) انظر لسان العرب ٨/ ١٨٠.

(٢) أورده ابن القيم في مدارج السالكين ٢/ ٢٥١، وابن رجب في جامع العلوم ٢/ ٣٩.

. . . .

= العبد إليه إذا سأله من الله فقد أظهر حاجته، وافتقاره إلى الله، وذلك يحبه الله.

وكان بعض السلف يستحيي من الله أن يسأله شيئاً من مصالح الدنيا، والاقتداء بالسنة أولى» ا.هـ

وقد قال الله ـ تعالى ـ في كتابه: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ من فَضْله﴾[١].

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا من فَضْلِ اللَّه﴾ [الجمعة: ١٠][٢].

١- هذه الآية من سورة النساء، يقول الله ـ عز وجل ـ فيها: ﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ به بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ من فَضْله إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير الآية بعد أن بين أن الله ـ عز وجل ـ نهاهم تمني ما فضل الله به بعضهم على بعض، وساق أقوال أهل العلم في ذلك، قال: «ثم أرشدهم إلى ما يصلحهم فقال: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ من فَضْله﴾: لا تتمنوا ما فضلنا به بعضكم على بعض؛ فإن هذا أمر محتوم، أي أن التمني لا يجدي شيئاً، ولكن سلوني من فضلي أعطكم؛ فإني كريم وهاب»[١].

٢- هذه الآية من سورة الجمعة، قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيرها: «لما حجر عليهم في التصرف بعد النداء، وأمرهم بالاجتماع أذن لهم بعد الفراغ في الانتشار في الأرض، والابتغاء من فضل الله كما كان عراك بن مالك ـ رضي الله عنه ـ إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال: اللهم إني أجبت دعوتك، وصليت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني فارزقني من فضلك، وأنت خير الرازقين»[٢] ا.هـ

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٦٣ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٦٧ .

وهذا وإن كان في الجمعة فمعناه قائم في جميع الصلوات[١].
ولهذا ـ والله أعلم ـ أمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي يدخل المسجد أن يقول: «اللهم افتح لي أبواب رحمتك»[٢].
وإذا خرج أن يقول: «اللهم إني أسألك من فضلك»[٣].
وقد قال الخليل[٤] ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له»[٥].

١- قوله: «**وهذا وإن كان...**» يعني أن هذا المعنى، وهو سؤال الله من فضله وإن كان قد جاء بعد الفراغ من صلاة الجمعة فمعناه موجود في جميع الصلوات؛ إذ يشرع قبل دخول المسجد للصلاة سؤال الله الرحمة، وبعد الفراغ منها والخروج من المسجد سؤال الله الفضل.

٢-٣- لحديث أبي حميد، أو أبي أسيد في صحيح مسلم (٧١٣) قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: «**إذا دخل أحدكم المسجد فليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل: اللهم إني أسألك من فضلك**».

٤- قوله: «**الخليل**»: هو إبراهيم ـ عليه السلام ـ والخليل من الخلَّة، وهي خالص المحبة، وأعلى درجاتها، كما قال القائل:

قد تخللت مسلك الروح مني　　　وبذا سمي الخليل خليلا

٥- هذه الآية من سورة العنكبوت، قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره: ٣/ ٣٩٣ عند تفسير هذه الآية: «فابتغوا»: أي فاطلبوا، =

. . . .

= «عند الله الرزق»: أي لا عند غيره؛ فإن غيره لا يملك شيئاً».

وقال قبل ذلك: «فابتغوا عند الله الرزق»: هذا أبلغ في الحصر» ا. هـ

يعني تقديم الظرف «عند الله» على المفعول به «**الرزق**».

وهذا أمر،[١] والأمر يقتضي الإيجاب[٢]؛ فالاستعانة بالله، واللجوء إليه في أمر الرزق وغيره[٣] ـ أصل عظيم[٤].

١- قوله: «**وهذا أمر**»: يعني ما مضى من قوله «**واسألوا الله من فضله**»، وقوله: «**وابتغوا من فضل الله**»، وقوله: «**فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له**».

٢- قوله: «**والأمر يقتضي الإيجاب**»: أي أن الأمر على بـابِه، ومقتضاه: وجوبُ ما أُمِر به ما لم يكن ثمة صارف يصرفه عن الوجوب، ولا صارف هنا؛ فيبقى الأمر على بابه.

٣- قوله: «**وغيره**» أي غير أمر الرزق كالاستعانة به على النصر، والشفاء، والهداية ونحو ذلك.

٤- قوله: «**أصل عظيم**»: لأنه يتعلق بتوحيد الله ـ عز وجل ـ وإفراده بالعبادة دون من سواه؛ فالاستعانة، واللجأ، ونحوها عبادات، وصرفها لله إيمان وتوحيد، وصرفها لغيره شرك وتنديد.

بل إن التوحيد أصل الأصول، وأهم المهمات.

وعلى هذا فالأمر بسؤال الله، والاستعانة به، واللجوء إليه في شتى الشؤون ـ فرض واجب.

والنصوص الشرعية متضافرة متظاهرة على هذا المعنى، وقد مر طرف منها فيما مضى، ومن ذلك ـ أيضاً ـ قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «**إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت**=

. . . .

= **فاستعن بالله»**[١].

أي إذا أردت أن تسأل شيئاً فاسأل الله ـ عز وجل ـ دون غيره، يعطك ما سألته؛ فإنه الغني على التحقيق، والمُولي لكل خير وتوفيق، وخزائن الجود بيده، وأمرها إليه، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع.

قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ في حديث ابن عباس «**إذا سألت...**»: «هذا منتزع من قوله ـ تعالى ـ: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾.

فإن السؤال لله هو دعاؤه، والرغبة إليه، والدعاء هو العبادة».

إلى أن قال: «فتضمن هذا الكلام أن يسأل الله ـ عز وجل ـ ولا يسأل غيره، وأن يستعان بالله دون غيره» ا ـ هـ[٢].

بل لقد جاء الزجر الشديد، والنهي الشديد في مسألة الناس إلا لمن كان مضطراً، أو متحملاً حَمَالة، أو من أصابته جائحة، أو فاقة، أو نحو ذلك..

قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**لأن يأخذ أحدكم أحبلاً؛ فيأخذ حزمة من حطب، فيكفَّ الله به وجهه ـ خيرٌ من أن يسأل الناس أُعطي أو مُنع**»[٣].

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**من يستغن يغنِهِ الله، ومن يستعفف**=

(١) رواه أحمد ١/٢٩٣، والترمذي (٢٥١٦) وقال: «هذا حديث حسن صحيح».
(٢) جامع العلوم ١/٤٧٨.
(٣) رواه البخاري (٢٠٧٤ و٢٣٧٤ و١٤٧٠ و١٤٨٠) ومسلم (١٠٤٢).

. . . .

= **يُعفَّه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحدٌ عطاءً خيراً وأوسع من الصبر»**[١].

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«من سأل الناس أموالهم تكثُّراً فإنما يسأل جمراً فليستقل أو يستكثر»**[٢].

وقال: **«ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مُزْعَةُ لحم»**[٣].

بل لقد أوصى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفراً من أصحابه ألا يسألوا الناس شيئاً؛ ففي صحيح مسلم (١٠٤٣) عن عوف بن مالك الأشجعي ـ رضي الله عنه ـ أنه لما بايع النبيَّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع طائفة من أصحابه، قالوا: فعلام نبايعك؟ قال: **«على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، والصلوات الخمس، وتطيعوا**، وأسرَّ كلمة خفية: **ولا تسألوا الناس شيئاً»**.

قال عوف: فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم؛ فما يسأل أحداً يناوله إياه».

وعن قبيصة بن مخارقٍ الهلالي ـ رضي الله عنه ـ قال: تحمَّلت حَمَالةً فأتيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أسأله فيها، فقال: =

(١) رواه البخاري (١٤٦٩ و ٦٤٧٠)، ومسلم (١٠٥٣).

(٢) رواه مسلم (١٠٤١).

(٣) رواه البخاري (١٤٧٤)، ومسلم (١٠٤٠).

. . . .

= «أقم حتى تأتينا الصدقةُ، فنأمر لك بها».

قال: ثم قال: «يا قَبيصةُ! إن المسألة لا تَحِلُّ إلا لأحد ثلاثة: رجلٍ تحمَّل حمالةً فحلَّت له المسألة، حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحةٌ اجتاحت ماله، فحلَّت له المسألةُ حتى يصيب قِواماً من عيش (أو قال: سِداداً من عيش) ورجل أصابته فاقةٌ حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحِجا من قومه: لقد أصابت فلاناً فاقةٌ، فحلَّت له المسألة حتى يصيب قِواماً من عيش (أو قال: سِداداً من عيش) فما سواهن من المسألة يا قبيصةُ سُحتاً يأكلها صاحبها سحتاً»[1].

ولعل من الملاحظ أن شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ أبدا وأعاد في شأن المسألة، والاستعانة، ونحوها في مواضع من هذه الوصية، وما ذلك إلا لأهميتها، وعظم شأنها.

---

(١) رواه مسلم (١٠٤٤).

ثم ينبغي له[١] أن يأخذ المال بسخاوة نفس[٢]؛ ليبارك له فيه[٣]، ولا يأخذه بإشراف[٤]، وهلع[٥].

١- قوله: «**ثم ينبغي له**»: هذا عطف على الكلام السابق، أي ينبغي للإنسان الناصح لنفسه.

٢- قوله: «**أن يأخذ المال بسخاوة نفس**»: أي بتكرم، وجود، وطيب نفس، وتركٍ للمنازعة فيه؛ بحيث لا يكون أكبر الهم، ولا مبلغ الغاية.

٣- قوله: «**ليبارك له فيه**» أي لأجل أن تطرح البركة فيه، والبركة هي نزول الخير الإلهي في الشيء، وثبوته فيه[١].

٤- قوله: «**ولا يأخذه بإشراف**»: أي لا يحصل على المال، ولا يناله بإشراف.

وقوله: «**بإشراف**»: أي بتعرض له، وتطلع إليه، وحرص عليه، وتوقع لحصوله[٢].

٥- قوله: «**وهلع**»: الهلع: الحرص، والجزع، والخضوع، وقلة الصبر[٣].

ومعنى كلام الشيخ ـ رحمه الله ـ أن على الإنسان العاقل المريد الخير لنفسه أن يأخذ المال بنفس كريمة سخية بعيـداً عن التعرض، =

---

(١) انظر معجم مفردات ص٤١.

(٢) انظر لسان العرب ٩/ ١٧٢-١٧٣.

(٣) انظر لسان العرب ٨/ ٣٧٤-٣٧٥.

. . . .

=والذلة، والخضوع، والحرص الشديد، وبذلك يكون المال مباركاً على صاحبه، لا وبالاً عليه.

جاء في الصحيحين عن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: «سمعت عمر بن الخطاب يقول: قد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعطيني العطاء، فأقول: أعطِهِ أفقر إليه مني، حتى أعطاني مرة مالاً، فقلت: أعطِهِ أفقر إليه مني.

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«خُذْهُ، وما جاءك من المال وأنت غير مشرف، ولا سائل فخُذْهُ، ومالا فلا تُتبعْه نفسك»**[1].

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ في شرح الحديث: «والإشراف بالمعجمة: التعرض للشيء، والحرص عليه من قولهم: أشرف على كذا إذا تطاول له، وقيل للمكان المرتفع شرف؛ لذلك»[2].

وقال: «قال أبو داود سألت أحمد عن إشراف النفس؟

فقال: بالقلب.

وقال يعقوب بن محمد سألت أحمد عنه، فقال: هو أن يقول مع نفسه: يبعث إلي فلان بكذا.

وقال الأثرم: يَضِيقُ عليه أن يروه إذا كان كذلك»[3].

وبهذا يحفظ الإنسان على نفسها عزتها وكرامتها؛ إذ يرفعها عن=

---

(١) البخاري (١٤٧٣ و ٧١٦٣) ومسلم (١٠٤٥).

(٢ ، ٣) فتح الباري ٣/ ٣٩٥.

. . . .

= مواطن الذل، والمنة.

ولهذا تجد أن أشد الناس عزماً، ومضاءًا هو أنزههم نفساً، وأبعدهم عن الطمع وجهة.

ثم إن عزة النفس تلقي على صاحبها مهابة ووقاراً في العيون، وتحرز له جلالة ومكانة في القلوب.

أنشد الإمام أحمد بن يحيى ثعلب ـ رحمه الله ـ:

من عف خفَّ على الصديق لقاؤه ... وأخو الحوائج وجهه مبذول
وأخوك ما وفَّرت ما في كيسه ... فإذا استعنت به فأنت ثقيل[1]

وقال الشافعي ـ رحمه الله ـ:

رأيت القناعة كنز الغنى ... فصرت بأذيالها ممتسكْ
فلا ذا يراني على بابه ... ولا ذا يراني به منهمكْ
وصرت غنياً بلا درهم ... أمرُّ على الناس شبه الملك[2]

---

(١) انظر عين الأدب والسياسة لعبدالرحمن بن هذيل ص١٣٧.

(٢) ديوان الشافعي ص٨٥.

بل يكون المال عنده[١] بمنزلة الخلاء[٢] الذي يحتاج إليه من غير أن يكون له في القلب مكانة، والسعي فيه إذا سعى كإصلاح الخلاء[٣].

١- قوله: «**بل يكون المال عنده**»: بل تفيد الإضراب، أي بل ينبغي أن يكون المال بمنزلة الخلاء.

٢- قوله: «**بمنزلة الخلاء**»: أي بمكانة الخلاء، وقدره في قلبه؛ فقصارى أمره مع الخلاء أن يستعمله لقضاء حاجته دون أن يكون له أدنى تعلق بالقلب.

والخلاء: هو موضع قضاء الحاجة.

٣- قوله: «**والسعي فيه إذا سعى..**»: أي ينبغي أن يكون السعي في إصلاح المال كالسعي في إصلاح الخلاء سواء بسواء، لا يتعدى ذلك إلى غيره؛ فيكون المال أكبر همه، يعادي من أجله ويوالي، ولا يبالي من أي مكان اكتسبه، ولا في أي مكان أنفقه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في العبودية ص١٠٢ مبيناً ما ينبغي أن تكون عليه حال الإنسان مع المال: «فيكون المال عنده ـ يستعمله في حاجته ـ بمنزلة حماره الذي يركبه، وبساطه الذي يجلس عليه.

بل بمنزلة الكنيف الذي يقضي فيه حاجته من غير أن يستعبده، فيكون هلوعاً: إذا مسه الشر جزوعاً، وإذا مسه الخير منوعاً».

وفي الحديث المرفوع الذي رواه الترمذي[١] وغيره: «من أصبح والدنيا أكبرُ همّه[٢] شتَّت[٣] الله عليه شمله[٤]، وفرّق عليه ضَيْعَتَه[٥]، ولم يأتهِ من الدنيا إلا ما كتب له.

ومن أصبح[٦] والآخرةُ أكبرُ همّه جمع الله عليه شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة».

١- في كتاب صفة القيامة (٢٤٦٥) عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ وسكت عنه الترمذي ـ رحمه الله ـ وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ في صحيح الجامع (٦٥١٠).

ونص الحديث: «من كانت الآخرة همَّه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة.

ومن كانت الدنيا همَّه جعل الله فقره بين عينيه، وفرّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدّر له».

٢- قوله: «والدنيا أكبر همه»: أي غاية قصده، وقبلة قلبه.

٣- قوله: «شتت»: أي فرق.

٤- قوله: «شمله»: الشمل: من الألفاظ المتضادة، فيطلق على الاجتماع، ويطلق على التفرق، يقال: جمع الله شمله، أي ما تفرق وتشتَّت منه.

ويقال: فرق الله شمله: أي ما اجتمع من أمره[١]. =

---

(١) انظر لسان العرب ١١/ ٣٧٠.

. . . .

= ومعناها ههنا: فرق الله شمله.

٥- قوله: «فرق عليه ضيعته»: قوله: فرق: التفريق ضد الجمع، وقوله: «ضيعته»: ضيعة الرجل حِرفتُه، وصناعته، ومعاشه، وكسبه أي شتت الله عليه ذلك كله؛ جزاءًا له من جنس عمله، فلما ضيَّع أمر الله، ضاع عليه أمرُه[1].

٦- قوله: «من أصبح...» إلخ: هذا بعكس الأول تماماً.

ومعناه: أن من جمع همته، وهمه على الله ـ سبحانه ـ محبة، وإنابة، وتوكلاً، وخوفاً، ورجاءًا، وصارت الآخرة نصب عينيه، والدنيا خلف ظهره وإن لم ينس نصيبه منها ـ جمع الله له أمره، ورزقه القناعة، وأتته الدنيا طائعة خاضعة.

قال أبو حازم سلمة بن دينار ـ رحمه الله ـ: «أوحى الله ـ عز وجل ـ إلى الدنيا: من خدمك فأتعبيه، ومن خدمني فاخدميه»[2].

وجاء في بعض الآثار: «ابن آدم بِعْ نصيبك من الدنيا بالآخرة تربحْهما جميعاً، ولا تبع الآخرة بالدنيا تخسرهما جميعاً»[3].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في الفوائد ص١٢٦: «إذا أصبح العبد وأمسى وليس همه إلا الله وحده تحَمَّل الله ـ سبحانه ـ حوائجه كلها، =

---

(١) انظر لسان العرب ٨/ ٢٣٠.

(٢) الزهد الكبير للبيهقي (١٢).

(٣) الوابل الصيب ص٣٠.

. . . .

= وحمل عنه كل ما أهمه، وفرَّغ قلبه لمحبته، ولسانه لذكره، وجوارحه لطاعته.

وإذا أصبح وأمسى والدنيا همُّه حَمَّله الله همومها، وغمومها، وأنكادها، ووكله إلى نفسه، فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخلق ولسانه عن ذكره بذكرهم، وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم؛ فهو يكدح كدح الوحش في خدمة غيره، كالكير يُنفخ بطنه، ويعصر أضلاعه في نفع غيره؛ فكل من أعرض عن عبودية الله، وطاعته، ومحبته بُلي بعبودية المخلوق، ومحبته، وخدمته.

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]» ا.هـ

وقال بعض السلف[١]: أنت محتاج إلى الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج؛ فإن بدأت بنصيبك من الآخرة مرَّ على نصيبك من الدنيا فانتظمه انتظاماً[٢].

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجنَّ وَالإنسَ إلاَّ لِيَعْبُدُون ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُون ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨]»[٣].

١- هذا الأثر رواه الإمام أحمد في الزهد ص٢٢٨.

٢- هذا الكلام مطابق للكلام الماضي، وموضح له، ومعناه أن الإنسان محتاج إلى حظه من الدنيا كما قال ـ تعالى ـ: **﴿وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾** [القصص: ٧٧].

ولكنَّ حاجته إلى نصيبه من الآخرة أشد؛ فإذا اشتغل بنصيب الآخرة كان من بركاته أن يمر على نصيبه من الدنيا فيضمه إليه ويصلحه تبعاً لذلك، فيربح دنياه وأخراه.

٣- هذه الآية من سورة الذاريات، وقد بين الله فيها الحكمة من خلق الجن والإنس، وهي عبادته ـ عز وجل ـ وهذه الآية مطابقة لسياق الكلام الماضي؛ فالله ـ عز وجل ـ خلقنا لعبادته، وتكفل لنا بالرزق؛ فسخر كل شيء لأجلنا، وأمر بعبادته؛ فإذا اشتغلنا بما خلق لنا عما خلقنا لأجله خسرنا الدنيا والآخرة، وإذا اشتغلنا بما خلقنا لأجله ربحنا الدنيا والآخرة. =

. . . .

= قال ابن كثير عند تفسير هذه الآيات: «وقد ورد في بعض الكتب الإلهية: يقول الله ـ تعالى ـ: ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب؛ فاطلبني تجدْني؛ فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فُتُّك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء»(١).

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٢٣٩.

فأما تعيين مكسب على مكسب[١] من صناعة، أو تجارة، أو بناية، أو حراثة، أو غير ذلك ـ فهذا يختلف باختلاف الناس[٢]، ولا أعلم في ذلك شيئاً عاماً[٣].

١- قوله: «**فأما تعيين مكسب على مكسب**»: أي أن تخصيص عمل من الأعمال التي يجتلب فيها النفع، ويحصِّل الحظ، أو الإشارة به، أو تفضيله على غيره ـ لا يتأتَّى، ولا يمكن القول فيه بقول معين.

٢- قوله: «**فهذا يختلف باختلاف الناس**»: أي أن الناس تختلف مواهبهم، ومداركهم، ومشاربهم؛ فكل ميسر لما خلق له، وقد علم كل أناس مشربهم.

٣- قوله: «**ولا أعلم في ذلك شيئاً عاماً**»: أي لا أعلم، رأياً أو مذهباً معيناً في ذلك الأمر حتى يصار إليه بكل حال.

ومراد شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ من الكلام السابق: أنه لا يتأتى للإنسان أن يشير بتفضيل مكسب على مكسب، أو عمل من الأعمال الدنيوية على عمل آخر؛ لأن همم الناس، ومواهبهم تختلف في توجهها إلى ما تستدعيه الحياة من الحرف، والصنائع، هذا هو مراد الشيخ.

وهذا بالنسبة للأفراد.

أما بالنسبة للأمة فهي بحاجة إلى ذلك كله؛ حتى يأخذ العمران طريقه، وتسير حياة الناس بانتظام.

وقد يوجد في أغلب البلاد: الحداد، والنجار، والبناء، والزراع، =

. . . .

= والصائغ، والخياط، والحمَّال، والكنَّاس إلى غير ذلك من الحرف الضرورية.

ومن المحتمل أن لا تطَّرد هذه السنة في بلد أو عصر؛ فيزهد الناس في حرفة، أو في صناعة؛ فلم يدع الشارع هذه الضروريات أو الحاجيات إلى الدواعي الفطرية وحدها.

بل جعل القيام بكل حرفة، أو صناعة يُحتاج إليها في الحياة فرض كفاية؛ حتى يستقيم أمر الحيـاة؛ فإن لم تختلف همم الناس اختلافاً يفي بما تحتاج إليه البلاد من الحرف والصنائع ـ وجب على أولي الشأنِ العملُ لسدِّ حاجات الأمة، وإقامة الحرفة، أو الصنعة المفقودة، ولو ببعث طائفة إلى خارج البلاد؛ ليتعلموها، ويحسنوا القيام بها.

هذا وقد دلنا التاريخ الصحيح لعهد النبوة أن الناس كانوا يتعاونون على مرافق الحياة، ووسائل السعادة؛ فقد روى البخاري في صحيحه (١١٨) عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم، وإن أبا هريرة يلزم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشبع بطنه، ويحضر ما لا تحضرون، ويحفظ ما لا تحفظون».

فدل هذا الحديث على أن طائفة من المهاجريـن كانوا يشتغلون بالتجارة، وطائفة من الأنصار كانوا يشتغلون بالفلاحة والزراعة، وأن أبا هريرة كان منقطعاً لطلب العلم. =

. . . .

= وعرفنا من طريق هذه الرواية أن الأمة كانت تتعاطى بعض الصنائع كالنجارة، والحدادة.

وهكذا نجد أن الإسلام يجمع بين هذه المتطلبات في شأن الأفراد والجماعات[1].

(١) انظر رسائل الإصلاح للشيخ محمد الخضر حسين ١/١٦٦.

لكن إذا عنَّ للإنسان جهة[١] ـ فليستخر[٢] الله ـ تعالى ـ فيها الاستخارةَ المتلقاةَ عن معلم الخير ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإن فيها من البركة ما لا يحاط به[٣].

ثم ما تيسر له[٤] فلا يتكلف غيره[٥] إلا أن يكون[٦] منه كراهة شرعية[٧].

١- قوله: «لكن إذا عنَّ للإنسان جهـة» قوله: «عن»: أي ظهر أمامه، أو عرض أو اعترض له، يقال: عنَّ: يَعِنُّ ويَعُنُّ عناً، وعنوناً.

وقوله «جهة»: أي وجهة معينة لعمل من الأعمال، أو شأن من الشؤون.

٢- قوله: «فليستخر الله..»: أي ليقم بالاستخار الشرعية؛ حتى يُهدى لأرشد أمره.

٣- قوله: «فإن فيها من البركة ما لا يحاط به»: أي أن في الاستخارة من الخير، والتسديد ما لا يخطر بالبال ـ كما مـر عند الحديث عن الاستخارة قبل صفحات.

٤- قوله: «ثم ما تيسر له»: أي من الأعمال، ووجوه المكاسب.

٥- قوله: «فلا يتكلف غيره»: أي فلا يعدل عنه إلى سواه مما لا يلائمه أو لا يحسنه، أو مما لا يعود عليه بالنفع.

٦- قوله: «إلا أن يكون منه»: أي من العمل، أو المكسب.

٧- قوله: «كراهة شرعية»: سواء كانت كراهة تحريم كمن يشتغل بالربا، ونحوه من المكاسب الخبيثة. =

. . . .

= أو كانت الكراهة كراهة تنزيه كمن يتعاطى عملاً مشتبهاً يتجاذبه جانبا الحلِّ والحرمة.

وكما ينبغي أن تكون هذه هي حال الإنسان في نفسه ـ من جهة كونه يتوجه إلى ما يلائمه من الأعمال، والمكاسب ـ فكذلك ينبغي أن يكون حاله مع ولده، ومن تحت يده.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتاب القيم «تحفة المودود بأحكام المولود» ص١٤٧-١٤٨ في معرض حديث له عن أصول مهمة في تربية الولد: «ومما ينبغي: أن يعتمد حال الصبي، وما هو مستعدٌّ له من الأعمال، ومهيأ له منها؛ فيعلم أنه مخلوق له؛ فلا يحمله على غيره ما كان مأذوناً فيه شرعاً؛ فإنه إن حمله على غير ما هو مستعدٌّ له لم يفلح فيه، وفاته ما هو مهيَّأٌ له؛ فإذا رآه حسن الفهم، صحيح الإدراك، جيد الحفظ واعياً ـ فهذه من علامات قبوله، وتهيُّئه للعلم؛ لينقشه في لوح قلبه ما دام خالياً؛ فإنه يتمكن فيه، ويستقرُّ، ويزكو معه.

وإن رآه بخلاف ذلك من كل وجه، وهو مستعدٌّ للفروسية، وأسبابها من الركوب والرمي، واللعب بالرمح، وأنه لا نفاذ له في العلم، ولم يخلق له ـ مكَّنه من أسباب الفروسية، والتمرن عليها؛ فإنه أنفع له وللمسلمين.

وإن رآه بخلاف ذلك، وأنه لم يخلق لذلك، ورأى عينه مفتوحة إلى صنعة من الصنائع، مستعداً، قابلاً لها، وهي صناعة مباحة نافعة=

. . . .

=للناس ـ فلْيُمكِّنْهُ منها.

هذا كله بعد تعليمه له ما يحتاج إليه في دينه؛ فإن ذلك مُيَسَّرٌ لكل أحد؛ لتقوم حجةُ الله على العبد؛ فإن له على عباده الحجة البالغة، كما له عليهم النعمة السابغة، والله أعلم» ا.هـ

وأما ما تعتمد عليه من الكتب في العلوم فهذا باب واسع[١]، وهو ـ أيضاً ـ يختلف باختلاف نشء الإنسان في البلاد؛ فقد يتيسر له في بعض البلاد من العلم، أو من طريقه ومذهبه فيه ـ ما لا يتيسر له في بلد آخر[٢].

١- قوله: «**وأما ما تعتمد عليه من الكتب في العلوم فهذا باب واسع**»: هذا شروع في بيان منهج طلب العلم، والضمير في قوله: «**تعتمد عليه**» يعود على السائل أبي القاسم المغربي.

ومعنى هذا الكلام: أن سؤالك عما تريد التعويل من كتب العلم يحتاج إلى بسط؛ فهو ميدان فسيح؛ ذلك أن العلم بحر لا ساحل له، ويصعب تحديد ما يُعتمد عليه على وجه الدقة.

٢- قوله: «**وهو ـ أيضاً ـ**» إلى قوله: «**في بلد آخر**»: هذا الكلام يدل على سعة أفق شيخ الإسلام، وبعد نظره ـ رحمه الله ـ حيث لم يلزم السائل بطريقة معينة، أو كتب معينة، أو مذهب معين؛ لأن ذلك يختلف باختلاف ما تربى عليه الإنسان، وذلك يختلف من بلد لآخر؛ فقد يتسنى له في بعض البلاد من فنون العلم، أو من طريق العلم، وطرق التعليم، ومذهب أهل بلد ما ـ ما لا يتسنى له في بلد آخر، وهكذا. . .

لكن جماع الخير أن يستعين بالله ـ سبحانه ـ في تلقي العلم الموروث عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم[١] ـ فإنه هو الذي يستحق أن يسمى علماً[٢]، وما سواه[٣] إما أن يكون علماً[٤] فلا يكون نافعاً، وإما أن لا يكون علماً وإن سمي به[٥].

١- قوله: «**لكن جماع الخير**» إلى قوله «**عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ**»: هذا رد للأصل، وهو بيان أن الخير كل الخير، لأي أحد، وفي أي مكان، أو زمان ـ إنما يحصل بالاستعانة بالله في سبيل طلب العلم الشرعي المتلقى عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

٢- قوله: «**فإنه هو الذي يستحق أن يسمى علماً**»: لأنه جاء من عند الله ـ عز وجل ـ ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

ولأنه أخذ ممن وَصَفَه ربُّه بأنه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

ثم إن الله ـ عز وجل ـ سماه علماً ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣].

فالهدى هو العلم النافع، ودين الحق هو العمل الصالح.

قال الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ:

كل العلوم سوى القرآن مشغلة ... إلا الحديث وإلا الفقه في الدين
العلم ما كان فيه قال حدثنا ... وما سوى ذاك وسواس الشياطين =

. . . .

= ولقد أحسن من قال:

أيها المغتدي ليطلب علماً كلُّ علم عبدٌ لعلم الرسول

تطلب الفرع كي تصحح أصلاً كيف أهملت علمَ أصل الأصول[1]

٣- قوله: «**وما سواه**»: أي ما سوى العلم الشرعي.

٤- قوله: «**إما أن يكون علماً فلا يكون نافعاً**»: بل قد يكون ضاراً كعلم السحر، والكهانة، وكالعلوم الحديثة التي تعلم السرقة، والنهب، والسلب، ونحو ذلك.

٥- قوله: «**وإما أن لا يكون علماً وإن سمي به**»: كعلم الكلام، فهو ـ في الحقيقة ـ ليس علماً، بل هو أراء، وسفسطات.

وكذلك ما يسمى بالعلم اللدني عند الصوفية، هو علم من لدن أصحابه الذين اخترعوه؛ فهو أذواق، ومواجيد، وتهويمات، وخيالات.

ولهذا فإن السلف لا يسمون علم الكلام علماً، قال شارح الطحاوية ـ رحمه الله ـ: «وذكر الأصحاب في الفتاوى: أنه لو أوصى لعلماء بلده: لا يَدْخُل المتكلمون.

وأوصى إنسان أن يوقف من كتبه ما هو من كتب العلم؛ فأفتى السلف أن يباع ما فيها من كتب الكلام»[2]. =

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية ٧٥-٧٧.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص٧٦.

. . . .

= ومعنى ذلك أن كتب الكلام ليست من العلم؛ ولذلك أفتى السلف بأن تباع لأنها خارجة عن الوقف الذي نص على كتب العلم، وما نُصَّ عليه في الوقف لم يجز بيعُه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «قال يحيى بن عمار: العلوم خمسة؛ فعلم هو حياة الدنيا[1] وهو علم التوحيد، وعلم هو غذاء الدين، وهو علم التذكر بمعاني القرآن والحديث.

وعلمٌ هو دواء الدين، وهو علم الفتوى إذا نزل بالعبد نازلة احتاج إلى من يشفيه منها كما قال ابن مسعود.

وعلم هو داء الدين، وهو علم الكلام المُحْدَث.

وعلمٌ هو هلاك الدين، وهو علم السحر»[2].

(١) لعلها: الدين.

(٢) مجموع الفتاوى ١٠/ ١٤٥.

ولئن كان علماً نافعاً فلابد أن يكون في ميراث محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يغني عنه مما هو مثله، وخير منه[1].

١- معنى الكلام السابق أنه لو كان علم من العلوم نافعاً مفيداً في نفسه غير العلم الشرعي فلابد أن يكون في كتاب الله، وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يغني عن ذلك العلم، ويفضله.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية ٣/ ٣٠٧: «أي ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر وأبين، وأوضح، وأفصح من مقالتهم».

إلى أن قال: «فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله، ومحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعظم نبي أرسله الله ـ تعالى ـ» ا ـ هـ.

قال سفيان بن عيينة ـ رحمه الله ـ: «لا تأتون بمثل مشهور للعرب إلا جئتكم به من القرآن.

فقال له قائل: فأين من القرآن: أعط أخاك تمرة، فإن لم يقبل فأعطِه جمرة؟

فقال: في قوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا﴾ [الزخرف: ٣٦]»[1].

---

(١) الفوائد لابن القيم ص١٢٧.

. . . .

= ولا يعني ذلك أن يُرَدَّ الحق إذا لم يكن في القرآن والسنة، لا؛ فالحكمة ضالة المؤمن.

وإنما المقصود أن كل حق من غيرهما لا يغني عن الحق الذي فيهما، بل إن كثيراً من الحق في غيرهما إنما هو مستمدٌ منهما، أو من بقايا آثار الأنبياء ـ عليهم السلام ـ أو من الفطرة الصحيحة السليمة.

ولْتكُن(١) هِمتُّه(٢) فَهْمَ(٣) مقاصدِ الرسول(٤) في أمره ونهيه(٥) وسائر كلامه(٦).

١- قوله: «**ولْتكُن**»: اللام هنا للأمر، والفعل المضارع بعدها مجزوم وعلامة جزمه السكونِ، والواوُ من يكون: حذفت لئلا يلتقي ساكنان.

وكان هنا ناقصة.

٢- قوله: «**همته**»: أي عزيمته، وقوته، ونيته الجازمة، والضمير ههنا يعود إلى السائل، أو إلى كل إنسان يطلع على هذه الوصية.

٣- قوله: «**فهم**»: أي عقل ذلك، وتدبره.

٤- قوله: «**مقاصد الرسول**»: جمع مقصد، أي مراميه، ومراده.

٥- قوله: «**في أمره ونهيه**»: أي في أمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونهيه، سواء كان الأمر للإيجاب أو الاستحباب، وسواء كان النهي للتحريم، أو الكراهة.

٦- قوله: «**وسائر كلامه**»: أي سائر ما يخبر به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أمور الغيب أو أمور الشرع، أو نحو ذلك مما يصدر عنه.

ومعنى الفقرة الماضية: أن شيخ الإسلام يحث الناصح لنفسه، المريد لها الخير أن يجمع همته، وعزيمته على فهم مراد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في جميع ما يأمر به، وجميع ما ينهى عنه، وجميع=

. . . .

= ما يصدر منه، دون تعصب، أو ميل مع الهوى، أو جنوح إلى التأويل المذموم، أو معارضة، أو تحرج مما جاء به ـ عليه الصلاة والسلام ـ فذلك علامة تعظيم الأمر، والنهي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «علامة تعظيم الأمر والنهي: ألا يعارضا بترخص جافٍّ، ولا يُعرَّضا لتشديد غالٍ، ولا يُحْملا على عِلَّة توهِنُ الانقياد»[1].

(١) الوابل الصيب ص١٦-١٧.

فإذا اطمأن قلبُه[١] أن هذا[٢] هو مراد الرسول[٣] فلا يعدل عنه[٤] فيما بينه وبين الله ـ تعالى ـ[٥] ولا مع الناس[٦] إذا أمكنه[٧] ذلك.

١- قوله: «**فإذا اطمأن قلبه**»: أي إذا سكن، وارتاح، وانشرح صدره لذلك، وأنست نفسه به.

٢- قوله: «**أن هذا..**»: أي الأمر، أو النهي، أو الخبر، أو نحو ذلك مما جاء عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

٣- قوله: «**هو مراد الرسول**»: أي هو مغزى ومقصد أمره، أو نهيه، أو سائر كلامه ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

٤- قوله: «**فلا يعدل عنه**»: لا: هنا ناهية، أي: لا يَحِدْ ولا يَمِلْ عنه يمنة أو يسرة، بل يتبعه، ويأخذ به، ويلزمه، ويعظمه أمراً كان أم نهياً أم غير ذلك.

٥- قوله: «**فيما بينه وبين الله ـ تعالى ـ**»: أي في معاملته مع ربه ـ جل وعلا ـ بحيث يعامله، ويعبده، ويحسن صلته به على وفق ما شرعه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

٦- قوله: «**ولا مع الناس**»: أي لا يَحِدْ عن سبيل الرشد والحق ـ أيضاً ـ في معاملته مع الناس، بحيث يعاملهم على مقتضى ما فهمه من أمر الرسول، ونهيه، وخبره.

٧- قوله: «**ما أمكنه ذلك**»: أي ما استطاع إليه سبيلاً.

وخلاصة القول في معنى الفقرة الماضية: أنه على الإنسان إذا اطمأن=

. . . .

= قلبه، وانشرح صدره، وسكنت نفسه إلى أن الحق هو كذا وكذا ألا يعدل عنه، ولا ينحرف ذات اليمين وذات الشمال؛ لأن ذلك دليل الإيمان، وعلامة التوفيق، ولأن ضده ومخالفته دليل الهوى، ومظنة الزيغ.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣].

وقال ـ عز وجل ـ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقال ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

فعلى الناصح لنفسه أن يأخذ بهذه الوصية، وأن يعامل ربه بما شرعه ـ عز وجل ـ على لسان نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

ويعامل الخلق ـ كذلك ـ بالحسنى، ويقيم أمر الله فيهم وفي معاملتهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً؛ لأنه قد لا يتمكن في بعض الأحيان، أو مع بعض الناس من أن يقوم بما أمر الله به من إقامة أمره ـ عز وجل ـ في الناس أو مع الناس، فيدع أمرَهم بالمعروف، ونهيَهم عن المنكر، أو بيانَ ذلك الحق أو نحو ذلك؛ خوفاً من فتنة، أو وقوع مفسدة أعظم، أو تفويت مصلحة أكبر، أو ما جرى مجرى ذلك. =

. . . .

= ومما يحسن التنبيه عليه في هذا أن طمأنينة القلب، وسكونه للحق وأنسه به أمرٌ فطري؛ فللحق برهان يدل عليه، ونورٌ وبهاء ينادي إليه.

ولهذا جاء في صحيح مسلم (٢٥٥٣) عن النواس بن سمعان - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «**البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطّلع عليه الناس**».

وعن وابصة بن معبد، قال: أتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: «**جئت تسأل عن ا لبر والإثم؟**» قلت: نعم.

قال: «**استفت قلبك؛ البرُّ ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس، وتردَّد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك**»(١).

قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: «إياكم وحزَّازَ القلوب، وما حزَّ في نفسك شيء فَدَعْه».

وقال: «إياكم والحكَّاكاتِ؛ فإنهن من الإثم».

والحز والحك متقاربان في المعنى، والمراد: ما أثَّر في القلب ضيقاً، وحرجاً، ونفوراً، وكراهة(٢).

وقال أبو الدرداء - رضي الله عنه -: «الخير في طمأنينة، والشر

---

(١) رواه أحمد ٤/٢٢٨، والدارمي ٢/ ٢٤٥-٢٤٦، وحسنه النووي في الأربعين.
(٢) انظر: جامع العلوم ٢/ ٩٣.

. . . .

= في ريبة»[١].

قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ في شرح حديثي النواس، ووابصة اللذين تقدم ذكرهما: «وهذا يدل على أن الله فطر عباده على معرفة الحق، والسكون إليه، وقبوله، وركَّز في الطباع محبة ذلك، والنفور عن ضده»[٢].

وقال: «فالقلب الذي دخله نور الإيمان، وانشرح به، وانفسح يسكن للحق، ويطمئن به، ويقبله، وينفر عن الباطل، ويكرهه ولا يقبله»[٣].

وقال: «فدل حديث وابصة وما في معناه على الرجوع إلى القلوب عند الاشتباه؛ فما إليه سكن القلب، وانشرح الصدر ـ فهو البر والحلال، وما كان خلاف ذلك فهو الإثم والحرام»[٤].

وقال ـ رحمه الله ـ: «وقوله في حديث النواس: **«الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس»**: إشارة إلى أن الإثم ما أثَّر في الصدر حرجاً، وضيقاً، وقلقاً، واضطراباً؛ فلم ينشرح له الصدر. ومع هذا فهو عند الناس مستنكر؛ بحيث ينكرونه عند اطلاعهم عليه.

وهذا أعلى مراتب معرفة الإثم عند الاشتباه، وهو ما استنكره الناس على فاعله. =

(١) انظر جامع العلوم ٢/ ٩٦-٩٧.
(٢) جامع العلوم ٢/ ٩٩.
(٣) جامع العلوم ٢/ ١٠٠.
(٤) جامع العلوم ص ٢/ ١٠١.

. . . .

= ومن هذا المعنى قول ابن مسعود: ما رآه المؤمنون حسناً فهو عند الله حسنٌ، وما رآه المؤمنون قبيحاً فهو عند الله قبيح»[١].

وقال ابن رجب ـ رحمه الله ـ: «وقوله في حديث وابصة، وأبي ثعلبة: «**وإن أفتاك المفتون**»:

يعني أن ما حاك في صدر الإنسان فهو إثم، وإن أفتاه غيره بأنه ليس بإثم؛ فهذه مرتبة ثانية، وهو أن يكون الشيء مُسْتَنْكَراً عند فاعله دون غيره، وقد جعله ـ أيضاً ـ إثماً.

وهذا إنما يكون إذا كان صاحبه ممن شرح الله صدره بالإيمان، وكان المفتي يفتي له بمجرد ظنٍّ، أو ميلٍ إلى هوى من غير دليل شرعيٍّ.

فأما ما كان مع المفتي به دليل شرعي فالواجب على المستفتي الرجوع إليه، وإن لم ينشرح له صدره، وهذا كالرُّخص الشرعية، مثل الفِطْر في السفر، والمرض، وقصرِ الصلاة في السفر، ونحو ذلك مما لا تنشرح به صدور كثير من الجهال؛ فهذا لا عبرة به».

إلى أن قال: «وفي الجملة فما ورد النص به فليس للمؤمن إلا طاعة الله ورسوله»[٢].

---

(١) جامع العلوم ٢/ ١٠١.

(٢) جامع العلوم ٢/ ١٠٢.

وليجتهد أن يعتصم في كل باب من أبواب العلم بأصل مأثور عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ[١].

وإذا اشتبه عليه مما قد اختلف فيه الناس[٢] فليدْعُ بما رواه مسلم[٣] في صحيحه عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يقول إذا قام يصلي من الليل: «اللهم رب جبريل، وميكائيل، وإسرافيل[٤]، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ـ اهدني لما اختُلِفَ فيه من الحق[٥] بإذنك؛ إنك[٦] تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم[٧]».

١- قوله: «وليجتهد أن يعتصم... إلخ»: هذا الكلام معطوف على ما قبله، من قوله: «ولتكن همته...» ومعنى ذلك: ليبذل جهده بالاستمساك بالآثار والسنن في جميع أبواب العلم؛ لأن الآثار والسنن هي الأصول، وما عداها فهو متفرع عنها، خادم لها.

٢- قوله: «وإذا اشتبه عليه مما قد اختلف فيه النـاس»: أي إذا أشكل والتبس عليه أمر من الأمور، فلم يستبن له فيها وجه الصواب ـ فليدع بهذا الدعاء العظيم؛ لعل الله أن يزيل عنه حيرته، واضطرابه، وتردده، ويريه الحق حقاً ويرزقه اتباعه، والباطل باطلاً ويرزقه اجتنابه.

٣- برقم (٧٧٠) في صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل.

٤- قوله: «جبريل، وميكائيل، وإسرافيل»: هذه أسماء الملائكة=

. . . .

= العظام، وخص هؤلاء لأن «جبريل» ملك الوحي؛ ففيه حياة القلوب، وحياة القلوب أهم من كل شيء؛ ولهذا بدئ به، وثُنِّي بـ «ميكائيل» لأنه الملك الموكل بالقَطْر، الذي هو سبب حياة الأبدان وسائر الحيوان،

وثلث بـ: «إسرافيل» الموكل بالنفخ في الصور، الذي هو سبب حياة العالم، وعود الأرواح إلى أجسادها؛ فالتوسل إلى الله بربوبيته هذه الأرواحَ العظيمةَ الموكلةَ بالحياة له تأثير عظيم في حصول المطلوب، والله المستعان(١).

قال النووي ـ رحمه الله ـ في شرح الحديث: «قال العلماء: خصهم بالذكر، وإن كان الله ـ تعالى ـ رب كل المخلوقات كما تقرر في القرآن والسنة من نظائره من الإضافة إلى كل عظيم المرتبة، وكبير الشأن دون ما يستحقر ويستصغر؛ فيقال له ـ سبحانه ـ: رب السموات والأرض، رب العرش الكريم، ورب الملائكة والروح، رب المشرقين، ورب المغربين، رب الناس مالك الناس، إله الناس، رب العالمين، رب كل شيء، رب النبيين، خالق السموات والأرض، فاطر السموات والأرض، جاعل الملائكة رسلاً.

فكل ذلك وشبهه وصف له ـ سبحانه ـ بدلائل العظمة، وعظيم القدرة والملك. =

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص٢١٠.

. . . .

= ولم يستعمل ذلك فيما يحتقر ويستصغر، فلا يقال: رب الحشرات، وخالق القردة والخنازير وشبه ذلك على الإفراد.

وإنما يقال: خالق المخلوقات، وخالق كل شيء.

وحينئذٍ تدخل هذه في العموم، والله أعلم»[١].

٥- قوله: «**اهدني لما اختلف فيه من الحق**» قال النووي ـ رحمه الله ـ: «معناه: ثبتني عليه كقوله ـ تعالى ـ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾»[٢].

٦- في مجموعة الرسائل (أنت).

٧- قوله: «**إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**»: أي تهدي هداية توفيق وإلهام إلى صراطك المستقيم الموصل إلى رضوانك وجنتك.

وقوله: «**من تشاء**»: أي من تريد هدايتَه.

ومشيئةُ الله ـ عز وجل ـ مقرونة بحكمته؛ فهو أعلم حيث يجعل هدايته كما أنه أعلم حيث يجعل رسالته.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٦/٥٦-٥٧.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ٦/٥٧.

فإن الله[١] ـ تعالى ـ قد قال فيما رواه عنه رسوله[٢]: «يا عبادي كلكم ضال[٣] إلا من هديته[٤] فاستهدوني[٥] أهدكم[٦]».

١- قوله: «**فإن الله**»: هذا تعليل لما مضى، أي أنه ـ عز وجل ـ يجيب من دعاه، ويهدي من استهداه كما سيأتي بيان ذلك.

٢- قوله: «**فيما رواه عنه رسوله**»: أي في الحديث القدسي، وهو حديث أبي ذر الذي مر الكلام عليه قبل ذلك.

٣- قوله: «**كلكم ضال**»: من الضلالة، وهي العدول عن الطريق المستقيم، وضد الضلالة: الهداية، وضد الضال المهتدي[١].

وقوله: «**كلكم ضال**»: لا يعارض ما جاء في حديث عياض بن حمار ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**يقول الله ـ عز وجل ـ: وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم**»[٢].

ولا يعارض قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه**»[٣].

فالعباد كلهم مفطورون على محبة فاطرهم، وإقرارهم بالربوبية، والألوهية؛ فلو خلوا وعدمَ المعارض لم يعدلوا عن ذلك إلى غيره؛ كما أن الإنسان يولد مفطوراً على ما يلائم بدنه من الأغذية، والأشربة، وما=

---

(١) انظر معجم مفردات ص٣٠٦.

(٢) رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٣) رواه البخاري ٢/ ٩٧ ومسلم (٢٦٥٨).

. . . .

= إلى ذلك كما قال ـ تعالى ـ: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

وإنما المراد من قوله: «**كلكم ضال**»: «أنهم لو تركوا وما في طباعهم من إيثار الشهوات، والراحة، وإهمال النظر لضلوا»(١).

وقال ابن رجب ـ رحمه الله ـ: «فإن الله خلق بني آدم، وفطرهم على قبول الإسلام، والميل إليه من دون غيره، والتهيؤ لذلك والاستعداد له بالقوة.

لكن لابد للعبد من تعليم الإسلام بالفعل؛ فإنه قَبْلَ التعليم جاهل، لا يعلم شيئاً كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨].

وقال لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾.

والمراد وجدك غير عالم بما علَّمك من الكتاب، والحكمة كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢].

فالإنسان يولد مفطوراً على قبول الحق، فإن هداه الله سبَّب له مَنْ يعلِّمه الهدى، فصار مهتدياً بالفعل بعد أن كان مهتدياً بالقوة.

وإن خذله قُيِّض له من يعلمه ما يغير فطرته»(٢).

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ١٦/ ١٣٤.

(٢) جامع العلوم ٢/ ٣٩.

. . . .

= ٤- قوله: «إلا من هديته»: أي من وفقته، وألهمته رشده.

٥- قوله: «فاستهدوني»: أي اسألوني الهداية، واطلبوها مني وحدي دون من سواه.

قال ـ تعالى ـ لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

ولهذا أمرنا أن نقول في كل ركعة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ لشدة حاجتنا إلى ذلك.

٦- قوله: «أهدكم»: هذا جواب الطلب مجزوم، وعلامة جزمه حذف حرف العلة.

ومعنى ذلك أنكم إذا سألتموني الهداية هديتكم.

والهداية التي يسألها العبد ربه هدايتان: هداية مجملة، وهداية مفصلة.

قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ: «وأما سؤال المؤمن من الله الهداية ـ فإن الهداية نوعان: هداية مجملة وهي الهداية للإسلام، والإيمان وهي حاصلة للمؤمن.

وهداية مفصلة: وهي هدايته إلى معرفة تفاصيل أجزاء الإيمان والإسلام، وإعانته على فعل ذلك.

وهذا ما يحتاج إليه كل مؤمن ليلاً ونهاراً؛ ولهذا أمر الله عباده أن يقرؤوا في كل ركعة من صلاتهم قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[1].

(١) جامع العلوم ١/ ٤٠.

وأما وصف الكتب والمصنفين فقد سمع منا في أثناء المذاكرة ما يسَّره الله ـ سبحانه ـ[١].

١- قوله: **«وأما وصف الكتب والمصنفين»** إلى قوله: **«ما يسره الله...»** يعني أن ما تريده أيها السائل من ذكر الكتب التي تعتمدها، وأسماء المصنفين الذين كتبوا في أبواب العلم ـ **فقد سمع منا أثناء المذاكرة**: أي أثناء الحديث ما يسر الله ذكره من ذلك القبيل.

ولعل هناك مذاكرةً، ومجلسَ علمٍ حصل قبل تحرير هذه الوصية المباركة.

وقوله: **«المصنفين»**: مأخوذ من مادة صنف، والصِّنف: النوع، والضرب من الشيء.

والتصنيف هو تمييز الأشياء بعضها عن بعض.

هذا أصل المادة في اللغة ومعناها[١].

والمقصود بالمصنفين هنا: هم الذين كتبوا في أبواب العلم.

وقد يراد بالمصنف المؤلف، وقد يكون أحدهما متميزاً عن الآخر بفرق دقيق.

قال أبو هلال العسكري ـ رحمه الله ـ: «الفرق بين التأليف والتصنيف أن التأليف أعم من التصنيف، وذلك أن التصنيف تأليف صنف من العلم، ولا يقال للكتاب إذا تضمن نقص شيء من الكلام مصنَّف؛=

---

(١) انظر لسان ٩/١٩٨.

. . . .

= لأنه جمع الشيءَ وضدَّه، والتأليفُ يجمع ذلك كله، وذلك أن تأليف الكتاب هو جمع لفظ ومعنى إلى معنى حتى يكون كالجملة الكافية فيما يحتاج إليه سواء كان متفقاً أو مختلفاً، والتصنيف مأخوذ من الصنف، ولا يدخل في الصنف غيره»[1].

(١) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ص١٢٩.

وما في الكتب المصنفة المبوبة كتاب أنفع[١] من صحيح محمد ابن إسماعيل البخاري[٢].

١- قوله: «**وما في الكتب المصنفة المبوبة كتاب أنفع..**»

أي أنه لا يوجد في الكتب المصنفة على طريقة أهل العلم المبوبة، أي التي ألفت على هيئة أبواب كل باب يتلوه باب ـ كتاب أعظم نفعاً، وأغزر فائدة، وأشد صحة من صحيح البخاري.

٢- قوله: «**من صحيح محمد بن إسماعيل البخاري**»: أي الكتاب المشهور بـ: «**صحيح البخاري**».

وأما اسمه الذي سماه به مؤلفه فهو «**الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسننه وأيامه**».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في مجموع الفتاوى ١٨/ ٧٤: «أما كتب الحديث المعروفة مثل البخاري ومسلم ـ فليس تحت أديم السماء كتاب أصح من البخاري ومسلم بعد القرآن» ا.هـ

وهذا الكتاب العظيم تَلَقَّتْه الأمة بالقبول، وتعاقب العلماء على شرحه، ودراسته، والكلام على مؤلفه، ومنهجه في تأليف هذا الكتاب.

ولعل أعظم تلك الشروح، والدراسات كتاب «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» للإمام العلامة الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ.

ولقد جاءت مقدمة كتاب «فتح الباري» في مجلد ضخم تحت مسمى «هَدْيُ الساري مقدمة فتح الباري».

. . . .

= ولقد أفردها في بيان منهج الإمام البخاري في كتابه الصحيح، وحصر هذه المقدمة في عشرة فصول ثم ختم تلك المقدمة بترجمة كاشفة عن خصائص الإمام البخاري، ومناقبه، جامعة لمآثره ـ رحمه الله ـ.

وإليك طرفاً يسيراً مما جاء في تلك المقدمة، نستبين من خلالها عظم هذا الكتاب، وشيئاً من ترجمة صاحبه.

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ في مقدمة هذه المقدمة ص٥: «أما بعد فإن أولى ما صُرفت فيه نفائس الأيام، وأعلى ما خص بمزيد الاهتمام الاشتغال بالعلوم الشرعية المتلقاة عن خير البرية.

ولا يرتاب عاقل في أن مدارها على كتاب الله المُقْتفى، وسنة نبيه المصطفى، وأن باقي العلوم إما آلات لفهمها ـ وهي الضالة المطلوبة، أو أجنبية عنها وهي الضارة المغلوبة.

وقد رأيت الإمام أبا عبدالله البخاري في جامعه الصحيح قد تصدى للاقتباس من أنوارها البهية تقريراً واستنباطاً، وكرع من مناهلهما الرويَّة انتزاعاً وانتشاطاً، ورُزِق بحسن نيَّتِه السعادة فيما جمع حتى أذعن له المخالف والموافق، وتلقى كلامه في التصحيح بالتسليم المطاوعُ والمفارق» ا ـ هـ.

. . . .

= «وقفات حول سيرة الإمام البخاري وكتابه الصحيح»

أولاً: سبب تصنيف البخاري لكتابه الجامع الصحيح: لعل الباعث الأول لذلك هو ما سمعه البخاري من شيخه إسحاق بن راهويه ـ رحمه الله ـ حيث أشار على البخاري بذلك.

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ ص٨: «فحرك همته لجمع الحديث الصحيح الذي لا يرتاب فيه أمين، وقوى عزمه على ذلك ما سمعه من أستاذه أمير المؤمنين في الحديث، والفقه إسحاق بن إبراهيم الحنظلي المعروف بابن راهويه».

ثم ساق ابن حجر ص٩ بسنده إلى إبراهيم بن معقل النسفي قوله: «قال أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري: كنا عند إسحاق بن راهويه فقال: لو جمعتم كتاباً مختصراً لصحيح سنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

قال: فوقع ذلك في قلبي، فأخذت في جمع الجامع الصحيح».

وقال ابن حجر ـ رحمه الله ـ ص٩: «وروينا بالإسناد الثابت عن محمد بن سليمان بن فارس قال: «سمعت البخاري يقول: رأيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكأنني واقف بين يديه، وبيدي مروحة أذب بها عنه؛ فسألت بعض المعبرين، فقال لي: أنت تذب عنه الكذب؛ فهو الذي حملني على إخراج الجامع الصحيح». =

. . . .

= **ثانياً: حرصه على تحري الدقة:** قال البخاري ـ رحمه الله ـ: «ما كتبت في كتاب الصحيح حديثاً إلا اغتسلت قبل ذلك، وصليت ركعتين.

وقال: لم أخرج في هذا الكتاب إلا صحيحاً، وما تركت من الصحيح أكثر»[1].

ثالثاً: نسب الإمام البخاري ومولده: هو أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبَه الجعفي.

ولد يوم الجمعة بعد الصلاة لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال سنة أربع وتسعين ومائة ببخارى[2].

رابعاً: سيرته وبعض شمائله: قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «قال ورّاقه: سمعت محمد بن خراش يقول: سمعت أحيد بن حفص يقول: دخلت على إسماعيل والد أبي عبدالله عند موته فقال: لا أعلم من مالي درهماً من حرام، ولا درهماً من شبهة»[3].

وقال ابن حجر: «روى غنجار في تاريخ بخارى، واللالكائي في شرح السنة في باب كرامات الأولياء منه أن محمد بن إسماعيل ذهبت عيناه في صغره، فرأت والدتُه الخليل إبراهيم في المنام، فقال لها: يا هذه! قد رد الله على ابنك بصره؛ بكثرة دعائك»[4]. =

(١) (٢) انظر المقدمة ص٩.

(٣) المقدمة ص٥٠٣.

(٤) المقدمة ص٥٠٢.

. . . .

= وقال ابن حجر: «وقال وراق البخاري: رأيته ـ أي رأى الإمام البخاري ـ استلقى ونحن بِفِرَبْر في تصنيف كتاب التفسير، وكان أتعب نفسه في ذلك اليوم في التخريج.

فقلت له: إني سمعتك تقول: ما أتيت شيئاً بغير علم؛ فما الفائدة في الاستلقاء؟.

قال: أتعبت نفسي اليوم، وهذا ثغر خشيت أن يحدث حدث من أمر العدو؛ فأحببت أن أستريح، وآخذ أهبةً؛ فإن غافصنا العدو كان بنا حراك.

قال: وكان ـ أي الإمام البخاري ـ يركب إلى الرمي كثيراً، فما أعلم أني رأيته في طول ما صحبته أخطأ سهمه الهدف إلا مرتين، بل كان يصيب في كل ذلك، ولا يسبق.

قال: وركبنا يوماً إلى الرمي، ونحن بفربر، فخرجنا إلى الدرب الذي يؤدي إلى الفرضة، فجعلنا نرمي فأصاب سهم أبي عبدالله وتد القنطرة التي على النهر فانشق الوتد؛ فلما رأى ذلك نزل عن دابته، فأخرج السهم من الوتد، وترك الرمي، وقال لنا: ارجعوا؛ فرجعنا، فقال لي: يا أبا جعفر لي إليك حاجة ـ وهو يتنفس الصعداء ـ فقلت: نعم، قال: تذهب إلى صاحب القنطرة، فتقول: إنا أخللنا بالوتد، فنحب أن تأذن لنا في إقامة بدله، أو تأخذ ثمنه، وتجعلنا في حلٍّ مما كان منا.

وكان صاحب القنطرة حميد بن الأخضر، فقال: أبلغ أبا عبدالله السلام، وقل له: أنت في حِلٍّ مما كان منك؛ فإن جميع ملكي لك الفداء.=

. . . .

= فأبلغته الرسالة؛ فتهلل وجهه، وأظهر سروراً كثيراً، وقرأ ذلك اليوم للغرباء خمسمائة حديث، وتصدق بثلثمائة درهم»[١].

قال البخاري ـ رحمه الله ـ: «ما اغتبت أحداً قط منذ أن علمت أن الغيبة حرام»[٢].

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ معلقاً على ذلك: «قلت: وللبخاري في كلامه على الرجال تَوَقٍّ زائدٌ، وتحرٍّ بليغ يظهر لمن تأمل كلامه في الجرح والتعديل؛ فإن أكثر ما يقول: سكتوا عنه، فيه نظر، تركوه، ونحو هذا.

وقلَّ أن يقول: كذاب، أو وضاع، وإنما يقول: كذَّبه فلان، رماه فلان، يعني بالكذب»[٣].

خامساً: حرصه على العلم: ومما يدل على حرصه على العلم، وتدوين الفوائد ما قاله محمد ابن أبي حاتم الوراق، قال: «كان أبو عبدالله إذا كنت معه في سفر يجمعنا في بيت واحد إلا في القيظ، فكنت أراه يقوم في الليلة الواحدة خمس عشرة مرة في كل ذلك يأخذ القداحة، فيوري ناراً بيده، ويسرج، ويخرج أحاديث، فيعلم عليها، ثم يضع رأسه.

فقلت له: إنك تحمل على نفسك كل هذا ولا توقظني؟

قال: أنت شاب؛ فلا أحب أن أفسد عليك نومتك»[٤]. =

(١ ، ٢ ، ٣) المقدمة ص٥٠٤.

(٤) المقدمة ص٥٠٥.

. . . .

= سادساً: شِعــــره: أخرج الحاكم في تاريخه من شعر الإمام البخاري قوله:

اغتنم في الفراغ فـضـلَ ركـوعٍ   فعسى أن يكون موتك بـغـتـةْ
كم صحيح رأيت من غير سقمٍ   ذهبت نفـسُهُ الصحيـحـةُ فلتـةْ

ولما نعي إليه عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي الحافظ أنشد:

إن عشت تفجع بالأحبـة كلِّهم   وفناء نفسك لا أبالك أفجـع[1]

سابعاً: ثناء الناس عليه:

١- قال قتيبة بن سعيد ـ رحمه الله ـ: «جالست الفقهاء، والزهاد، والعباد فما رأيت منذ عقلت مثل محمد بن إسماعيل، وهو في زمانه كعمر في الصحابة»[2].

٢- وقال الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ: «ما أخرجت خراسان مثل محمد بن إسماعيل»[3].

٣- وقال رجاء بن رجاء الحافظ ـ رحمه الله ـ: «فضل محمد بن إسماعيل على العلماء كفضل الرجال على النساء»[4]. =

(١) المقدمة ص٥٠٥-٥٠٦.
(٢) المقدمة ص ٥٠٦.
(٣) المقدمة ص ٥٠٧.
(٤) المقدمة ص ٥٠٨.

. . . .

= ٤- وقال ـ أيضاً ـ «هو آية من آيات الله، تمشي على الأرض»[١].

٥- وقال الحسين بن حريث ـ رحمه الله ـ: «لا أعلم أني رأيت مثل محمد بن إسماعيل، كأنه لم يخلق إلا للحديث»[٢].

٦- وجاء الإمام مسلم ـ رحمه الله ـ للبخاري: فقبَّل بين عينيه، وقال: «دعني حتى أقبل رجليك يا أستاذ الأستاذين، وسيد المحدثين، وطبيب الحديث في علله»[٣].

٧- وقال ابن حجر ـ رحمه الله ـ بعد أن ساق جملة من ثناء الناس عليه من مشايخه، وأقرانه: «ولو فتحت باب ثناء الأئمة عليه ممن تأخر عن عصره لفني القرطاس، ونفدت الأنفاس؛ فذاك بحر لا ساحل له»[٤].

ثامناً: طائفة من الرؤى التي رُئيت فيه:

١- قال الفربري ص٥١٤: «سمعت محمد بن حاتم وراق البخاري يقول: «رأيت البخاري في المنام خلف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يمشي، فكلما رفع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قدمه وضع أبو عبدالله قدمه في ذلك الموضع».

٢- وقال الفربري ص٥١٤: «رأيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ=

(١) (٢) المقدمة ص٥٠٨.
(٣) المقدمة ص ٥١٣.
(٤) المقدمة ص ٥١٠.

. . . .

= في النوم، فقال لي: أين تريد؟ فقلت: أريد محمد بن إسماعيل، فقال: أقرئه مني السلام».

٣- وقال أبو زيد المروزي ص٥١٤: «كنت نائماً بين الركن المقام، فرأيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في المنام، فقال لي: يا أبا زيد؛ إلى متى تدرس كتاب الشافعي، ولا تدرس كتابي؟ فقلت: يا رسول الله! وما كتابك؟ قال: جامع محمد بن إسماعيل».

٤- قال عبدالواحد بن آدم الطواويسي ص٥١٨: «رأيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في النوم، ومعه جماعة من أصحابه، وهو واقف في موضع، فسلمت عليه، فرد علي السلام، فقلت: ما وقوفك هنا يا رسول الله؟ قال: انتظر محمد بن إسماعيل. قال: فلما كان بعد أيام بلغني موته، فنظرت فإذا هو قد مات في الساعة التي رأيت فيها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ».

تاسعاً: وفاة الإمام البخاري: قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ ص٥١٨: «قال ابن عدي: سمعت عبدالقدوس بن عبدالجبار يقول: خرج البخاري إلى خَرْتَنْك ـ قرية من قرى سمرقند ـ وكان له بها أقرباء، فنزل عندهم، قال: فسمعته ليلة من الليالي، وقد فرغ من صلاة الليل يقول في دعائه: اللهم قد ضاقت عليَّ الأرض بما رحبت؛ فاقبضني إليك.

قال: فما تم الشهر حتى قبضه الله». =

. . . .

= وكانت وفاته ليلة السبت، ليلة عيد الفطر سنة ست وخمسين ومائتين، وكانت مدة عمره اثنتين وستين سنة إلا ثلاثة عشر يوماً[1].

---

(١) المقدمة ص٥١٨.

لكنْ هو وحده[١] لا يقوم بأصول العلـم[٢]، ولا يقوم بتمام المقصود للمتبحِّر في أبواب العلم[٣]؛ إذ لابد من معرفة أحاديث أخر[٤]، وكلام أهل الفقه[٥]، وأهل العلـم في الأمور التي يختص بعلمها بعـض العلماء[٦].

١- قوله: «لكنْ هو وحده»: يعني صحيح الإمام البخاري.

٢- قوله: «لا يقوم بأصول العلم»: أي لا يكفي، ولا يغني عن غيره؛ لأن العلوم متشعبة، متعددة كما سيأتي.

٣- قوله: «ولا يقوم بتمام المقصود للمتبحر في أبواب العلم»: أي أنه لا يفي وحده بحاجة المتوسع في العلم.

٤- قوله: «إذ لابد من معرفة أحاديث أخر»: أي أن صحيح البخاري لم يستوعب كل ما صح عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلابد من الاطلاع على كتب الحديث الأخرى.

٥- قوله: «وكلام أهل الفقه»: حتى يُجمع بين الفقه والحديث، والدراية، والرواية؛ فهذا هو المنهج الراشد؛ إذ الفقه والحديث رضيعا لبان، يجتمعان ولا يتنافيان، وقد يفتح على بعض الناس في الحديث ما لا يفتح عليه في الفقه، والعكس، وقد يفتح عليه في أحدهما أكثر مما يفتح عليه في الآخر، وقد يفتح على بعض الناس في الفقه والحديث معاً، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

٦- قوله: «وأهل العلم في الأمور التي يختص بعلمها بعض العلماء»: =

. . . .

= أي لابد للمتبحر في العلم من معرفة كل فن من فنونه على طريقة أهل ذلك الفن الذي قد يختص به بعض أهل العلم دون بعض، كعلوم الحديث، وعلوم القرآن، وعلوم العربية ونحو ذلك.

وقد أوعبت[١] الأمة[٢] في كل فنٍّ[٣] من فنون العلم إيعاباً.

= ١- قوله: «**وقد أوعبت**»: الإيعاب، والاستيعاب: الاستقصاء في كل شيء، ووعب الشيء، وعباً، وأوعبه، واستوعبه: أي أخذه أجمع، وأتى عليه كلِّه، ولم يدع منه شيئاً[١].

٢- قوله: «**الأمة**»: أي أمة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

٣- قوله: «**في كل فنٍّ**»: الفن: واحد الفنون، وهي الأنواع.

والفنّ: الضرب من الشيء، والجمع فنون، وأفنان.

وفنون العلم: أنواعه، وأضربه المختلفة.

ومعنى الكلام السابق: أن أمة الإسلام قد ضربت في كل فن من فنون العلم بالسهم الأغر؛ فلم تدع فناً من فنون العلم إلا وأتت عليه، وأشبعته درساً، وبحثاً، واستقصاءًا.

وتلك الفنون التي أوعبت فيه الأمة ـ كثيرة جداً، بل إن الفن الواحد يدخل تحت علوم عديدة قد يصعب حصرها، واستقصاؤها.

فهناك ـ على سبيل المثال ـ علوم القرآن، وعلوم التفسير، وعلوم العقائد، وعلوم الحديث، وعلم الفقه، وعلم الأصول، وعلوم العربية نحواً، وصرفاً، وبلاغة، وعروضاً، وإملاءً، وخطاً، وأدباً، وفقهَ لغةٍ، ونحو ذلك.

وعلم النجوم، وعلم الأنساب، وعلم الطب، وعلم التواريخ، وعلم الهيئة ـ الجغرافيا ـ، وغيرها من فنون العلم. =

---

(١) انظر لسان العرب ١/ ٧٩٩.

. . . .

= وكل فن من هذه الفنون يدخل تحته من العلوم ما قد يتعذر حصره كما تقدم.

فعلم الحديث ـ على سبيل المثال ـ يدخل تحته علوم كثيرة جداً، كعلم الرواية، وعلم الدراية، وعلم الرجال والجرح والتعديل، والتدليس، والعلل، والغريب، وما جرى مجرى ذلك.

فهذه الأمة تفننت في تلك العلوم، وأتت بالعجب العجاب، ونالت ما لم تنلْه أمة أخرى قبلها؛ كيف لا؟ وهي خير أمة أخرجت للناس؟ كيف لا؟ وهي الأمة التي أرسل إليها أفضل رسول، وأنزل عليها خير كتاب؟ فهي ـ إذاً ـ أمة مباركة، أمة هي أعلم الأمم، وأتقى الأمم، وأكرمها على الله ـ عز وجل ـ.

ومع أنها آخر الأمم، وأنها أقصر الأمم أعماراً إلا أنها نالت ما نالت من المحبة، والسناء، والعلم، والعمل ما لم تنله أمة أخرى، كل ذلك بفضل الله، ثم ببركة هذا النبي الأمي الخاتم ـ عليه أفضل الصلاة وأتم السلام ـ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في نقض المنطق ص٨: «فكل من استقرأ أحوال العالم وجد المسلمين أحدَّ وأسدَّ عقلاً؛ وأنهم ينالون في المدة اليسيرة من حقائق العلوم والأعمال أضعاف ما يناله غيرهم في قرون وأجيال.

وكذلك أهل السنة والحديث تجدهم كذلك ممتعين، وذلك لأن=

. . . .

= اعتقاد الحق الثابت يقوي الإدراك ويصححه» ا. هـ

وقال ـ رحمه الله ـ في اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٦٤: «فهدى الله الناس ببركة نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبما جاء به من البينات والهدى هداية جلت عن وصف الواصفين، وفاقت معرفة العارفين، حتى حصل لأمته المؤمنين عموماً، ولأهل العلم منهم خصوصاً ـ من العلم النافع، والعمل الصالح، والأخلاق العظيمة، والسنن المستقيمة ـ ما لو جمعت حكمة سائر الأمم علماً، وعملاً، الخالصة من كل شوب إلى الحكمة التي بُعِثَ بها لتفاوتا تفاوتاً يمنع معرفة قدر النسبة بينهما؛ فلله الحمد كما يحب ربنا ويرضى.

ودلائل هذا، وشواهده ليس هذا موضعَها» ا ـ هـ

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه: «هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى»: «فلو قيس ما عند جميع الأمم من معرفة، وعلم، وهدى، وبصيرة إلى ما عندهم لم يظهر له نسبة إليه بوجه ما، وإن كان غيرهم من الأمم أعلم بالحساب والهندسة، والكمٍّ المتصل، والكمٍّ المنفصل، والنبض، والقارورة، والبول، والقسطة، ووزن الأنهار، ونقوش الحيطان، ووضع الآلات العجيبة، وصناعة الكيمياء، وعلم الفلاحة، وعلم الهيئة، وتسيير الكواكب، وعلم الموسيقى والألحان، وغير ذلك من العلوم التي هي بين علم لا ينفع، وبين ظنون كاذبة، =

. . . .

= وبين علم نفعه في العاجلة وليس من زاد المعاد»[1] ا ـ هـ.

بل إن المسلمين قد تقدموا حتى في العلوم الدنيوية كالطب والهندسة، ونحوها لما كان الدين قوياً في النفوس.

والآثار التاريخية في المراكز الإسلامية مثل بغداد، والمدن الأندلسية تشهد بما كان للأمة الإسلامية من التقدم في العلوم الدنيوية.

بل إن الأوربيين نسجوا أمور دنياهم على منوال المسلمين، فتقدموا فيها التقدم المشاهد.

ويكفي شاهداً على ذلك ما كان من شأن مدينة قرطبة ـ منبع العلوم الدينية والدنيوية ـ فلقد كانت مركزاً للطب، بل لقد قال بعض العلماء: إن الطب لم يعرف إلا بها؛ حتى إن ملك ليون الملقب بالسمين اضطر أن يسافر إليها؛ ليأخذ الطبَّ عن رجل كان مشهوراً في ذلك العصر، وكان استقدمه، فأجاب الرسول بقوله: إن كان للملك حاجة إليَّ فليقدُم.

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً، وذلك في شتى فنون العلم.

ومع تقدمهم في العلوم الدنيوية لم يكونوا معرضين عن العلوم الأخروية.

بل إن العلوم الدنيوية داخلة في العلوم الدينية إذا كانت مما يتوصل به إلى حفظ الدين، وتهيئة أسباب استقامته. =

---

(١) هداية الحيارى ص٢٣٤-٢٣٥، وانظر ما بعد هذه الصفحات من هداية الحيارى إلى ص٣٤٩؛ ففيه كلام عظيم حول هذا المعنى.

. . . .

= والمقصود أن دين الإسلام متين العرى، شامخ الذرى لا يزيده استكشاف الحقائق إلا رسوخاً، وأن أمة الإسلام أعلم الأمم، وأولاها بكل حق، وبكل حكمة، وبكل علم نافع في الدين والدنيا[١].

---

(١) انظر: كتاب: أليس الصبح بقريب، للعلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ص١٠٣-١١٣.

فمن نوَّر الله قلبه(١) هداه بما يبلغه من ذلـك(٢)، ومن أعماه(٣) لم تزده كثرة الكتب إلا حيرة(٤) وضلالاً(٥).

١- قوله: «**فمن نور الله قلبه**»: يعني أن من شرح الله صدره، ونور بصيرته وفَّقه إلى ما تيسر له من العلم النافع، والعمل الصالح.

٢- قوله: «**هداه بما يبلغه من ذلك**»: أي وفقه، ونفعه بما يصل إليه من العلم ولو كان ذلك العلم قليلاً، ولو كان العبد ليس ذا فهم، أو سعة علم، بل لو كان عامياً.

٣- قوله: «**ومن أعماه..**» أي: من أعمى قلبه، وأضله عن الهدى؛ فالعمى يطلق على عمى البصر وعلى عمى البصيرة، قال ـ تعالى ـ: ﴿**فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ [الحج: ٤٦].

٤- قوله: «**حيرة**»: الحيرة هي التردد، وعدم الهداية للسبيل، والحائر هو الذي لا يدري كيف يهتدي(١).

٥- قوله: «**وضلالاً**»: أي عدولاً عن الصراط المستقيم.

ومعنى كلام شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: أن المهتدي هو من هداه الله، ونوَّر بصيرته، وأراه الحق حقاً، ورزقه اتِّباعه.

وأن الضال هو من خذل، وأضله الله، وأعمى بصيرته، وصرفه عن الحق.

فالمسألة مسألة هداية وتوفيق، وهي بيد الله ـ عز وجل ـ وحده=

(١) انظر اللسان ٤/ ٢٢٢-٢٢٣.

. . . .

= فليست الكتب، ولا كثرتها هي الهادية، بل الهادي هو الله وحده.

نعم الكتب، والرسل، والدعاة إلى سبيل الله يهدون هداية دلالة وإرشاد.

كما قال ـ تعالى ـ عن نبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢].

أما هداية التوفيق، والإلهام، وقبول الحق، والعمل به فليست لأحد سوى الله ـ عز وجل ـ.

قال ـ تعالى ـ نافياً تلك الهداية عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وغيره من باب أولى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [القصص: ٥٦].

ولا ريب أن الهداية لها أسباب، ومن أسبابها سؤال الله الهداية ـ كما مر ـ فالكتب ـ وإن كثرت، وكانت كتب علم وهدى ـ لا تكفي وحدها في الهداية للإنسان، ما لم يؤيد بتوفيق من الله ـ عز وجل ـ وما لم يعصم من الهوى، والزيغ.

قال ـ تعالى ـ عن بلعام بن باعوراء: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦].

=

كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأبي لبيد الأنصاري[١]: «أوليست التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى[٢]؟ فماذا تغني عنهم»[٣].

١- هكذا في الأصل: لأبي لبيد، والصواب: زياد بن لبيد الأنصاري. والحديث أخرجه الترمذي (٢٦٥٣)، والدارمي (٢٤٦)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».

٢- قوله: **«أوليست التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى»**: التوراة عند اليهود، والإنجيل عند النصارى.

والتوراة: هي الكتاب الذي أنزل على موسى ـ عليه السلام ـ وهو كتاب عظيم اشتمل على النور، والهداية كما قال ـ تعالى ـ: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ**﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال ـ عز وجل ـ: ﴿**ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ**﴾ [الأنعام: ١٥٤].

وكثيراً ما يقرن الله ـ عز وجل ـ في القرآن بين التوراة والقرآن؛ وذلك لأنهما أعظم كتابين أنزلهما الله ـ عز وجل ـ والقرآن أعظمهما وأفضلهما.

هذه هي التوراة التي أنزلت على موسى ـ عليه السلام ـ

أما التوراة الموجودة اليوم فقد دخلها التحريف، والتبديل، والمجال ليس مجال بسط ذلك[١].

---

(١) انظر رسائل في العقيدة للكاتب ص١٩٤-١٩٥.

. . . .

= **أما الإنجيل:** فهو الكتاب العظيم الذي أنزله الله على عيسى ـ عليه السلام ـ متمماً للتوراة، ومؤيداً لها، وموافقاً لها في أكثر الأمور الشرعية، وهو كتاب يهدي إلى الصراط المستقيم، وإلى عبادة الله وحده دون من سواه.

هذا هو الإنجيل الذي أنزل على عيسى ـ عليه السلام ـ.

وبعد موت عيسى ـ عليه السلام ـ دخل التحريف الإنجيلَ، فغيِّر وبدِّل، وزيد فيه، ونقص.

وبيان بطلان الإنجيل اليوم ظاهر، والمجال لا يتسع لذكر ذلك[1].

٣- قوله: «**فماذا تغني عنهم**»: أي لما زاغوا، واستكبروا، ولم يرد الله أن يهديهم بسبب ذلك ـ لم تغنِ عنهم هذه الكتب السماوية العظيمة التي أنزلت على رسولين من أولي العزم من الرسل؟

بل إن القرآن العظيم، وهو أعظم الكتب وخيرها، وأشملها، وأعمها وأهداها سبيلاً ـ قد يكون حجة للإنسان، وقد يكون حجة عليه.

كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الحديث الذي رواه مسلم (٢٢٣): «**القرآن حجة لك أو حجة عليك**» الحديث.

قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]. =

(١) انظر رسائل في العقيدة للكاتب ص١٩٦-١٩٧.

. . . .

= وقال ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

قال بعض السلف: «ما جالس أحد القرآن فقام عنه سالماً، بل إما أن يربح وإما أن يخسر ثم تلا قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ﴾»(١).

وخلاصة القول أن الكتب النافعة تهدي إلى الحق، وتدل عليه، ولكن لابد مع ذلك من هداية الله، وتوفيقه، وذلك يحصل بالتقرب إليه، والتذلل بين يديه، وسؤاله التوفيق والهدى.

(١) جامع العلوم ٢/٢٦.

فنسأل الله العظيم أن يرزقنا الهدى، والسداد، ويلهمنا رشدنا، ويقينا شر أنفسنا، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ويهب لنا من لدنه رحمة؛ إنه هو الوهاب، والحمد لله رب العالمين، وصلواته على أشرف المرسلين[1].

١- وبهذه الأدعية العظيمة الجوامع المنتزعة من الكتاب والسنة ختم شيخ الإسلام هذه الوصية العظيمة؛ فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وجمعنا وإياه وإخواننا المسلمين في دار كرامته؛ إنه سميع قريب.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

المحتويات

- المقدمة ٣
- المبحث الأول: نبذة مختصرة في سيرة شيخ الإسلام ابن تيمية ... ٧
أولاً: علمه ٧
ثانياً: تعبُّده ١٠
ثالثاً: سمته وهديه وخلقه ١١
رابعاً: شجاعته ١٤
- المبحث الثاني: دراسة مجملة للوصية ١٧
أولاً: أهمية هذه الوصية ١٧
ثانياً: اسم الوصية، والسائل ١٨
ثالثاً: النسخ المعتمدة في شرح هذه الوصية ١٩
رابعاً: تاريخ إنشاء هذه الوصية ٢٠
خامساً: مجمل ما اشتملت عليه الوصية الصغرى ٢١
سادساً: طريقة الشرح ٢٣
«شرح الوصية الصغرى»
- معنى الوصية ٢٧
- نص سؤال أبي القاسم المغربي ٢٧
- جواب شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٧
معنى الحمد، ومعنى الرب ٣٠
أنواع ربوبية الله على خلقه ٣٢
الوصية بالتقوى: ٣٣

أولاً: مفهوم التقوى ٣٥
١- تعريف التقوى في اللغة ٣٥
٢- إطلاقات التقوى في القرآن الكريم ٣٦
٣- تعريف التقوى في الشرع ٣٦
٤- مسألتان في التقوى ٣٨
ثانياً: ثمرات التقوى ٣٩
ثالثاً: وصايا السلف الصالح بالتقوى ٤٢
- وصية النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمعاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ ٤٥
- منزلة معاذ ـ رضي الله عنه ـ ٤٧
- كيف كانت تلك الوصية جامعة؟ ٤٩
- معنى قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «اتق الله» ٥٩
- معنى قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «حيثما كنت» ٦٠
- معنى قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «وأتبع السيئة الحسنة تمحها» .. ٦٤
- حديث عن الذنب ٦٩
- الحكمة من خلق السيئات وتقدير المعاصي ٧٣
- حديث عن الحسنات والسيئات ٩٠
- شرح قوله «والذنوب يزول موجبها بأشياء»: بداية الحديث عن موانع إنفاذ الوعيد: ٩٢
- أحدها: التوبة. ٩٥
تعريف التوبة ٩٦
فضائل التوبة وأسرارها ٩٧
مسائل في التوبة ٩٩

- **الثاني من موانع إنفاذ الوعيد: الاستغفار** ١٠٥
- الكمال هو الجمع بين التوبة والاستغفار ١٠٩
- فروق بين التوبة والاستغفار ١٠٩
- أفضل صيغ الاستغفار ١١٤
- من صيغ الاستغفار ١١٤
- من فضائل الاستغفار ١١٤
- أقوال في الاستغفار ١١٥
- **الثالث: من موانع إنفاذ الوعيد: الأعمال الصالحة المكفرة:** . . . ١١٦
الكفارات المقدرة ١١٧
الكفارات المطلقة ١١٨
- مسألة: هل الحسنات والأعمال الصالحة تكفر الصغائر أو الكبائر؟ ١١٨
- مسألة مهمة في تكفير الأعمال الصالحة للسيئات، ومنها الكبائر: وهل الأعمال الصالحة تقوى على تكفير الكبائر بإطلاق؟ ١٢٨
- شرح قوله: «**واعلم أن العناية بهذا من أشد ما بالإنسان الحاجة إليه**». ١٣٢
- بحث في الأزمنة التي تشبه الجاهلية ١٣٥
- أحاديث عن التشبة بأهل الكتاب ١٣٧
- سريان التشبه إلى بعض المنتسبين إلى العلم والعبادة ١٤٣
- أنفع ما للخاصة والعامة ١٤٧
- من أضرار الذنوب ١٤٩
- تعريف الحسنات ١٥٣
- **الرابع من موانع إنفاذ الوعيد: المصائب المكفرة** ١٥٤
- شرح قوله: «**وخالق الناس بخلق حسن**» وهو حق الناس . . ١٦٠

- تعريف الخلق الحسن ١٦١
- فائدة في معاني (لما) ١٦٣
- جماع الخلق الحسن ١٦٥
- أمور تعين على العفو والصبر على الأذى ١٦٩
مسائل في حسن الخلق ١٧٤
أولاً: فضائل حسن الخلق ١٧٤
ثانياً: هل يمكن اكتساب الأخلاق أو لا يمكن؟ ١٧٦
- معنى الخلق العظيم الذي وصف الله به محمداً ﷺ ١٧٩
- بيان كون التقوى تشمل حقوق الله وحقوق العباد إذا انفردت، ومعناها إذا اجتمعت مع الخلق ١٨٢
- بيان أن ينبوع الخير وأصله: إخلاص العبد لربه ١٨٧
تعريف الإخلاص وفضله ١٨٧
شروط العبادة ١٩١
أركان العبادة ١٩٢
فضائل العبادة وأهميتها ١٩٣
- الاستعانة: تعريفها وفضلها ١٩٥
- شرح قوله ـ تعالى ـ: ﴿عليه توكلت وإليه أنيب﴾ ٢٠٢
تعريف الإنابة في اللغة والشرع ٢٠٢
الإنابة إنابتان ٢٠٣
من علامات الإنابة ٢٠٤
- شرح قوله ـ تعالى ـ: ﴿فابتغوا عند الله الرزق واعبدوا واشكروا له﴾ . ٢٠٦
وقفات مع الشكر: ٢٠٧

أولاً: تعريف الشكر في اللغة والشرع ٢٠٧
ثانياً: أركان الشكر وقواعده ٢٠٧
ثالثاً: فضل الشكر وأهميته ٢٠٨
رابعاً: قصة عجيبة في الشكر ٢٠٩
- شرح قوله: **«بحيث يقطع العبد تعلق قلبه من المخلوقين...»** . ٢١٣
- شرح قوله: **«ويجعل همته ربه ـ تعالى ـ»** ٢١٦
- الحث على ملازمة الدعاء ٢١٨
- شرح قوله: **«والعمل له بكل محبوب»** ٢٢١
- شرح قوله: **«ومن أحكم هذا ـ يعني ما مضى ذكره من الإخلاص، وقطع التعلق بالمخلوقين، وجمع الهمة على الله ـ فلا يمكن أن يوصف ما يعقبه ذلك ـ»** ٢٢٢
كلام جميل لشيخ الإسلام ابن تيمية في بيان ما يجده أهل الظلم والفجور من الخوف والعذاب، وما يجده أهل الإيمان من الطمأنينة وانشراح الصدر ٢٢٤
كلام جميل لابن القيم في بيان حاجة الإنسان إلى إقباله على ربه: ٢٢٥
نماذج وأمثلة لأحوال أهل الإيمان ٢٢٥
- **أفضل الأعمال بعد الفرائض** ٢٢٩
- بيان أن ذلك يختلف باختلاف الناس ٢٣٢
- كلام جميل لابن تيمية في بيان أفضل الأعمال بعض الفرائض، وأنه يختلف باختلاف الناس ٢٣٢
- شرح قوله: **«لكن مما هو كالإجماع بين العلماء بالله وأمر أن ملازمة ذكره دائماً هو أفضل ما شغل به العبدُ نفسه في الجملة»** . . . ٢٤٢

- الأدلة على فضل الذكر ٢٤٤
- من فوائد الذكر ٢٤٦
- الأذكار المؤقتة ٢٥١
- الأذكار المقيدة ٢٥٢
- ملازمة الذكر مطلقاً ٢٥٣
- أفضل الذكر (**لا إله إلا الله**) ٢٥٣
- قد تعرض أحوال يكون بقية الأذكار أفضل من (**لا إله إلا الله**) . ٢٥٥
- فصل نفيس لابن القيم في تفاضل الذكر والدعاء، وما يعرض للمفضول فيجعله فاضلاً ٢٥٥
- فضل التسبيح، والتحميد، والتكبير، والحوقلة ٢٥٨
- أذكار مطلقة عظيمة ٢٦١
- طبقات الناس في الذكر ٢٦١
شرح في عموم مفهوم الذكر وأنه يشمل كل ما تكلم به اللسان، وتصوره القلب مما يقرب إلى الله مع ذكر أمثلة ٢٦٣
- حديث عن الاستخارة، وفضلها عند اشتباه الأمور ٢٦٦
- شرح قوله «**وليكثر من ذلك ومن الدعاء؛ فإنه مفتاح كل خير**» . ٢٦٩
- من بركات الدعاء ٢٧٠
- الأوقات الفاضلة للدعاء ٢٧١
- مسألة في تأخر إجابة الدعاء، والحكم من وراء ذلك ٢٧٤
- شرح قوله: «**وأما أرجح المكاسب فالتوكل على الله**» ٢٧٨
- التوكل في اللغة وفي الشرع ٢٧٨
- مسائل في التوكل ٢٧٨

أولاً: ما الذي يحقق التوكل ٢٧٨
ثانياً: سر التوكل ٢٧٩
ثالثاً: منزلة التوكل ومراتب الناس فيه ٢٧٩
رابعاً: أعظم التوكل وأفضله ٢٨٠
خامساً: توكل المغبونين ٢٨١
سادساً: من صدق توكلُه نال مطلوبه ٢٨١
- شرح قوله: «**والثقة بكفايته**» ٢٨٢
- قوله «**وحسن الظن به**» ٢٨٤
تعريف حسن الظن ٢٨٤
- مسائل في حسن الظن ٢٨٤
أولاً: معنى حسن الظن بالله ٢٨٤
ثانياً: ضابط حسن الظن بالله ٢٨٥
ثالثاً: فضل حسن الظن بالله ٢٨٦
- شرح قوله: «**وذلك أنه ينبغي للمهتم بأمر الرزق أن يلجأ إلى الله، ويدعوه**» ٢٨٨
كلمات وأبيات جميلة في العزة ٢٩٠
- الحديث القدسي (**يا عبادي**) ٢٩٣
- لطائف وفوائد وشرح للحديث القدسي «**يا عبادي...**» ٢٩٣
- شرح لحديث «**ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها...**» ٢٩٥
- شرح لقوله ـ تعالى ـ: ﴿**واسألوا الله من فضله**﴾ وقوله ﴿**فإذا قضيت الصلاة...**﴾ ٢٩٧
- شرح قوله: «**وهذا أمر، والأمر يقتضي الإيجاب؛ فالاستعانة بالله،**

واللجوء إليه في أمر الرزق وغيره ـ أصل عظيم» ٣٠٠
- شرح قوله: «ثم ينبغي له أن يأخذ المال بسخاوة نفس؛ ليبارك له فيه، ولا يأخذه بإشراف وهلع» ٣٠٤
كلمات وأبيات جميلة في العزة، وكرامة النفس ٣٠٦
- شرح قوله «بل يكون المال عنده بمنزلة الخلاء...» ٣٠٧
- شرح حديث «من أصبح والدنيا همه...» ٣٠٨
- شرح قوله: «فأما تعيين مكسب على مكسب...» ٣١٣
- شرح قوله: «وأما ما تعتمد عليه من الكتب في العلوم فهذا باب واسع...» ٣١٩
- شرح قوله: «لكن جماع الخير أن يستعين بالله ـ سبحانه ـ في تلقي العلم الموروث عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ» ٣٢٠
- بيان حقيقة العلم النافع ٣٢١
- شرح قوله «ولتكن همته فهم مقاصد الرسول في أمره، ونهيه، وسائر كلامه» ٣٢٥
- شرح قوله: «فإذا اطمأن قلبه أن هذا هو مراد الرسول فلا يعدل عنه...» ٣٢٧
- شرح قوله: «وليجتهد أن يعتصم في كل باب من أبواب العلم بأصل مأثور..» ٣٣٢
- شرح قوله: «وإذا اشتبه عليه مما قد اختلف فيه الناس فليدع بما رواه مسلم..» ٣٣٢
- شرح قوله: «وأما وصف الكتب والمصنفين..» ٣٣٨

- شرح قوله: **«وما في الكتب المصنفة المبوبة كتاب أنفع من صحيح محمد بن إسماعيل البخاري»** ٣٤٠
- وقفات حول سيرة الإمام البخاري، وكتابه الصحيح: ٣٤٢
أولاً: سبب تصنيف البخاري لكتابه الجامع الصحيح ٣٤٢
ثانياً: حرصه على تحري الدقة ٣٤٣
ثالثاً: نسب الإمام البخاري ومولده ٣٤٣
رابعاً: سيرته وبعض شمائله ٣٤٣
خامساً: حرصه على العلم ٣٤٥
سادساً: شعره ٣٤٦
سابعاً: ثناء الناس عليه ٣٤٦
ثامناً: طائفة من الرؤى التي رئيت به ٣٤٧
تاسعاً: وفاة الإمام البخاري ٣٤٨
- شرح قول شيخ الإسلام: **«لكن هو وحده ـ يعني صحيح البخاري - لا يقوم بتمام المقصود...»** ٣٥٠
- شرح قوله **«وقد أوعبت الأمة في كل فن من فنون العلم إيعاباً»** . . ٣٥٢
- شرح قوله: **«فمن نوَّر الله قلبه هداه بما يبلغه من ذلك، ومن أعماه لم تزده كثرة الكتب إلا حيرة وضلالاً»** ٣٥٧
- شرح قوله: «كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لزياد بن لبيد الأنصاري: **«أوليست التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى؟ فماذا تغني عنهم»** . ٣٦٢
- خاتمة الرسالة دعوات عظيمة ٣٦٢
- المحتويات ٣٦٣